

روضۃ العقلاء و نزہۃ الفضلاء
ابن حبان البستی

To PDF: <http://www.al-mostafa.com>

مسند الكتاب إلى المؤلف , المقدمة

أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الرهاوي أدام الله تأييده! وأجزل من كل خير مزيده، في شهور سنة اثنتين وستمائة.

قال: حدثنا الأمير القاضي الإمام عمدة الدين معين الإسلام ناصر السنة أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحسين بن محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن محمد البوسنجي من لفظه ببوسنج في شهور سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

قال: أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد عفيف الدين أبو جعفر حنبل بن عليّ ابن الحسين البخاريّ الصوفي السني رحمه الله.

قال: أخبرنا الشيخ أبو محمد أحمد بن محمد بن أحمد التوي سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

قال: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الشروطيّ.

قال: أخبرنا أبو حاتم محمد بن حبان البستي رضي الله عنه قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بوحداية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية القائم على نفوس العالم بأجلها، والعالم بتقلبها وأحوالها، أمانّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته، فألهمهم حسن الإطلاق، وركّب فيهم تشعب الأخلاق، فهم على طبقات أقدارهم يمشون، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون و "23:23 كل حزب بما لديهم فرحون".
وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر السموات العلاء، ومنشئ الأرضين والثرى، لا معقّب لحكمه ولا راد لقضائه "23:21 لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون".

واشهد أن محمداً عبده المُجتبي، ورسوله المرتضى، بعثه بالنور المضيّ، والأمر المرضيّ، على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، فدمغ به الطغيان، وأكمل به الإيمان، وأظهره على كل الأديان، وقمع به أهل الأوثان، فصلّى الله عليه وسلم ما دار في السماء فلّك، وما سبح في الملكوت ملك، وعلى آله أجمعين!

أما بعد، فإن الزمان قد تبين للعاقل تغيره، ولاح لليب تبدله، حيث يبس ضرعه بعد الغرارة، وذبل فرعه بعد النضارة، ونحل عوده بعد الرطوبة، وبشع مذاقه بعد العذوبة، فنبغ فيه أقوام يدعون التمكن من العقل من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم، وترك ما يوجهه نفس العقل بحجسات قلوبهم، جعلوا أساس العقل الذي يعتقدون عليه عند العضلات: النفاق والمداهنة، وفروعه عند ورود النائبات حسن اللباس والفصاحة، وزعموا أن من أحكم هذه الأشياء الأربع فهو العاقل، الذي يجب الاقتداء به، ومن تخلف عن إحكامها فهو الأنوك الذي يجب الإزوار عنه.

فلما رأيت الرعاع من العالم يغترون بأفعالهم والهمج من الناس يقتدون بأمثالهم، دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف، يشتمل متضمنة على معنى لطيف، مما يحتاج إليه العقلاء في أيامهم، من معرفة الأحوال في أوقاتهم، ليكون كالتذكرة لدوي الحجي عند حضرتهم، وكالمعين لأولى النهي عند غيبتهم، يفوق العالم به أقرانه، والحافظ له أنرا به، يكون النديم الصادق للعاقل في الخلوات، والمؤنس الحافظ له في الفلوات، إن خص به من يجب من إخوانه، لم يفتقده من ديوانه، وإن استبد به دون أوليائه، فاق به على نظرائه. أبين فيه ما يحسن للعاقل استعماله من الخصال الحمودة، ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة، مع القصد في لزوم الاقتصار، وترك الإمعان في الإكثار، ليخف على حامله، وتعيه أذن مستمعه، لأن فنون الأخبار وأنواع الأشعار، إذا استقصى المجتهد في إطالتها، فليس يرجو النهاية إلى غايتها، ومن لم يرج التمكن من الكمال في الإكثار، كان حقيقاً أن يقنع بالاختصار.

والله الموفق للسداد، والهادي إلى الرشاد، وإياه أسأل إصلاح بالأسرار، وترك المعاقبة على الأوزار، إنه جواد كريم، رءوف رحيم.

الحث على لزوم العقل

وصفة العاقل اللبيب

حدثنا محمد بن يوسف بن مطر حدثنا عبد الله بن أحمد بن شويه حدثنا أحمد بن يونس حدثنا فضيل بن عياض عن محمد بن ثور عن معمر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب مكارم الأخلاق، ويكره سفافها".

قال أبو حاتم: لست أحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم خيراً صحيحاً في العقل، لأن أبا بن أبي عياش، وسلمه بن وردان، وعمير بن عمران، وعلي بن زيد، والحسن بن دينار، وعبد بن كثير، وميسرة عبد ربه، وداود ابن الحبر، ومنصور بن صفر وذويهم، ليسوا ممن أحتج بأخبارهم، فأخرج ما عندهم من الأحاديث في العقل.

وإن محبة المرء المكارم من الأخلاق وكرهته سفافها هو نفس العقل. فالعقل به يكون الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ولا مال أفضل منه، ولا يتم دين أحد حتى يتم عقله.

والعقل: اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باحتساب الخطأ، فإذا كان المرء في أول درجته يسمى أديماً، ثم أريباً، ثم لبيباً، ثم عاقلاً، كما أن الرجل إذا دخل في أول حد الدهاء قيل له: شيطان، فإذا عتا في الطغيان قيل: مارد، فإذا زاد على ذلك قيل: عبقرى فإذا جمع إلى خبثه شدة شدة شر قيل: عفريت وكذلك الجاهل، يقال له في أول درجته: الماتق: ثم الرقيق، ثم الأتوك، ثم الأحمق. وأفضل مواهب الله لعباده العقل، ولقد أحسن الذي يقول:

وأفضل قَسَمِ الله للمرءِ عقلُهُ
فليسَ من الخيراتِ شيءَ يقاربه
إذا أكملَ الرحمنُ للمرءِ عقلُهُ
فقدَ كملتْ أخلاقُهُ ومآربه
يعيشُ الفتى في الناسِ بالعقلِ، إنه
على العقلِ يجري علمُهُ وتجاربه
يزيدُ الفتى في الناسِ جودُهُ عقله
وإن كانَ محظوراً عليه مكاسبُهُ

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا أحمد بن سيّار حدثنا حبيب الجلاب. قال: قيل لابن المبارك "ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن،

قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشير، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صَمْتُ طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل" أخبرنا محمد بن داود الرازي حدثنا محمد بن حَمِيدٍ حدثنا ابن المبارك قال "سئل عقيل: ما أفضل ما أعطى العبد؟ قال: غريزة عقل، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدب حسن، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأخ شقيق يستشير، قال: فإن لم يكن؟ فطولُ صَمْت، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت عاجل".

قال أبو حاتم: العقل نوعان: مطبوع ومسموع، فالمطبوع منهما كالأرض، والمسموع كالبذر والماء. ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له محصول دون أن يرد عليه العقل المسموع، فبينهما من رَقَدته، ويطلقه من مكانه، يستخرج البذر والماء ما في قعر الأرض من الرَّبْع.

فالعقل الطبيعي من باطن الإنسان بموضع عروق الشجرة من الأرض، والعقل المسموع من ظاهرة كتدلي ثمر الشجرة من فروعها.

أنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

فمطبوع ومسموع

رأيت العقل نوعين

إذا لم يك مطبوع

ولا ينفع مسموع

وضوء العين ممنوع

كما لا تنفع الشمس

أخبرنا القطان بالرقعة حدثنا موسى بن مروان حدثنا بقرية عن عبد الله بن حسان حدثني ابن عامر، قال: قلت لعطاء بن أبي رباح "يا أبا محمد، ما أفضل ما أعطى العبد؟ قال: العقل عن الله".

أنشدني أحمد بن عبد الله الصنعائي لعبد الله بن عكراش:

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

يَزِينُ الفتى في الناس صحة عقله

وإن كرمته أعرافه ومناسبه

يَشِينُ الفتى في الناس خفة عقله

قال أبو حاتم: فالواجب على العاقل: إن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلف منه ما أحيا جسده من القوت، لأن قوت الأجسام المطاعم، وقوت العقل الحكم، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب، وكذلك العقول إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت.

والتقلب في الأمصار والاعتبار بخلق الله مما يزيد المرء عقلاً، وإن عدم المال في قلبه.

أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي:

عَدَمَ المال، إذا ما العقلُ صح

إن ذا العقلِ يرى غنما له

إن وَقَا العقلُ، وإن دينٌ صلح

ما على المرءِ بَعْدُ سُبَّةٌ

أخبرنا محمد بن المسيب حدثنا أحمد بن إسماعيل المدني قال: سمعت حاتم ابن إسماعيل يقول " ما استودع الله عقلاً عبداً إلا استنقذه به يوماً ما"

قال أبو حاتم: العقل دواء القلوب، ومطية المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن في الدنيا، وعُدته في وقوع النوائب، ومن عدم العقل لم يزد السطان عزا، ولا المال يرفعه قدراً، ولا عقل لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الزمانة الجهل، كذلك أشد الفاقة عدم العقل. والعقل والهوى متعاديان، فالواجب على المرء: أن يكون لرأيه مُسَعِفاً، وهواة مسوفاً. فإذا اشتبه عليه أمران أجنب أقربهما من هواه؛ لأن في مجانبته الهوى إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر.

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصاري ثنا ثنا محمد بن عبيد الله الجشمي

حدثنا المدائني، قال: قال معاوية بن أبي سفيان لرجل من العرب عمراً دهرًا " اخبرني بأحسن شيء رأيته، قال: عقل طلب به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة" وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أياديته، وتم بناؤه

فإن لم يكن عقل تبيين نقصه ولو كان ذا مال كثيراً عطاؤه

أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو كامل الجحدري حدثنا عمران بن خالد الخزازي قال: سمعت الحسن يقول: " ما تم دينٌ عبد قط حتى يتم عقله" قال أبو حاتم: أفضل ذوي العقول منزلة أدمهم لنفسه محاسبة، وأقلهم عنها فترة.

فبالعقل تعمر القلوب، كما أن بالعلم تستخرج الأحلام، وعمود السعادة العقل، ورأس العقل الاختيار، ولو صور العقل صورة لأظلمت معه الشمس لنوره، فقرب العاقل مرَجُو خيره على كل حال، كما أن قرب الجاهل مخوف شره على كل حال.

ولا يجب للعاقل أن يغتم؛ لأن الغم لا ينفع، وكثرته تزري بالعقل، ولا أن يحزن؛ لأن الحزن لا يرد المرزئة. ودوامه ينقص العقل.

والعاقل يحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، فإذا وقع فيه رضى وصبر، والعاقل لا يخيف أحداً أبداً ما استطاع، ولا يقيم على خوف وهو يجد منه مذهباً، وإذا خاف على نفسه الهوان طابت نفسه عما يملك من الطارف والتالد، مع لزوم العفاف، إذ هو قطب شُعب العقل. أنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

أو لست تأمر بالعفاف وبالتقى وإليه آل الأمر حين يؤول؟

فإن استطعت فخذ بعقلك فضلا إن العقول يرى لها تفضيل

أخبرنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني بالكرج حدثنا محمد بن علي الطاحي حدثنا عمرو بن عثمان الخزاز الحاراني حدثنا مفضل بن صالح قال: علي "لما أهبط الله آدم من الجنة أتاه جبريل، فقال: إني أمرت أن أخيرك في ثلاثة، فاختر واحدة، ودع اثنتين، فقال آدم: وما الثلاث؟ قال: الحياء والدين والعقل، فقال آدم: فإني قد اخترت العقل، قال: فقال جبريل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا: إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، ثم عرج جبريل وقال: شأنكم" قال أبو حاتم: من حسن عقله وقبح وجهه فقد أفقد فضائل نفسه قبائح وجهه، ومن حسن وجهه وقل عقله فقد أذهب محاسن وجهه نقائص نفسه، فلا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدماً، لأن العاقل قد يرجى له الغنى، "ولا" يوثق للجاهل المكثّر ببقاء ماله، ومال العاقل وما قدم من صالح عمله. وآفة العقل الصلّف والبلاء الرُدي، والرخاء المفرط؛ لأنّ البلايا إذا تواترت عليه أهلكت عقله، والرخاء إذا تواتر عليه أبطره، والعدو العاقل خير للمرء من الصديق الجاهل. أنشدني علي بن محمد البسّامي:

من الجاهل الوامق الأحمق

عدوك ذو العقل أبقي عليك

ويقصد للأرشد الأرفق

وذو العقل يأتي جميل الأمور

أخبرنا محمد بن الحسين بن قتيبة بعسقلان حدثنا ابن أبي السري حدثنا داود بن الجراح وضمرة بن ربيعة عن خليل بن دعلج قال: سمعت معاوية ابن قرّة يقول "إن القوم ليحجون ويعتمرون، ويجاهدون ويصلون، ويصومون، وما يُعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم" سمعت محمد بن محمود بن عدي النسائي يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت حفص بن حميد الأكاف يقول: "العاقل لا يغبن، والورع لا يغبن" قال أبو حاتم: هذه لفظة جامعة، تشتمل على معان شتى، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا السرور بغير أمن، كذلك لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عمل، وكما أن السرور تبع للأمن، والقراءة تبع للمودة، كذلك المروءات كلها تبع للعقل. وعقول كل قوم على قدر زمامهم، فالعاقل يختار من العمر أحسنه وأن قل، فإنه خير من الحياة النكدية وأن طالت، والعقل الموعى - غير المنتفع به - كالأرض الطيبة الخراب. والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يكثر التماري إلا عند القبول، ولا يسرع الجواب إلا عند الثبوت.

والعاقل لا يستحقر أحداً؛ لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته، ومن استحقر العام أذهب صيانتَه.

والعاقل لا يخفى عليه عيب نفسه؛ لأن من خفي عليه عيب نفسه خفيت عليه محاسن غيره، وإن من أشد

العقوبة للمراء أن يخفى عليه عيبه؛ لأنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه، وليس بنائل محاسن من لم يعرفها، وما أنفع التجارب للمبتدي.

أنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

ألم تر أن العقل زين لأهله

وأن كمال العقل طولُ التجارب

وقد وعظ الماضي من الدهر ذا النهي

ويزداد في أيامه بالتجارب

أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الحكم ابن عبد الله قال "كانت العرب تقول: العقل التجارب، والحزم سوء الظن" قال أبو حاتم: لا يكون المرء بالمصيب في الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب والعامل يكون حسن المآخذ في صغره، صحيح الاعتبار في صباه، حسن العفة عند إدراكه، رضى الشمائل في شبابه، ذا الرأي والحزم في كهولته يضع نفسه دون غايته برتوة. ثم يجعل لنفسه غاية يقف عندها، لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار إلى النقص. ولا ينفع العقل إلا بالاستعمال، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا ينفع الرأي إلا بالانتحال، كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان.

ومن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه أخاف أن يكون حتفه في أقرب الأشياء إليه.

ورأس العقل: المعرفة بما يمكن كونه قبل أن يكون.

والواجب على العاقل أن يجتنب أشياء ثلاثة، فإنها أسرع في إفساد العقل من النار في يبيش العوسج:

الاستغراق في الضحك، وكثرة التمني، وسوء الثبوت؛ لأن العاقل لا يتكلف ما لا يطيق، ولا يسعى إلا لما يدرك، ولا يعدُّ إلا بما يقدر عليه، ولا ينفق إلا بقدر ما يستفيد، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ما عنده من الغناء ولا يفرح بما نال إلا بما أجدى عليه نفعه منه.

والعاقل يبذل لصديقه نفسه وماله، ولمعرفته رفده ومحضره، ولعدوه عدله وبره، وللعامه بشره وتحيته، ولا يستعين إلا بمن يجب أن يظفر بحاجته، ولا يحدث إلا من يرى حديثه مغنما، إلا أن يغلبه الاضطرار عليه، ولا يدعي ما يحسن من العلم، لأن فضائل الرجال ليست ما أذعواها ولكن ما نسبها الناس إليهم، ولا يبالي ما فاته من حطام الدنيا، مع ما رزق من الحظ في العقل.

أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي:

فمن كان ذا عقل، ولم يك ذا غنى

يكون كذي رجلٍ، وليست له نعلٌ

ومن كان ذا مال، ولم يك ذا حجى

يكون كذي نعل، وليست له رجل

قال أبو حاتم: كفى بالعاقل فضلا وإن عدم المال: بأن تُصَرَّف مساوي أعماله إلى المحاسن، فتجعل البلاذة منه حلماً، والمكر عقلاً، والهذر بلاغة، والحدة ذكاء، والعي صمتاً، والعقوبة تأديباً، والجرأة عزمًا، والجبن تأنيباً، والإسراف جوداً، والإمساك تقديراً، فلا تكاد ترى عاقلاً إلا موقراً للرؤساء، ناصحاً للأقران، موافقاً للإخوان، متحرزاً من الأعداء، غير حاسد للأصحاب، ولا مخادع للأحباب، ولا يتحرش بالأشرار، ولا ييخل في الغنى، ولا يشره في الفاقة، ولا ينقاد للهوى، ولا يجمح في الغضب، ولا يمرح في الولاية، ولا يتمنى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، ولا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً، ولا يشكو الوجود إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه؛ لأن من مدح رجلاً بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه، ومن قبل المدح بما لم يفعله فقد استهدف للسخرية.

والعاقل يكرم على غير مال كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً.
وكلام العاقل يعتدل كاعتدال جسد الصحيح، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض.
وكلام العاقل وإن كان نزرًا حُظوة عظيمة، كما أن مقارنة المأثم وإن كان نزرًا مصيبة جليلة.
ومن العقل الثابت في كل عمل قبل الدخول فيه.
وآفة العقل العجب، بل على العاقل أن يوطن نفسه على الصبر على جار السوء، وعشيرة السوء، وجليس السوء، فإن ذلك مما لا يخطيه على ممر الأيام.
ولا يجب للعاقل أن يجب أن يسمى به، لأن من عرف بالدهاء حذر، ومن عقل العاقل دفن عقله ما استطاع، لأن البذر وأن خفي في الأرض أياماً فإنه لا بد ظاهر في أوانه، وكذلك العاقل لا يخفي عقله وأن أخفى ذلك جهده.
وأول تمكن المرء من مكارم الأخلاق هو لزوم العقل.
أنشدني علي بن البسامي:

فالعقل أولها والصمت ثانيها

إن المكارم أبوابٌ مُصنَّفة

والجود خامسها، والصدق سادسها

والعلم ثالثها، والحلم رابعها،

واللين تاسعها، والصدق عاشيها

والصبر سابعها، والشكر ثامنها

أخبرنا عمر بن عبد الله بن عمر الهجري بالأبلة حدثنا عبد الله بن خبيق حدثنا موسى بن طريف قال شعيب بن حرب: قال لي شعبه "عقولنا قليلة، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلاً منا ذهب ذلك القليل، وإني لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلاً منه فامقته".

قال أبو حاتم: أول خصال الخير للمرء في الدنيا العقل، وهو من أفضل ما وهب الله لعباده فلا يجب أن يدنس نعمة الله بمجالسة من هو بضدها قائم.

والواجب على العاقل: إن يكون حسن السمّت طويل الصمت، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء، كما أن سوء السمّت وترك الصمت من شيم الأشقياء.

والعاقل لا يطول أمله؛ لأن من قوى أمله ضعف عمله، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله.

والعاقل لا يقاتل من غير عُدّة، ولا يخاصم بغير حجة، ولا يصارع بغير قوة، لأن بالعقل تحيا النفوس، وتنور القلوب، وتمضي الأمور، وتعمر الدنيا.

والعاقل يقيس ما لم ير من الدنيا بما قد رأى، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع، وما لم يصب منها إلى ما قد أصاب، وما بقي من عمره بما فني، وما لم ينل منها بما قد أوتي، ولا يتكل على المال وإن كان في تمام الحال، لأن المال يحل ويرتحل، والعقل يقيم ولا يبرح، ولو أن العقل شجرة لكانت من أحسن الشجر، كما أن الصبر لو كان ثمرة لكان من أكرم الثمر.

والذي يزداد به العاقل من نماء عقله هو التقرب من أشكاله، والتباعد من أضداده.

ولقد أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبي سعيد الثعلبي حدثنا محمد بن أبي مالك الغزي، قال: سمعت أبي يقول "جالسوا الألباء: أصدقاء كانوا أو أعداء؛ فإن العقول تلقح العقول".

قال أبو حاتم: مجالسة العقلاء لا تخلو من أحد معنيين: إما تذكر الحالة التي يحتاج العاقل إلى الانتباه لها، أو الإفادة بالشيء الخطير الذي يحتاج الجاهل إلى معرفتها.

فقرّب العاقل غنم لأشكاله وعبرة لأضداده، على الأحوال كلها.

ولا يجب لمن تسمى به أن يتدلّل إلا على من يحتمل دلاله، ويقبل إلا على من يجب إقباله، ولو كان للعقل أبوان لكان أحدهما الصبر، والآخر التثبّت.

جعلنا الله ممن رُكّب فيه حسن وجود العقل، فسلك بتمام النعم مسلك الخصال التي تقربه إلى ربه، في داري الأمد والأبد؟ إنه الفعال لما يريد.

ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله

أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير - بئسّر - حدثنا عمر بن شبة حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا شعبة عن زيادة بن علاقة عن أسامة بن شريك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما كره الله شيئاً فلا تفعله إذا خلوت" قال أبو حاتم: الواجب على العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شعباً من المأمورات والمزجورات، لا بد له من معرفتها، واستعمالها في أوقاتها، لمباينة العامّ، وأوباش الناس بها.

وإني ذاك في هذا الكتاب - إن الله قضى وشاءه - خمسين شعبة من شعب العقل من المأمورات والمزجورات، ليكون الكتاب مشتملاً على خمسين باباً، بناء كل باب منها على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نتكلم في عقيب كل سنة منها بحسب ما يُمْنُ الله به من التوفيق لذلك إن شاء الله.

فأول شعب العقل هو لزوم تقوى الله، وإصلاح السريرة، لأن من صلح جَوَانِيهِ أصلح الله برّانيه، ومن فسد جَوَانِيهِ أفسد الله برّانيه.

ولقد أحسن الذي يقول:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقلُ
خلوتُ، ولكن قل: عليّ رقيبُ

ولا تحسبنّ يغفل ساعة
ولا أنّ ما يخفي عليه يغيبُ

ألم تر أنّ اليوم أسرع ذاهبٍ
وأنّ غداً للناظرين قريبُ؟

أخبرنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعديّ حدثنا شعبة بن هبيرة حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال "اتخذ طاعة الله تجارة تأتلك الأرباح من غير بضاعة".

قال أبو حاتم: قطب الطاعات للمرء في الدنيا: هو إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر.

والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة قلبه عند إقباله وأدباره، وحرركته وسكونه؛ لأن تكثُر الأوقات وتنغص اللذات لا يكون إلا عند فساده.

ولو لم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدي العاقل إلى استعماله إلا إظهار الله عليه كيفية سريرته، خيراً كان أو شراً، لكان الواجب عليه قلة الإغضاء عن تعاهدها.

أنشدني عبد العزيز سليمان الأبرش:

يُلبس الله في العلانية العب
د الذي كان يختفي في السريرة

حسناً كان، أو قبيحاً سيّدي
كل ما كان ثم من كل سيرة

فاستح الله أن تُرائي للن
اس فإنّ الرياء بنس الذخيرة

أخبرنا أبو يعلى حدثنا شريح بن يونس حدثنا عبّيدة بن حُميد عن منصور عن عطاء بن أبي رباح عن أبيه قال: قال كعب "والذي فلق البحر لبني إسرائيل، إني لأجد في التوراة مكتوباً: يا بن آدم، اتق ربك، وصل رحمك، وبر والدك، يمد لك في عمرك، ويُسّر لك، يُسرّك، ويصرف عنك عُسرَك".

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا محمد بن علي الشقيقي حدثنا أبي حدثنا جعفر سليمان الضبعي عن مالك بن دينار قال "إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن،

وإن قلوب الأبرار تَعْلَى بأعمال البرِّ. وإن قلوب الفجَّار تغلي بأعمال الفجور. والله يرى همومكم، فانظروا ما همومكم؟ رحمكم الله".

أنشدني محمد بن مبد الله بن زنجي البغدادي:

فليكن أحسنَ منه ما تُسرِّ

وإذا أعلنتَ أمراً حسناً

ومسرِّ الشرِّ موسومٍ بِشرِّ

فمسرِّ الخيرِ موسومٌ به

أخبرنا أبو يعلي حدثنا شريح بن يونس حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال "إن الرجل ليتكلم بالكلام ينوي فيه الخير. فيلقى الله في قلوب العباد، حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الخير. وإن الرجل ليتكلم بالكلام الشر لا ينوي فيه الخير، فيلقى الله في قلوب الناس حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الشر".

حدثنا محمد بن عمر الممداني حدثنا القطواني حدثنا سيَّار حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال: سمعت الحسن يقول "إنكم وقوفٌ هاهنا تنتظرون آجالكم وعند الموت تَلْقَوْنَ الخير، فخذوا مما عندكم لما بعدكم".

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يأخذ مما عنده لما بعده من التقوى والعمل الصالح: بإصلاح السريرة، ونفي الفساد عن خلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه. فإذا كان صحة السبيل في إقباله موجوداً أنفذه بأعضائه. وإن كان عدم وجوده موجوداً كبجعه عنها، لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء. وأنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

لَفي وَحِشَةٍ من كُلِّ نظرة ناظر

وإنَّ امرأً لم يَصْفُ اللهُ قلبه

إلى داره الأخرى فليس بتاجر

وإنَّ امرأً لم يرتحل ببضاعة

لمنقلبٍ منها بصفقةٍ خاسر

وإنَّ امرأً ابتاع دنيا بدينه

أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفي ببغداد حدثنا أبو نصر التمار حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربيعي قال "كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فأمره سيده أن يذبح شاة، فذبح شاة، فقال: أئتني بأطيب مُضغتين في الشاة، فأتاه باللسان والقلب، ثم مكث أياماً، فقال: اذبح شاة، فذبح، فقال: ائتني بأخبث مضغتين في الشاة، فألقى إليه اللسان والقلب، فقال له سيده: قلت لك حين ذبحت ائتني بأطيب مضغتين في الشاة، فأتيتني باللسان والقلب، ثم قلت لك الآن حين ذبحت الشاة: ائتني بأخبث مضغتين في الشاة،

فألقيت اللسان والقلب؟ فقال: إنه لا أطيب منها إذا طابا، ولا أحبث منهما إذا خبثا".
وأنشدني منصور بن محمد الكرزي:

وما المرء إلا قلبه ولسانه
إذا حصلت أخباره ومدآخله
إذا ما رداء لم يك ظاهراً
فهيهات أن يُنقيه بالماء غاسله
وما كل من تخشى ينالك شره
وما كل ما أملت أنت نائله

أخبرنا أحمد بن عيسى بن السكّبن - بواسط - حدثنا عبد الحميد بن محمد بن مُستام حدثنا مَخلد بن يزيد حدثنا صالح بن حسان المؤذن قال "دخلت على عمر ابن عبد العزيز، فسمعتة يقول: لا يتقي الله عبداً حتى يجد طعم الذل".

قال أبو حاتم: العاقل يفتش قلبه في ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن جميع المزجورات، ويأخذها بالقيام في أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة في الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائماً حتى يوجد منه صحة التثبت في الأفعال.
أنشدني علي بن محمد البسامي:

وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلاً يصدّق قوله بفعال
وإذا اتقى الله امرؤ وأطاعه
فידاه بين مكارم ومعال
وعلى التقي إذا تراسخ في التقى
تاجان: تاج سكينه، وجمال
وإذا تناسبت الرجال، فما أرى
نسباً يكون كصالح الأعمال

أخبرنا القطان بالرقعة حدثنا عبد الله بن رومي البراز عن أبيه قال: قلما دخلت على إسحاق بن أبي ربيعي الرفاعي إلا وهو يتمثل بهذا البيت:

خير من المال والأيام مقبلة
جيب نقي من الآثام والدنس

أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أخبرنا الربيع عن الحسن قال "أفضل العمل الورع والتفكر" قال أبو حاتم: العاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويمضي لسانه بلزوم التقوى، لأن ذلك أول شُعب العقل، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب.

ومثل قلب العاقل إذا لزم رعاية العقل - على ما نذكرها في كتابنا هذا أن الله قضى ذلك وشاءه - كأن قلبه شُرح بسكاكين التقيّة، ثم ملح بملح الخشية، ثم جُف بريح العظمة، ثم أحي بماء القرية، فلا يوجد فيه إلا ما يرضى المولي جل وعلا، ولا يبالي المرء إذ كان بهذا النعت أن يتّضع عند الناس، ومحال أن يكون

ذلك أبداً.

سمعت أحمد بن موسى بواسط يقول "وجدت" على خف عطاء السلمي مكتوباً، وكان حائكاً:

ألا إنما التقوى هو العز والكرم
وليس على عبد تقى نقيصة
وفخرك بالدنيا هو الذل والعدم
إذا صحح التقوى، وإن حاك أو حجم

أخبرنا محمد بن زنجويه القشيري حدثنا عمرو بن علي حدثنا طريف بن سعيد حدثنا القاسم بن عبد الله الأنصاري عن محمد بن علي بن حسين قال "إذا بلغ الرجل أربعين سنة ناداه ماد من السماء: دنا الرحيل، فأعدّ زاداً".

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إذا انتسب الناس كان التقى
ومن يتق الله يكسب به
بتقواه أفضل من ينتسب
ومن يتخذ سبباً للنجاة
فإن تقى الله خير السبب

وأنشدني أحمد بن محمد بن عبد الله الصنعاني لابن عكراش:

ومهما يسر يبدل لربه
ومن كان غلاباً بجهد ونجدة
وما ينسه الإنسان لا ينس كاتبه
فدو الحظ في أمر المعيشة غالبه

وأنشدني أبو بدر أحمد بن خالد بن عبيد الله بن عبد الملك بجران:

يا نفس، ما هو إلا صبر أيام
يا نفس، جُوزي عن الدنيا مبادرة
كأن لذاتها أضغاث أحلام
وخل عنها، فإن العيش قدامي

أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصاري أخبرنا سويد بن نصر أخبرنا عبد الله أخبرنا سفيان عن معن قال: قال عبد الله "إن هذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإن لها فترةً وأدباراً، فخذوها عند شهواتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وأدبارها".

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه؛ لأن بصلاح الملك تصلح الجنود، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجتأقربهما من هواه، وتوخي أبعدها من الردى.

ولقد أحسن الذي يقول:

وإذا تشاجر في فؤادك مرّة

أمران، فاعمد للأعف الأجمل

وإذا هممت بأمر سوء، فاتتد

وإذا هممت بأمر خير فافعل

أخبرنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بالبصرة، حدثنا إبراهيم بن عزرة الشامي عن مسعر بن كدام عن عون بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب "جالسوا التّوايين، فإنهم أرق أفئدة".

أخبرنا أبو يعلي حدثنا محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا محمد بن مروان حدثنا عطا الأزرق قال: رجل للحسن "يا أبا سعيد، كيف أنت؟ وكيف حالك؟ قال: كيف حال من أمسى وأصبح ينتظر الموت، ولا يدري ما يُصنع به".

وأنشدني منصور بن محمد الكرزي:

تخيّر قريناً من فعالك، إنما

يزينُ الفتى في القبر ما كان يفعلُ

فإن كنت مشغولاً بشيء، فلا تكن

بغير الذي يرضي به الله تشغُلُ

فلا بدّ بعدَ القبرِ من أن تُعدّه

ليوم ينادي المرء فيه، فيسألُ

فلن يصحبَ من قبل موته

ولا بعده إلا الذي كان يعملُ

ألا نما الإنسان ضيفاً لأهله

يقيم قليلاً بينهم ثم يرحلُ

أخبرنا علي بن سعيد العسكري حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا محمد بن الحسين حدثنا إسماعيل بن زيادة قال "قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عبّادان في بعض قداماته، فأتيناه نُسلم عليه، فقال لنا: صفوا للمنعم قلوبكم، يكفكم المؤمن عند همكم" ثم قال "لو خدمت مخلوقاً فأطلت خدمته، ألم يكن يرعى لخدمتك جرمة؟ فكيف بمن ينعم عليك وأنت مسيء إلى نفسك، تتقلب في نعمه، وتتعرض لغضبه؟ هيهات هيهات، همّة البطالين، ليس لهذا حلقتن، ولا بدأ أمرتم، الكيس الكيس رحمكم الله" وكان يفطر على ماء البحر.

قال أبو حاتم: لن تصفو القلوب من وجود الدرن فيها حتى تكون الهم في الله همّاً واحداً، فإذا كان كذلك كفي الهم في الهموم إلا الذي يؤول متعقبه إلى رضا الباري جل وعز، بلزوم تقوى الله في الخلوة والملا إذ هو أفضل زاد العقلاء في دارهم وأجل مطية الحكماء في حالهم.

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الوسطي:

عليك بتقوى الله في كل أمره

تجد غبه يوم الحساب المطول

ألا إن الله خير مغبة

وأفضل زاد الطاعن المترحل

قال أبو حاتم: قد ذكرت هذا الباب بكامله بالعلل والحكايات في كتاب مَحَجَّةَ المبتدئين بما أرجو العُنْبَةَ للنظر إذا ما تأملها، فأعنى ذلك عن تكراره في هذا الكتاب.

الحث على لزوم العلم

والمداومة على طلبه

أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع قالوا: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن زرِّ بن حبَّيش قال: "أتيت صفوان بن عَسَّال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلتُ: جئت أنبئ العلم قال: فأني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من خارج يخرج من بيته يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضىً بما يصنع".

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريره: إن يثنيَّ بطلب العلم والمداومة عليه، إذ لا وصول للمرء صفاء شيء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكم العاقل أن لا يقتصر في سلوك حالة توجب له بسط الملائكة أجنحتها رضىً بصنيعه ذلك.

ولا يجب أن يكون متأملاً في سعيه الدنو من السلاطين، أو نوال الدنيا به، فما أقبح بالعالم التذلل لأهل الدنيا!.

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدي حدثنا داود بن أحمد الدمياطي حدثنا عبد الرحمن بن عَفَّان قال سمعت الفضيل بن عياض يقول "ما أقبح بالعالم يورثي إلى منزله، فيقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالم؟ فيقال: عند القاضي، ما للعالم وما للقاضي؟ وما للعالم وما للأمير؟ ينبغي للعالم أن يكون في مسجده يقرأ في مصحفه".

حدثنا أبو يعلى حدثنا غسان بن الربيع حدثنا سليم مولي الشعبي عن الشعبي قال "يا طلاب العلم، لا تطلبوا العلم بسفاهة وطيش، اطلبوه بسكينة ووقارٍ وتؤدة".

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وفي ترك طاعاتِ الفؤادِ المتيمِّ

وفي العلم والإسلام للمرءِ وازع

وإخلاص صدق علمها بالتعلم

بصائرُ رُشدٍ للفتى مُستبينة

أخبرنا إبراهيم بن نصر حدثنا عبد بن حميد حدثنا سعيد بن عامر عن حميد بن الأسود عن عيسى بن أبي عيسى الخياط قال: قال الشعبي "إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان: العقل، والنسك،

فإن كان عاقلاً ولم يك ناسكاً قيل: هذا أمر لا يناله إلا النساك، فلم يطلبه، وإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً قيل: هذا أمرٌ لا يناله إلا العقلاء، فلم يطلبه" قال الشعبي: "فلقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليس فيه واحدة منهما، لا عقلٌ ولا نساك".

قال أبو حاتم: العاقل لا يبيع حظ آخرته بما قصد في العلم لما يناله من حطام هذه الدنيا؛ لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره؛ لأن المبتغى من الأشياء كلها نفعها لا نفسها، والعلم ونفس العلم شيان، فمن أغضى عن نفعه لم ينتفع بنفسه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، والعلم له أول وآخر. كما حدثنا أحمد بن علي بن المثنى حدثنا عمرو الناقد حدثنا يحيى بن اليمان قال: سمعت سفيان يقول "أول العلم الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل به، ثم النشر" وأنشدني الأبرش:

وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ

تعلم فليس المرء يولد عالماً

صغيرٌ إذا التفت عليه المحافلُ

وإن كبير القوم لا علم عنده

أخبرنا أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني حدثنا جرير عن بُرد بن سنان عن سليمان بن موسى قال: أبو الدرداء "لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً، ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون بع عاملاً".

قال أبو حاتم: العاقل لا يشتغل في طلب العلم إلا وقصده العمل به؛ لأن من سعى فيه لغير ما وصفنا ازداد فخرًا وتجبراً وللعمل تركاً وتضييعاً، فيكون فسادُه في المتأسين به أكثر من فساده في نفسه، ويكون مثله كما قال الله تعالى "16: 25" ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرّون" أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدي حدثنا داود بن أحمد حدثنا عبد الرحمن ابن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول "في جهنم أرحية تطحن العلماء طحناً، فقيل: من هؤلاء؟ قال: قوم علموا فلم يعملوا" أخبرنا عبد الله بن محمد السعدي حدثنا محمد بن النضر بن مساور حدثنا جعفر ابن سليمان عن مالك بن دينار قال "إذا طلب الرجل العلم ليعمل به سرّه علمه، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به زاده علمه فخرًا" أخبرنا محمد بن عمر بن سليمان حدثنا محمد بن رافع حدثنا محمد بن بشر حدثني سلمة بن الخطاب عن عبد الحميد بن أبي جعفر الفراء قال: قال الحسن "من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قبله، ومن أراد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلا بعداً، ولم يزد من الله إلا بغضاً" أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثني أحمد بن إبراهيم الحدثي حدثني إسماعيل ابن الحارث حدثني محمد بن الحسن حدثنا أبو العوام "إن إبراهيم سمع صوت هاتف، وهو يقول:

وبابن النوم، واهجر الشبعا

يا طالب العلم باشِرِ الورعا

أجاع يوماً في الله أو شبعا

ماضر عبداً صحت إرادته

ماضر عبداً صحت عزائمہ
 ما طمعت نفس عابد فنوی
 یا أيها الناس، ما لعالمکم
 یا أيها الناس، أنتم زرع
 أين من الأرض، أينما صقعا
 سؤال قوم إلا لهم خضعاً
 في بحر ماء الملوك قد كرعا
 يحصده الموت كلما طلعا

أخبرنا ابن سالم حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي حدثنا يحيى بن اليمان العجلي عن سفیان الثوري قال "العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجتر الطبيب الداء إلى نفسه، فمتى يداوي غيره؟" أنشدني أحمد بن محمد الصنعاني أنشدني محمد بن عبد الله العراقي:

عُنوا يطلبون العلم في كل بلدة
 وصحَّ لهم إسناده وأصوله
 ومالوا على الدنيا، فهم يخلبونها
 فيا علماء السوء، أين عقولكم؟
 شباباً، فلما حصَّوه وحشروا
 وصاروا شيوخاً ضيعوه وأدبروا
 بإخلافها مفتوحها لا يُصررُ
 وأين الحديثُ المسند المتخير؟

أخبرنا جعفر بن محمد الهمداني - بصُورَ - حدثنا محمد بن عبد الله البعلبكي قال: سمعت عمي محمد بن زيد قال "كنت مع ابن المبارك ببغداد، فرأى إسماعيل ابن عُليَّةَ راكباً بَعْلَةً على باب السلطان، فأنشأ يقول:

يا جاعل الدين له بازياً
 لا تبع بدنيا، كما
 احتلت للدنيا ولذاتها
 وصرت مجنوناً بها بعدما
 ففكر الناسُ جميعاً بأن
 يصطاد أموال السلاطين
 يفعل ضلَّال الرهبانين
 بخيلة تذهب بالدين
 كنت دواء للمجانين
 زلَّ حمار العلم في الطين

أخبرنا عبد العزيز بن الحسن البرذعي حدثنا زكريا بن يحيى حدثنا أحمد بن عبد الله التستري قال "لما ولي ابن عُليَّةَ صدقات الإبل والغنم بالبصرة، كتب إليه ابن المبارك كتاباً، وكتب في أسفله:

يا جاعل الدين له بازياً
 احتلت للدنيا ولذاتها
 يا فاضح العلم ومن كان ذا
 يصطاد أموال المساكين
 بحيلة تذهب بالدين
 لبُّ ومن عاب السلاطين

أين رواياتك في سردها

عن ابن عون وابن سيرين؟

وزاد غير أحمد بن عبد الله:

إن قلت: أكرهت، فماذا كذا

زل حمار العلم في الطين

فلما قرأ ابن عُلَيَّةَ الكتاب بكى، ثم كتب جوابه، وكتب في أسفله:

أفّ لدنيا أبت تواتيني

إلا بنقضي لها عرى ديني

عَيَّتِي لِحَيَّتِي تدير مقلتها

تطلب ما سرّها لترديني

أخبرنا محمد بن علي الصيرفي بالبصرة حدثنا العباس بن الوليد التّرسّي حدثنا وهيب عن أيوب عن أبي قلابة عن ابن مسعود قال "عليكم بالعلم قبل أن يُقبَضَ وَقبَضُهُ أن يذهب أصحابه، وإنكم ستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدي متى يفتقر، أو يُفتقر إليه عنده؟ وعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وعليكم بالعتيق" حدثنا محمد بن زنجوية القشري حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو قتيبة حدثنا قرّة بن خالد عن عون بن عبد الله قال: قال ابن مسعود "ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية".

حدثني إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحارث بن مسكين حدثنا ابن القاسم قال: سمعت مالكا يقول "ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية" قال أبو حاتم: الواجب على العاقل: مجانية ما يدنس علمه من أسباب هذه الدنيا، مع القصد في لزوم العمل بما قدّر عليه، ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مائتي حديث، فيكون كأنه قد أدى زكاة العلم، فمن عجز عن العمل بما جمع من العلم فلا يجب أن يعجز عن حفظه.

ولقد أنبأنا ابن قحطبة حدثنا حسين بن محمد الكوفي قال: سمعت محمد ابن بشير الخزاعي يقول:

أما لو أعِي كل ما أسمعُ

وأحفظ من ذلك ما أجمع

ولم أستفد ما قد جمع

ت لقليل: هو العالم المقنع

ولكنّ نفسي إلى كل شيء

من العلم تسمعه تنزَعُ

وأحضرُ بالجهل في مجلسي

وعلمي في الكتب مُستودع

فلا أنا أحفظ ما قد جمعت

ولا أنا من جمعه أشبَعُ

ومن يك في علمه هكذا

يكن دهره القهقري يرجع

إذا لم تكن حافظاً واعياً

فجمعك للكتب لا ينفع

وأنشدني محمد بن عبد الله المؤدب:

غيرَ ذي حِفْظٍ ولكن ذا غَلَطٍ

جامع العلم تراه أبداً

كتب الخَطَّ بصيراً بالنُّقْطِ

وتراه حَسَنَ الخَطِّ إذا

قال: علمي يا خليلي في السَّفَطِ

فإذا فتشته عن علمه

وبخطَّ أي خطَّ أي خط

في كراريس جواد أحكمتُ

حكَّ لَحْيَيْهِ جميعاً وامْتَخَطَّ

فإذا قلت له: هاتِ لنا

أخبرنا محمد بن يعقوب الخطيب بالأهواز حدثنا حفص بن عمرو الربالي حدثنا الحجاج بن نصير حدثنا عبد القدوس قال: سمعت وهب بن منبه يقول "من تعلم علماً في حق وسنة: لم يذهب الله بعقله أبداً" حدثنا عبد الله بن قحطبة حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال "كتب إلي أبي، وأنا بالكوفة: اشتر الصحف، واكتب العلم؛ فإن المال يفنى، والعلم يبقى". حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى أنبأنا عبد الله بن المبارك قال "كتب حكيم من الحكماء ثلاثين صحيفة حكيم، فأوحى الله إليه: إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإن الله لم يتقبل شيئاً من نفاقك". قال أبو حاتم: اقتناء المرء عمره بكثرة الأسفار، ومباينة الأهل والأوطان في طلب العلم دون العمل به، أو الحفظ له، ليس من شيم العقلاء، ولا من زي الألباء، وإن من أجرد ما يستعين المرء به على الحفظ: الطبع الجيد، مع الهمة واجتناب المعاصي، وأنشدني الأبرش:

أو لبعض العقول صحة طبع

نعم عون الفتى الطلُّوب لعلم

م وصار العناء في غير نفع

فإذا الطبعُ فاتته بطلَّ العِل

سمعت إبراهيم بن نصر العنبري يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت وكيعاً يقول "استعينوا على الحفظ بترك المعصية".

قال أبو حاتم: يجب على العاقل أن لا يطلب من العلم إلا أفضله، لأن الازدياد من العلم آثر عند العاقل من الذكر بالعلم، والعلم زين في الرخاء، ومنجاة في الشدة، ومن تعلم أزداد، كما أن من حلم ساد، وفضل العلم في غير خير مهلكة، كما أن كثرة الأدب في غير رضوان الله مؤبقة، والعاقل لا يسعى في فنونه إلا بما أجدى عليه نفعاً في الدارين معاً، وإذا رزق منه الحظ لا ييخل بالإفادة، لأن أول بركة العلم الإفادة، وما رأيت أحداً قط بخل بالعلم إلا لم ينتفع بعلمه، وكما لا ينتفع بالماء الساكن تحت الأرض ما لم ينقع، ولا بالذهب الأحمر ما لم يستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس ما لم يخرج من بحرته، كذلك

لا ينتفع بالعلم ما دام مكنونا لا ينشر ولا يفاد.

أبنا أحمد بن مضر الرباطي حدثنا محمد بن سهيل بن عسكر حدثنا أبو صالح الفراء قال: سمعت ابن المبارك يقول "من بخل بالحديث يتلى بإحدى ثلاث: إما أن يموت فيذهب علمه، أو ينسى، أو يتلى بالسلطان".

حدثنا أبو يعلى إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير عن برء عن سليمان ابن موسى قال: قال أبو الدرداء "الناس عالم ومتعلم، ولا خير فيما بين ذلك" وأنشدني الكريزي:

وإلى علمك علما فاستند

أفد العلم، ولا تبخل به

عاملا بالعلم والناس أفد

استند ما استطعت من علم وكن

وسيغني الله عن من لم يفد

من يفدهم يجره الله به

إنما العاجز من لا يجتهد

ليس من نافس فيه عاجزا

حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا عمر بن حفص الشيباني حدثنا حماد ابن واقد عن هشام بن حسان عن الحسن قال "لأن يتعلم الرجل باباً من العلم فيعبد به ربه، فهو خير له من أن لو كانت الدنيا من أولها إلى آخرها له، فوضعها في الآخرة".

قال أبو حاتم: قد ذكرت أسباب المتعلمين وأخلاق العلماء بعلمها في كتاب "العالم والمتعلم، بما أرجو أن يكون فيه غنية لمن أراد الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن التكرار؛ لأننا شرطنا في هذا الكتاب الاختصار، كراهية سلوك التطويل، والإشارة إلى قصد نفس التحصيل.

الحث على لزوم الصمت

وحفظ اللسان

أخبرنا حامد بن محمد بن شعيب البلخي - ببغداد - حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا أبو الأحوص عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت".

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا ذكر المظيئين - اللتين ذكرتهما قبل إصلاح السريرة ولزوم العلم: إن يبلغ مجهوده حيث في حفظ اللسان حتى يستقيم له، إذ اللسان هو المورد للمرء للموارد العطب. والصمت يكسب المحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع

عن الكلام، والصمت منام العقل، والمنطق يقظته.

حدثنا محمد بن زنجويه حدثنا عبد الأعلى بن حماد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس إن لقمان قال "إن من الحُكْمِ الصمتَ، وقليلُ فاعله".

وأنشدني الكريزي.

أقلُّ كلامك واستعد من شره
وأحفظ لسانك واحتفظ من غيِّه
وكلُّ فؤادك باللسان، وقل له
فزناه ولنك محكما ذا قلة

أخبرنا ابن قتيبة حدثنا جعفر بن نوح حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع قال: سمعت مالك بن انس يقول "كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلام فإن فضله يضرُّ".

أخبرنا القطان حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا مروان بن محمد عن سعيد ابن عبد العزيز قال: قال أبو الدرداء "لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: مُنصتٌ واع، أو متكلم عالم".

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن لا يغالب الناس على كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأن الكلام وإن كان في وقته حظوةً جليلة فإن الصمت في وقته مرتبةٌ عالية، ومن جهل بالصمت عي بالمنطق والإنسان إنما هو صورة ممثلة أو صالة مهملة، لو لا اللسان، والله جل وعز رفع جارحة اللسان على سائر الجوارح، فليس منها شيء أعظم أجراً منه إذا أطاع، ولا أعظم ذنباً منه إذا جنى.

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي.

لئن كان يجنى اللوم ما أنت قائل
فلا تبتدِ قولاً من لسانك لم يرض
ولم يك منه النفع فالصمت أيسرُ
مواقعه من قبل ذلك التفكرُ

أخبرنا ابن قتيبة حدثنا هرون بن محمد البكار قال: سمعت أبا مسهر ينشد هذا البيت:

قد أرى كثرة الكلام قبيحا
كلُّ قول يشينه الإكثارُ

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثني محمد بن داود بن سليمان الرملي حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت ابن المبارك يقول:

تعاهد لسانك إن اللسان
وهذا اللسان بريدُ الفؤاد
سريع إلى المرء في قتله
يدلُّ الرجال على عقله

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس حدثنا محمد بن علي الشقيقي أنبأنا إبراهيم بن الشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول "شيثان يقسيان القلب: كثرة الكرم، وكثرة الأكل" أخبرنا أبو يعلي حدثنا عمرو بن محمد الناقد قال: سمعت يحيى بن اليمان يقول: قال سفيان الثوري: "أول العبادة الصمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به، ثم حفظه، ثم نشره" حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا العتيبي عن علي بن جرير عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس "الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه" قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسَلِّ يذكي القلوب ومُعَزِّ تردُّ به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

إن كان يعجبك السكوت فإنه	قد كان يعجب قبلك الأختيار
ولئن ندمت على سكوت مرة	فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة، ولربما	زرع الكلام عداوة وضرارا
وإذا تقرَّب خاسرٌ من خاسر	زادا بذلك خسارة وتبارا

أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا كثير بن عبد الله التيمي حدثنا العلاء ابن سعيد الكندي حدثني أبو حية قال "كنت أماشي إسماعيل بن سَهْل، وكان أحد الحكماء، فقال لي: ألا أخبرك ببيت شعر خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم؟ قال: نعم. قال: أيما أحبُّ إليك: نفسك أو عشرة آلاف درهم؟ قال: قلت: نفسي، فأنشأ يقول:

اخفض الصوت إن نطقت بليل
والتفت بالنهار قبل المقال

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يكون ناطقا كَعَبِيٍّ وعالما كجاهل، وساكتا كناطق؛ لأن الكلام لا بد له من الجواب والجواب لو جعل له جواب لم يكن للقول نهاية، وخرج المرء ما ليس له غاية، والمتكلم

لا يسلم من أن ينسب إليه الصَّلَف والتكلف، والصامت لا يليق به إلا الوقار وحسن السمات.
ولقد أحسن الذي يقول:

في جدّه أو لعبه

حتّف امرئ لسانه

رُكِبَ في مركبه

بين اللّها مقتله

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي ابن عائشة حدثنا دريد ابن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار عن الأحنف بن قيس قال: قال عمر بن الخطاب "يا أحنف، مَنْ كَثَرَ كَلَامَهُ كَثَرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثَرَ سَقَطَهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ" وأنشدني الأبرش:

إِلا يَزِلُّ، وَمَا يُعَابِ صَمُوتُ

مَا ذَلَّ ذُو صَمْتٍ، وَمَا مِنْ مَكْتَرٍ

فَالصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ الْيَاقُوتُ

إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فَضَّةٍ

أنبأنا ابن قتيبة حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت علي بن بكار يقول "جعل الله لكل شيء بايين، وجعل للسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين" أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بالبصرة حدثنا نصر بن علي الجهضمي أنبأنا محمد بن يزيد بن حنيس عن وهيب بن الورد "إن شابا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب، ويحسن الاستماع، ثم ينصرف من قبل أن يتكلم، ففطن له عمر، فقال له: إنك تحضر مجلسنا، وتحسن الاستماع، ثم تنصرف من قبل أن تتكلم، فقال الشاب: إني أحضر فأتوقى وأتقي، وأصمت فأسلم" قال أبو حاتم - رضي الله عنه: - الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول، لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على رد ما لم يقل أقدر منه على رد ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، والعجب ممن يتكلم بالكلمة، إن هي رفعت ربما ضرته، وإن لم ترفع لم تضره، كيف لا يصمت؟ ورُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً! أخبرنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن عليّ الدهلي قال: أنشدني رجل من ربيعة:

أحق بسجن من لسان مذلل

لعمرك ما شيء علمت مكانه

بقفل وثيق ما استطعت فأقفل

على فيك مما ليس يعينك شأنه

فساق إليه سهم حتف معجل

فرب كلام قد جرى من مُمَازح

فكن صامتا تسلّم، وإن قلت فاعدل

وللصمت خير من كلام بمائم

أخبرنا أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير عن برد عن سليمان ابن موسى قال: قال أبو الدرداء "كفى بك ظالما أن لا تزال محاصما، وكفى بك آثما أن لا تزال مماريا، وكفى بك كاذبا أن لا

تزال محدثا، إلا حديثاً في ذات الله تبارك وتعالى" أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا معروف بن الحسن الكناني حدثنا كثير ابن هشام عن عيسى بن إبراهيم عن سعيد بن أبي سعيد عن كعب قال "العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في السكوت" أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا أحمد بن إبراهيم الدرورقي حدثنا يحيى القطان عن شعبة قال "من الناس من عقله بفنائه، ومنهم من عقله معه، ومنهم من لا عقل له، فأما الذي عقله معه فالذي يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم، وأما الذي عقله بفنائه فالذي يبصر ما يخرج بعد أن يتكلم. ومنهم من لا عقل له، فحدثت به عبد الرحمن بن مهدي بعد ما رجعنا من عند يحيى، فقال: هذه صفتنا، يعني الذي عقله بفنائه، واستحسن الكلام، وقال: لا ينبغي أن يكون هذا من كلام شعبه، لعله سمعه من غيره" وأنشدني البغدادي محمد بن عبد الله بن زنجي:

أنت من الصمت آمن الزلل
ومن كثير الكلام في وجل
يا ليت ما كنت قلت لم أقل
لا نقل القول ثم تتبعه

سمعت محمد بن المسيب يقول: سمعت العباس بن الوليد بن زيد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت الأوزاعي يقول "ما بلى أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه" سمعت محمد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا أحمد بن أبي قديد يقول: سمعت العباس بن عبد العظيم يقول: سمعت عارماً يقول: سمعت خالد بن الحارث يقول "السكوت زين للعاقل، وشين للجاهل" قال أبو حاتم رضي الله عنه: لو لم يكن في الصمت خصلة تحمد، إلا تزئينُ العاقل وتثمينُ الجاهل به لكان الواجب على المرء أن لا يفارقه الصمت ما وجد إليه سبيلاً، ومن أحب السلامة من الآثام فليقل ما يقبل منه، وليقل مما يقبل منه، لأنه لا يجترئ على الكثير إلا فائق أو مائق، وقد ترك جماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الكلام فيما لا يليق بهم. من ذلك: ما حدثنا به محمد بن الحسن بن مكرم بالبصرة حدثنا عمرو بن علي حدثنا أمية بن خالد عن سعيد قال: قلت للحكم: مالك لا تكتب عن زاذان؟ قال: كان كثير الكلام. قال أبو حاتم رضي الله عنه: لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلم به، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

واللسان إذا صلح تبين ذلك على الأعضاء، وإذا فسد فكذلك.

أخبرنا محمد بن عبيد الله بن الجنيد حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أنبأنا سفيان عن رجل قال "إني كذب الكذبة فأعرفها في عملي" أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق حدثنا الفضل بن

عبد الجبار حدثنا أبو إسحاق الطالقاني عن الوليد بن مسلم قال: قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال "ما صلح منطق رجل إلا عُرف ذلك في سائر عمله".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يسأل ولا يقول إلا لمن يقبل، ولا يجيب إذا شوتم، ولا يجازي إذا أُسمع؛ لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسناً، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه" وأنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

صاحبُ صدق لكل مصطحبِ

الصمت عند القبيح يسمعه

يؤثرُ قول الحكيم في الكتب

فآثر الصمت ما استطعت، فقد

لكان جُلَّ السكوت من ذهب

لو كان بعضُ الكلام من ورق

أخبرنا بكر بن محمد بن عبد الوهاب القزاز حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر حدثنا أبي حدثنا بن فضالة عن المغيرة بن مسلم الهجيمي عن أسير ابن جابر قال "ما رضعت عتراً قط، ولو قلت: لا أرضعها خفت أن يصير بي البلاء إلى أن أرضعها، إن البلاء مُوكَّل بالقول" وأنشدني الكريزي:

إن في الصمت راحةً للصموتِ

استر العيَّ ما استطعت بصمت

رب قول جوابه في السكوت

واجعل الصمت إن عيبت جواباً

وأبنا محمد بن المنذر حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن منصور حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثنا سفيان عن يزيد بن حيان عن عيسى بن عقبة قال: سمعت ابن مسعود يقول "والله الذي لا إله غيره، ما شيء أحق بطول سجن من لسان" قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها في الأوقات، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمذهب لصالح الضمائر: الإكثار من الكلام، وإن أبيض له كثرة النطق، ولا سبيل للمرء إلى رعاية الصمت إلا بترك ما أبيض له من النطق.

كما أبنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله عن سفيان عن نسير بن دعلوق عن إبراهيم التيمي أخبرني من صحب الربيع بن خيثم عشرين عاماً فلم يسمع منه كلمة تعاب.

أبنا الجنيد حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله عن عبد الله أنبأنا سفيان عن أبي طعمة عن رجل من الحي قال: أتيت الربيع بن خيثم بنعي الحسين. وقالوا: اليوم يتكلم مقالة، فتأوه ومدَّ بها صوته، ثم قال: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك بالحق فيما كانوا فيه يختلفون".

أبنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب حدثنا الأصمعي قال "بيننا أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تمشي وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمة الجبار من تطلين؟"

فقلت: مَنْ يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، قال: فعلمت أنها قد أضلت أصحابها، فقلت لها: كأنك قد أضلت أصحابك؟ قالت: ففهمناها سليمان، وكُلًّا آتينا حكماً وعلماً، فقلت لها: يا هذه من أين أنت؟ قالت: سبحان الذي أسرى بعيده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، فعلمت أنها مقدسية، فقلت لها: كيف لا تتكلمين؟ فقلت: ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد، فقال بعض أصحابي: ينبغي أن تكوني هذه من الخوارج، فقلت: ولا تثقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسؤولاً، فبينما نحن نماشئها إذ رفعت لنا قباب وحيم، فقلت: وعلامات وبالنجم هم يهتدون، قال: فلم أفطن لقولها، فقلت: ما تقولين؟ فقلت: وجاءت سيارة فأرسلوا وأردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام، قلت: بمن أصوت وبمن أدعو؟ فقلت: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، يا زكريا أنا نبشرك، يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، قال: فإذا نحن بثلاثة أخوة كالآلئ، فقالوا: أمنا ورب الكعبة أضللناها منذ ثلاث، فقلت: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، فأومأت إلى أحدهم فقلت: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيُّها أركى طعاماً فليأتكم برزق منه، فقلت: إنها أمرتهم أن يزودونا، فجاءوا بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا في ذلك، فقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب، فدنوت منها، فقلت: يا أمة الله، أوصني، فقلت: ما أسألكم عليه من أجرة إلا المودة في القربى، فعلمت أنها شيعية، فانصرفت " قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات في كتاب حفظ اللسان فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

فلو اجب على العاقل أن يروض نفسه على ترك ما أبيض له من النطق، لئلا يقع في المزجورات، فيكون حَتْفَه فيما يخرج منه؛ لأن الكلام إذا كثر منه أورت صاحبه التلذذ بصد الطاعات، فإذا لم يوفق العبد لاستعمال اللسان فيما يُجدي عليه نفعه في الآخرة، كان وجود الإمساك عن السوء أولى به. وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

من الأمر ما لم يرضه نصحاؤه

ولن يهلك الإنسان إلا إذا أتى

إذا قلَّ قول المرء قلَّ خطاؤه

وأقل إذا ما قلت قولاً، فإنه

أنبأنا محمد بن الحسين بن الخليل حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا المعلى بن زياد قال: قال مُورِّق العجلي "أمرٌ أنا في طلبه منذ عشر سنين، ولست بتارك طلبه: قال: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عمالاً يعنيني".

أبنا إبراهيم بن نصر العنبري حدثنا علي بن الأزهر الرازي حدثنا إبراهيم ابن رستم قال: سمعت خارجة يقول "صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئاً".

الحث على لزوم الصدق

ومجانبة الكذب

أخبرني أحمد بن محمد بن حبيب الجنيدي قال: حدثنا حميد بن زنجويه حدثنا محاسن بن المودع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان قال: قال عبد الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب له أجرًا، وإن الرجل يكذب، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب له أجرًا".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن الله جل وعلا فضل اللسان على سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يعود آله خلقها الله للنطق بتوحيده بالكذب، بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه في داره، لأن اللسان يقتضي ما عود: إن صدقاً فصدقاً، وإن كذاباً فكذاباً. ولقد أحسن الذي يقول:

إن اللسان لما عودت معتاداً

عود لسانك قول الخير تحظ به

فاختر لنفسك، وانظر كيف ترتاد

موكل بتقاضي ما سننت له

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا الفضل بن العباس البغدادي حدثنا الهيثم ابن خارجة حدثنا الهيثم بن عمران قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول: "كان عبد الملك بن مروان يأمرني أن أحبب بنه السمن، وكان يأمرني أن لا أتعلم طعاماً حتى يخرجوا إلى البراز، وكان يقول: علم بني الصدق كما تعلمهم القرآن، وحبهم الكذب، وإن فيه كذا وكذا يعني القتل". وأنشدني الأبرش:

والصدق منجيك على كل حال

الكذب مُرديك، وإن لم تخف

لم تُبتخس وزنة مثقال

فانطق بما شئت تجد غبه

أخبرنا أبو يعلي حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سليم ابن حيان عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن عمر بن الخطاب قال "إن أبا بكر قام فينا عام أول، فقال: إنه لم يقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين، ألا إن الصدق البرّ في الجنة، ألا وإن الكذب والفجور في النار" أخبرنا أبو خليفة حدثنا أبو الوليد الطيالسي حدثنا عكرمة بن عمار حدثني طيسلة بن علي البهدي قال "كنت مع ابن عمر يوماً في أصول الأراك يوم عرفة، وبين يديه رجل من أهل العراق، فقال له الرجل: يا ابن المنافق، قال: المنافق، - ويحك! - الذي إذا حدث كذب، وإذا وعد لم ينجز، وإذا أوثمن لم يؤدّ" سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول: سمعت محمد بن خلف بن أبي الأزهر يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول "ما من مُضغَّة أحبُّ إلى الله من لسان صدوق، وما من مضغَّة أبغض إلى الله من لسان كذوب".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: كل شيء يستعار ليتحمّل به سهّل وجوده، خلا اللسان، فإنه لا ينبىء إلا عما عوّد، والصدق ينجي والكذب يُردّي، ومن غلبَ لسانه أمره قومه، ومن أكثر الكذب لم يترك لنفسه شيئاً يصدق به، ولا يكذب من هانت عليه نفسه.

حدثنا أحمد بن محمد بن زنجويه حدثنا جعفر بن أبي عثمان الطيالسي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا أنس بن عياض عن صالح بن حسان عن محمد بن كعب القرظي قال "إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه" وأنشدني الكريزي:

كذبت، ومن يكذب فإن جزاءه

إذا ما أتى بالصدق أن لا يصدّقاً

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يزل

لدى الناس كذاباً، وإن كان صادقاً

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه

وتلقاه إذا فقه إذا كان حاذقاً

قال أبو حاتم: لو لم يكن للكذب من الشين إلا إنزاله صاحبه بحيث أن صدقاً لم يُصدق، لكان الواجب على الخلق كافة لزوم التثبت بالصدق الدائم، وإن من آفة الكذب أن يكون صاحبه نسياً، فإذا كان كذلك كان كالمنادي على نفسه بالخزي في كل لحظة وطرفة.

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول: سمعت نصر بن علي الجهضمي يقول: "إن الله أعاننا على الكذابين بالنسيان" وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا ما المرء أخطأ ثلاث

فبعه، ولو بكف من رماد

سلامة صدره، والصدق منه،

وكتمان السرائر في الفؤاد

أنبأنا بكر بن أحمد الطاحي بالبصرة حدثنا إبراهيم بن عذرة حدثنا سفيان ابن عيينة عن معمر قال: قال الزهري "لو رأيت طاووساً لعلمت أنه لا يكذب" قال أبو حاتم رضي الله عنه: اللسان سبغ عقور، أن ضبطه صاحبه سلم، وإن خلى عنه عقره، وبفمه يفتضح الكذب، فالعاقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم فَيُتَّهَم فيما يعلم؛ لأن رأس الذنوب الكذب، وهو ييدي الفضائح ويكتم المحاسن، ولا يجب على المرء إذا سمع شيئاً يعيبه أن يحدث به لأن من حدث عن كل شيء أزرى برأيه، وأفسد صدقه.

وقد أنبأنا أبو خليفة حدثنا ابن كثير أنبأنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الأحوص عن عبد الله قال "حَسْبُ المؤمن من الكذب أن يحدث بكل ما سمع".

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال قال عيسى بن مريم عليه السلام "طوبى لمن خزن لسانه، ووسع بيته، وبكى على خطيئته".
أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

فالصدق أكرمها نتاجا

س حليفه بالصدق تاجا

في كل ناحية سراجا

وإذا الأمور تزوجت

الصدق يعقد فوق رأ

والصدق يقدح زنده

أنبأنا القطان حدثنا نوح بن حبيب حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن منصور عن ربيعي قالوا "من ذكرت يا أبا سفيان؟ قال: ذكرت ربيعا، وتَدْرُونَ مَنْ كَانَ ربيعي؟ كان رجلا من أشجع زعم قومه أنه لم يكذب قط، فسعى به ساع إلى الحجاج، فقال: هاهنا رجل من أشجع، زعم قومه أنه لم يكذب قط، وأنه يكذب لك اليوم، فإنك ضربت على ابنيه البعث فَعَصِيَا، وهما في البيت، وكان عقوبة الحجاج للعاصي ضرب السيف، قال: فدعاه، فإذا شيخ منحن، فقال له أنت ربيعي؟ قال: نعم، قال: ما فعل أباك؟ قال: هاهما ذان في البيت، قال: فحمله وكساه وأوصى به خيراً".

أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي عن أبيه قال "كان عمر بن الخطاب بمنى فخطب، فاتتهى إلى عجوز، فاستسقاها ماءً، فقالت: ما عندنا، فقال: لنا، فقالت: ما عندنا، فبدرت جارية، فقالت لها: تكذابين وما تستحين؟ ثم قالت لعمر: هذا السقاء فيه لبن، فسأل عمر عن الجارية فإذا أبوها ثقفى فخطبها على عاصم بن عمر، فزوجها منه، فولد له منها أم عاصم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان، رحمة الله عليه!".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الصدق يرفع المرء في الدارين، كما أن الكذب يهوي به في الحالين، ولو لم

يكن الصدق خصلة تحمد إلا أن المرء إذا عرف به قبل كذبه، وصار صدقا عند من يسمعه - لكان الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه، حتى يستقيم له على الصدق ومجانبة الكذب والعي في بعض الأوقات خير من النطق، لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعي خير منه. أنشدني المنتصر بن بلال:

تحدث بصدق إن تحدثت، وليكن
لكل حديث من حديثك حين
فما القول إلا كالثياب، فبعضها
عليك، وبعض في التخوت مصون
وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كم من حسيب كريم كان ذا شرف
قد شأنه الكذب وسط الحي إن عمدا
وآخر، كان صعلوكا، فشرقه
صدق الحديث وقول جانب الفندا
فصار هذا شريفا فوق صاحبه
وصار هذا وضيعاً تحته أبدا

أنبأنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، قال: قال عمر "لا يجد عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المرء وهو مُحَقُّ، ويدع الكذب في المزاح وهو يرى أنه لو شاء لغلِبَ".

أنبأنا ابن سعيد القزاز، حدثني يوسف بن سعيد بن مسلم حدثنا علي بن بكار عن يونس بن عبيد، عن حميد بن هلال، عن عبد الله بن عمرو قال: "ذَرَّ ما لستَ منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعينك، وأخزَنُ لسانك كما تخزن دراهمك" وأنشدني محمد بن المنذر بن سعيد الهروي:

القول كاللبن المحلوب، ليس له
ردُّ وكيف يرُدُّ الحالبُ اللبن؟
في ضرعه، وكذلك القول ليس له
في الجوف ردُّ قبيحاً كان أو حسناً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل ترك الإغضاء عن تعهد اللسان، لأن من كثر كلامه كثر سقطه، والسقط ربما تعدى غيره فيهلكه في ورطة لا حيلة له في التخلص منها، لأن اللسان لا يندمل جرحه ولا يلتئم ما قطع به، وكلم إذا وصل إلى القلب لم يترع إلا بعد مدة طويلة، ولم يستخرج إلا بعد حيلة شديدة، ومن الناس من لا يُكْرَم إلا للسانه، ولا يهان إلا به، فالواجب على العاقل أن لا يكون ممن يهان به.

أنبأنا عبد الله بن محمد الأتماطي الهمداني، حدثنا محمد بن عمير، حدثنا عبد الله بن الحسين العقيلي، حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا شبيب بن شبة، قال: سمعت ابن سيرين يقول "الكلام أوسع من أن يكذب فيه ظريف"

الحث على لزوم الحياء

وترك القحة

أنبأنا الفضيل بن الحباب الجُمَحِي، حدثنا القَعْنَبِيُّ عن شعبة عن منصور، عن ربعي، عن ابن مسعود: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت". قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الحياء، لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر، والحياء يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل، ومن لم ينصف الناس منه حياؤه، لم ينصفه منهم قحته، ولقد أحسن الذي يقول:

وليس بمنسوب إلى العلم والنهي
فتى لا ترى فيه خلائق أربع

فواحدة: تقوى الإله التي بها
ينال جسيمُ الخير والفضل أجمع
وثانية: صدق الحياء فإنه
طباع ذو المروءة يطبع
وثالثة: حلم إذا الجهل أطلعت
إليه خبايا من فجور تسرعُ
ورابعة: جود بملك يمينه
إذا نابِه الحق الذي ليس يدفع
وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا قلَّ ماء الوجه قلَّ حياؤه
فلا خير في وجه إذا قلَّ ماؤه
حياءك فاحفظه عليك، فإنما
يدل على وجه الكريم حياؤه

أنبأنا أبو خليفة حدثنا ابن كثير حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال "الأم شيء في المؤمن الفحش". قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحياء اسم يشتمل على مجانبة المكروه ومن الخصال والحياء حياآن: أحدهما: استحياء العبد من الله جل وعلا عند الاهتمام بمباشرة ما خطر عليه. والثاني: استحياء من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معاً. والحياآن جميعاً محمودان، إلا أن أحدهما فرضٌ والآخر فضل، فلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه فرض، ولزوم الحياء عند مقارفة ما كره الناس فضل.

وأنشدني محمد بن المنذر بن سعيد عن محمد بن خلف التيمي قال: أنشدني رجل من خزاعة:

إذا لم تخش عاقبة الليالي
ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله، ما في العيش خير

ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استخيا بخير

ويبقى العود ما بقي للحاء

حدثنا إسحاق بن إبراهيم القاضي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث بن سعد عن عقيل عن الزهري: إن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو يخطب "أيها الناس، استحيوا من الله، فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الغائط وإلا وأنا مُقَنَّع رأسي حياءً من الله".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحياء من الإيمان، والمؤمن في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجافي في النار، إلا أن يتفضل الله برحمته فيخلصه منه.

فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الواقع إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدوماً وتواتر الشر منه موجوداً؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها. ولقد أحسن الذي يقول:

وربَّ قبيحةٍ ما حال بيني

وبين ركوبها إلا الحياءُ

فكان هو الدواء لها، ولكن

إذا ذهب الحياء فلا دواء

وأبنا محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الأعلى ابن عبد الأعلى حدثنا هشام عن محمد عن كثير بن أفلح عن زيد بن ثابت قال: "من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعود نفسه لزوم الحياء من الناس، وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال الحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة، كما أن من أعظم بركة الحياء من الله الفوز من النار بلزوم الحياء عند مجانبته ما نهى الله عنه؛ لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معاً في المعاملة بينه وبين الله والعشرة بينه وبين المخلوقين، وإذا قوى حياؤه قوى كرمه، وضعف لؤمه، وإذا ضعف حياؤه قوى لؤمه وضعف كرمه، ولقد أنشدني علي بن محمد البسامي:

إذا رُزق الفتى وجهاً وقاحاً

تقلّب في الأمور كما يشاء

ولم يك للدواء ولا لشيء

يعالجه به فيه غناء

فما لك في متابعة الذي لا

حياء لوجهه إلا العناء

قال أبو حاتم: إن المرء إذا أشد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُتَت، ومن مُتَت أُوذِي، ومن أُوذِي حزن، ومن حزن فقد عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا

وفاء له، ولا وفاء لمن لا إحاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب.
وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع
إذا كنت تأتي المرء تُعظم حقه ويجهل منك الحق فالصرم أوسع

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثني عبد الله بن مسعود الثعلبي باليمن حدثنا أحمد بن زيد بن السكن الجندي عن سفيان بن عيينة قال: قال يحيى بن جعدة "إذا رأيت الرجل قليل الحياء فاعلم أنه مدخول في نسبه"

الحث على لزوم التواضع

ومجانبة التكبر

أنبأنا أبو خليفة حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما نقصت صدقة من مال، ولا زاد الله عنداً بعفو إلا عزاً ولا تواضع أحد لله إلا رفعه الله".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه أزداد بذلك رفعةً لكان الواجب عليه أن لا يتزياً بغيره. والتواضع تواضعان: أحدهما محمود، والآخر مذموم. والتواضع الحمود: ترك التطاول على عباد الله، والإزرء بهم. التواضع المذموم: هو تواضع المرء لذي الدنيا رغبةً في دنياه.

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يفارق التواضع الحمود على الجهات كلها. ولقد أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن بكير بن عبد الله، عن عبيد الله بن عدي أن عمر بن الخطاب قال "إن الرجل تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: أنتعش نعشك الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض، قال: أحسأ! أحسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس صغير" قال أبو حاتم رضي الله عنه: التواضع يرفع المرء قدراً، ويعظم له خطراً، ويزيده نبلاً.

والتواضع لله جل وعز على ضربين: أحدهما: تواضع العبد لربه عند ما يأتي من الطاعات غير معجب بفعله، ولا راء له عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى جل وعز هو الذي يتفضل

عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجب عن الطاعات والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حتى لا يرى أحداً من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنایات.

كما أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي ببغداد، حدثنا يحيى بن معين حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزني قال: قال أبي "يا بني لو لم أحضر الموسم لرجوت أن يغفر لهم".

أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى بن معاذ البزاز، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن صُميعة، حدثنا زهير بن محمد بن ابن جريح عن مجاهد في قوله "كانوا لنا خاشعين" قال "متواضعين" قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم مجانبة التكبر، لما فيه من الخصال المذمومة إحداها: أنه لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه، ويرى لها على غيرها الفضل؟ والثانية: ازدراؤه بالعلم، لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانا.

والثالثة: منازعة الله جل وعلا في صفاته، إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جل وعلا؛ فمن نازعه إحداهما ألقاه في النار، إلا أن يتفضل عليه بعفوه. ولقد أحسن الذي يقول:

للعقل، مهتكة للعرض، فانتهبه

التيه مفسدة للدين، منقصة

والعز في الحلم لا في البطش والسفه

لا تشهرهن؛ فإن الذل في الشره

سمعت محمد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا داود السنحي يقول: سمعت الأصمعي يقول: سمعت يحيى بن خالد البرمكي يقول "الشريف إذا تقرأ تواضع، والديء إذا تقرأ تكبر" قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يمتنع من التواضع أحد، والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمره التواضع المحبة، كما أن ثمره الفناعة الراحة، وإن تواضع الشريف يزيد في شرفه، كما أن تكبر الوضيع يزيد في ضعته، وكيف لا يتواضع من خُلِقَ من نطفة مَدْرَةٍ، وآخره يعود جيفة قدرة، وهو بينها يحمل العذرة؟ سمعت أبا يعلى يقول: سمعت إسحاق بن أبي إسرائيل يقول: سمعت ابن عيينة يقول: لو قيل: أخرجوا هذه القرية لأخرجوا من لا نعرف.

وأنشدني الكريزي:

فكم تحتها قوم همُ منك أرفع

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا

فإن كنت في عز وخير ومَنعة **فكم مات من قوم هم منك أَمنع؟**

أنشدنا أبو عروبة أو ابن قتيبة، أنشدنا المسيب بن واضح عن يوسف بن أسباط:

وكفى بملتمس التواضع رفعةً **وكفى بملتمس العلو سفالاً**

أنبأنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن هشام المروزي، حدثنا حفص بن غياث عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال "حج الحسين بن علي عشر حجج ما شيئاً ونُجِبُه تقاد إلى جنبه".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أفضل الناس مَنْ تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة، ولا يترك المرء المتواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه، وعجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، وما رأيت أحداً تكبر على مَنْ دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه. وأنشدني محمد بن أبي علي الخلاصي:

ودع التيه والعبوس على النا **س فإن العبوس رأس الحماقه**

كلما شئت أن تعادي عادي **ت صديقا وقد تغر الصداقه**

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما استُجلبت البغضة بمثل التكبر، ولا اكتسبت المحبة بمثل التواضع، ومَنْ استطال على الإخوان فلا يثقن منهم بالصفاء ولا يجب لصاحب الكبر أن يطمع في حسن الثناء، ولا تكاد ترى نائها إلا وضيعاً.

فالعاقل إذا رأى من هو أكبر سنّاً منه تواضع له، وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر سنّاً تواضع له، وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأى من هو مثله عده أخاً، فكيف يحسن تكبر المرء على أخيه، ولا يجب استحقار أحد، لأن العود المنبوذ ربما انتفع به فحكَّ الرجل به أذنه.

أخبرنا محمد بن المسيب بن إسحاق، حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد، قال: سمعت محمد بن شعيب بن شابور يقول "دخل رجل الحمام وزيد بن أبي حبيب فيه، وكان أسود، فقال له: يا أسود قم فاغسل رأسي قال: فقام فشد عليه إزاره فغسل رأسه، وذلك جسده، فلما فرغ قال له الرجل: كثر الله في السودان مثلك، قال: أحببت أن يكتر مَنْ يخدمك".

أنبأنا محمد بن زنجونه القشيري، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله المدائني، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال "لو بغى جبل على جبل لك الله الباغي منهما".

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا نصر بن علي، حدثنا نوح بن قيس عن أخيه عن قتادة قال: "ما نسيت شيئاً قط" ثم قال لغلامه "ناولني نعلي، قال: نعلك في رجلك".

أنبأنا عبد الله بن محمد بن عمر، أنبأنا علي بن خَشْرَم، قال: سمعت الفضل بن موسى يقول "كان مالك

ينسى، فقال لقهرمانه: أشتري غلاماً وسَمِّه باسم خفيف حتى لا أنساه، قال: فاشترى له غلاماً، وأدخله عليه، فقال: اشتريت لك هذا الغلام، وسميته باسم خفيف، قال: ما سميته؟ قال: فرَّقَد، قال: فنظر إلى الغلام، وقال: أجلس يا واقد"

استحباب التحبب إلى الناس

من غير مقارفة المأثم

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار ببغداد، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة، عن موسى بن عقبة، عن عبد الله بن عمرو الأزدي، عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "يحرم على النار كل هين لئِن قَرِيبٍ سَهْلٌ".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق: وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل، كما يفسد الخلُّ العسل، وقد تكون في الرجل أخلاقٌ كثيرةٌ صالحة كلها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها. وأنشدني البغدادي:

لا تكن كلباً على الناس يهراً

خالق الناس بخلق حسن

عنهم عرضك عن كل قدر

والقهم منك ببشر، ثم صن

أنبأنا حامد بن شعيب البلخي ببغداد، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا سفيان عن إبراهيم عن ميسرة عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول "إن الرحم تُقَطَّع، وإن النعم تُكْفَر، ولم أرَ مثل تقارب القلوب".

أنبأنا الخلافي، حدثنا محمد بن المغيرة النوفلي، حدثنا عبد العزيز بن منيب حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول "إذا خالطت فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبه منه في راحة ولا تخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصبحني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إلى من أن يصبحني قارئ سيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخف على الناس وأحبه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل على الناس ومقته".
وأنشدني محمد بن المهاجر المعدل، أنشدني محمد بن إبراهيم اليعمري:

ما بالجميل وبالقبيح خفاء

حافظ على الخلق الجميل ومُرْ به

بالبشر منك إذا يحين لقاء

إن ضاق مالك عن صديقك فالقه

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني، حدثنا يحيى بن حكيم المقومي، حدثنا الخليل بن عبد العزيز، قال: سمعت حماد بن سلمة يقول "الصوم في البستان من الثقل".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: حسن الخلق بَدْرُ اكتساب المحبة، كما أن سوء الخلق بَدْرُ استجلاب البغضة، ومن حسن خلقه صان عرضه، ومن ساء خلقه هتك عرضه؛ لأن سوء الخلق يورث الضغائن، والضغائن إذا تمكنت في القلوب أورثت العداوة، والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدين أهوت صاحبها إلى النار، إلا أن يتداركه المولى بتفضيل منه وعفو.
أنبأنا محمد بن المنذر، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا أبو عمير النخاس، حدثنا ضَمْرَة، عن رجاء بن أبي سلمة عن الزهري قال "وهل يُنتفع من السيئ الخلق بشيء؟".
وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

للخير أهل لا ترا
لوجوههم تدعو إليه
طوبى لمن جرت الأمور
ر الصالحات على يديه
ما لم يضق خلق الفتى
فالأرض واسعة عليه

أنبأنا أبو يعلي، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران قال "التوَدُّدُ إلى الناس نصفُ العقل، وحسن المسألة نصف العلم، واقتصادك في معيشتك يُلقى نصف المؤونة".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: التحبب إلى الناس أسهل ما يكون وجهاً، وأظهر ما يكون بشراً، وأحصر ما يكون أمراً، وأرفق ما يكون هيباً، وأحسن ما يكون خُلُقاً، وألين ما يكون كَنَفاً وأوسع ما يكون يداً، وأدفع ما يكون أذىً، وأعظم ما يكون احتمالاً، فإذا كان المرء بهذا النعت لا يَحْزَنُ من يجبه ولا يَفْرَحُ من يُحْسده؛ لأن من جعل رضاه تبعاً لرضا الناس، وعاشرهم من حيث هم أستحق الكمال بالسؤدد.
وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أعاشر مَعَشَرِي فِي كُلِّ أَمْرٍ
بأحسن ما رأيتُ وما رأيتُ
واجتنب المقابح حيث كانت
واترك ما هويتُ وما فرّيتُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: حاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه، والسبب الداعي إلى صدِّ محبتهم له: هو التضايق في الأخلاق، وسوء الخلق؛ لأن من ضاق خلقه سئمه أهله وجيرانه، وأستقله إخوانه، فحينئذ تمّنوا الخلاص منه، ودعوا بالهلاك عليه.

سمعت عمر بن سعيد بن سنان الطائي يقول: سمعت أبا الحسن الرهاوي يقول: سمعت يزيد بن هارون يقول:

فَقَدْتُ ثِقَالَ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ فَيَا رَبِّ لَا تَغْفِرْ لِكُلِّ ثَقِيلٍ

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن البلخي حدثنا محمد بن إدريس الحافظ حدثنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل قال: سمعت عمرو بن الحارث يقول: تسخين العين النظر إلى من تكره قال أبو حاتم رضي الله عنه: الاستئصال من الناس يكون سببه شيئين: أحدهما: مقارفة المرء ما نهى الله عنه من المآثم؛ لأن من تعدى حرمت الله أبغضه الله، ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة، ثم يوضع له البغض في الأرض، فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه.

والسبب الآخر: هو استعمال المرء من الخصال ما يكره الناس منه، فإذا كان كذلك استحق الاستئصال منهم. وأنشدني الكريزي:

لَيْتَنِي كُنْتُ سَاعَةً مَلِكِ الْمَوْتِ، فَأُفْنِي الثَّقَالَ حَتَّى يَبِيدُوا
وَلَوْ أَنِّي وَأَنْتَ فِي جَنَّةِ الْخَلِّ، لَدَلَّعْتُ: الْخُرُوجَ مِنْهَا أُرِيدُ
لَدُخُولِ الْجَحِيمِ أَهْوَنُ مِنْ جَنَّةِ الْخَلِّ، أَرَاكَ فِيهَا تَرُودُ

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بجنديسابور حدثنا اسحق بن الضيف حدثنا أبو مسهر حدثنا هشام بن يحيى قال "كان نفس خاتم أبيك - يعني أبا أبي مسهر - أبرمت فقم، قال: فكان إذا جلس الرجل فتثاقل حرك خاتمته، وقال: أقرأ نقش خاتمي، وكان إذا قرأ قام" أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن حدثنا محمد بن إدريس حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا موسى بن رباح قال: سمعت مخلداً أبا أبي عاصم يقول: إذا أبغضت الرجل أبغضت شقي الذي يليه.

سمعت محمد بن السري البغدادي يقول: سمعت أبا بكر المروزي يقول: سألت أحمد بن حنبل عن الثقلاء، فقال: سألت عنهم بشراً الحافي، فقال: النظر إليهم سُخْنَةٌ العين، قلت لأحمد: من الثقلاء؟ قال: أهل البدع.

قال أبو حاتم رضي الله عنه. هذا الذي قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه هو استئصال الخاص: إذا عرف أحدهم من بعض الناس ثلماً في السنة أبغضه على بدعته، فيما العام فلا يكادون يعادون ويوالون إلا على المحبوب من الخصال، والمكروه من الفعال، ألا ترى المقتع الكندي حيث يقول لبعض من صحبه:

أَلَا يَا مَرَكَبَ الْمَقْتِ أَلِ ذِي أَرْسَى، فَلَا يَبْرُخُ

ت من طلعتهُ أروخُ

فلا أدري لما تصلحُ؟

ولا تصلح أن تمدحُ

ل أو تصلب أو تدبُحُ

ويا من سكراتُ المو

لقد صوّرت في فكري

فلا تصلح أن تهجي

بلى، تصلح أن تُقت

سمعت أحمد بن محمد البلخي الذهبي يقول: قال محمد بن أبي الورد قال يحيى ابن ماسويه: النظر إلى الثقل حُمى تعترى بين الجلدين.

حدثنا أحمد بن عمر بن يزيد يقول: سمعت سلمة بن شبيب يقول: سمعت أبا أسامة يقول: اتنوي بمسّمل خفيف على الفؤاد، وإيأي والثقلأ، وإيأي والثقلأ.

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن حدثنا عباس بن أبي طالب حدثنا إبراهيم ابن المنذر حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن سيرين قال: سمعت رجلا من أهل البادية يقول: نظرت إلى ثقل مرة فغشى عليّ. وأنشدني المنتصر بن بلال:

ولكن لا تخفُّ على الفؤاد

كأنك من بقايا قوم عاد

وأنت على مودّتنا حريص

وأنقل من رجا بزُر علينا

حدثنا إبراهيم بن مضر بن عنبر حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا وكيع حدثنا أبو سهل عن إبراهيم بن بكير قال: كان أبو هريرة إذا استثقل جليسا له قال "اللهم اغفر لنا وله، وأرحنا منه في عافية". قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل مجانبة الخصال التي تورثه استثقال إياه، وملازمة الخصال التي تؤديه إلى محبتهم إياه.

ومن أعظم ما يتوسل به إلى الناس، ويستجلب به محبتهم؛ البذل لهم مما يملك المرء من حُطام هذه الدنيا، واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذى.

فلو أن المرء صحبه طائفتان: إحداهما تحبه، والأخرى تبغضه، فأحسن إلى التي تبغضه، وأساء إلى التي تحبه، ثم أصابته نكبة فاحتاج إليهما، لكان أسرعهما إلى خذلانه وأبعدهما عن نصرته الطائفة التي كانت تحبه، وأسرعهما إلى نصرته وأبعدهما عن خذلانه الطائفة التي تبغضه، لأن الكلب إذا شبع قوى، وإذا قوى أمّل، وإذا أمل تبع المأمول، وإذا جاع ضعف، وإذا ضعف أيس، وإذا أيس ولي عن المتبوع.

فمن عدم المال فلييسط وجهه للناس. فأن ذلك يقوم مقام بذل المعروف، إذ هو أحد طرفيه.

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا هارون بن عبد الخالق المازني قال: سئل ابن المبارك عن حسن الخلق، فقال "هو بسط الوجه، وبذل المعروف".

أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث حدثنا محمد بن القاسم الأسدي عن منحة بن عمرو قال "خرج غلام لنا بقمامة الدار، أو بكناسة الدار، عُريان، وسعيد بن جبير على الباب، فقال: يا خبيث ارفع إزارك".

أنبأنا محمد بن إبراهيم البدوري بالبصرة حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد قال: إذا لقي المسلم أخاه فصافحه وكثر وفي وجهه تحاتت ذنوبه، كما تحاتت العذق من النخلة. فقال رجل للمجاهد: يا أبا الحجاج، إن هذا من العمل اليسير. فقال مجاهد: "8:62 هو الذي أيدك بنصرة وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم" أفيسير هاذ؟.

استعمال لزوم المداراة

وترك المداهنة مع الناس

أنبأنا محمد بن قتيبة اللخمي بعسقلان وعمر بن سعيد بن سنان الطائي بمنبج قالاً: حدثنا ابن واضح حدثنا يوسف بن أسباط حدثنا سفيان عن محمد ابن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مداراة الناس صدقة".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه في العشرة من غير مقارفة المداهنة، إذ المداراة من المداري صدقة له؛ والمداهنة من المداهن تكون خطيئةً عليه، والفصل بين المداراة والمدهنة؛ هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المداراة من غير تلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلق المرء بخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه، فهذا هو المداهنة، لأن عاقبتها تصير إلى قُلِّ ويلازم المداراة؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله، ومن لم يدار الناس ملؤه كما أنشدني علي بن محمد البسّامي:

مَنْ لَمْ يَدَارِ النَّاسَ مَلَّوهُ

دَارِ مِنَ النَّاسِ مَلَلَاتِهِمْ

مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَحْبَبَهُ

وَمَكْرَمُ النَّاسِ حَبِيبُ لَهُمْ

أنبأنا محمد بن أحمد بن أبي عون المرياني حدثنا أحمد بن منيع حدثنا ابن المبارك عن الحسن بن عمرو عن منذر الثوري عن ابن الحنفية قال "ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدأً، حتى يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري،

ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو كدّر على نفسه عيشه، ولم تصف له مودته؛ لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه إلا أن يكون مأثماً، فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة، والبشر قد ركب فيهم أهواء مختلفة وطبائع متباينة، فكما يشق عليك ترك ما جُلبت عليه، فكذلك يشق على غيرك مجانبته مثله، فليس إلى صفو ودادهم سبيل. معاشرتهم من حيث هم، والإغضاء عن مخالفتهم في الأوقات. أنشدني الأبرش:

وقالت: وهزت رأسها وتضاحكت: **على الوتجفي، أم على العهد توصل؟**

فقلت: فلم أفعل، فقلت: تريده **فقلت: فلم أفعل، فقلت: ستفعل**

أنبأنا ابن قحطبة حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا حرم قال: سمعت حبيب ابن الشهيد يقول: سمعت الحسن يقول "يا ابن آدم، أصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك عليه" وأنشدني الكريزي:

تجنّي على بما قد جنى **ويُغلظ في القول إن لنت له**

ويسبق بالعدل لي ظلماً **كأن الصواب له لا لية**

كما قال في متل عالم **خذ اللص بالذنب لا تغفله**

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يُدرّك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بُدأً، وإن دفعة الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، واستقبح أشياء كان يستحسنها، ما لم يكن مأثماً؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثر من داري فلم يسلم. فكيف توجد السلامة لمن لا يداري؟ أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

يا ذا الذي أصبح لا والد **له على الأرض ولا والده**

قد مات من قبلهما آدم **فأي نفس بعده خالدة؟**

إن جئت أرضاً أهلها كلهم **عُورٌ فغمض عينك الواحدة**

أنبأنا أبو يعلي، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا معاذ بن سعد الأعور قال "كنت جالساً عند عطاء بن أبي رباح فحدث رجل بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه: فغضب، وقال: ما هذه الطبع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به، فأريه كأنني لا أحسن منه شيئاً" أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن محمد الصيداوي، حدثنا حماد بن اسحق عن المدائني، قال: قال معاوية "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف قال: لأنهم إن مدّوها حليها، وإن خلّو مددتها" قال أبو حاتم رضي الله عنه: من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب، كان إلى تكدير عيشة أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقت إلى

العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد، وترك الشَّحْنَاء، ومن لم يدارِ صديقِ السوء كما يداري صديقِ الصّدق ليس بجازم. ولقد أحسن الذي يقول:

تجنب صديقِ السوء واصرمْ حباله
وإن لم تجد عنه مخيصاً فدارِه
وأحب حبيبِ الصّدق وأحذر مرآه
تتلّ منه صفو الودِّ ما لم تمارِه

أبأننا الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم الحواراني، حدثنا أبو مسهر، حدثنا سهل بن هاشم عن إبراهيم بن أدهم قال: قال أبو الدرداء لأم الدرداء "إذا غضبتُ فرضيني، وإذا غضبتِ رضيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق" قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل إذا دفعه الوقت إلى صحبه من لا يثق بصدافته، أو صداقة من يثق بأخوته، فرأى من أحدهما زلةً فرفضه لزلته، بقي وحيداً لا يجد من يعاشر، فريداً لا يجد من يخاد، بل يُعْضِي على الأخ الصادق زلاته، ولا يناقش الصديق السيئ على عثراته؛ لأن المناقشة تلزمه في تصحيح أصل الوداد أكثر مما تلزمه في فرعه.

ومن أنواع المداراة: ما حدثني الحسن بن سفيان، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن شَبَّويه، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة عن ابن شوذب قال "كانت لرجل جارية، فوطئها سرا، فقال لأهله: إن مريم كانت تغتسل في هذه الليلة، فاغتسلوا، فاغتسل هو واغتسل أهله، قال ابن شوذب: وكانت مريم تغتسلا في كل ليلة".

وأشدني منصور بن محمد الكريزي:

أغمضُ عيني عن صديقي، كأنني
وما بيَ جهل، غير أن خليقتي
متى ما يريني مفصلٍ فقطعتهُ
ولكن أداريه، وإن صحَّ شدّني
لديه بما يأتي من القبح جاهلُ
تطبيق احتمال الكره فيما أحاول
بقيت وما لي في نهوض مفاصل
فإن هو أعيأ كان فيه تحامل

أبأننا محمد بن أبي علي الخلامي، حدثنا محمد بن الحسن الذهلي عن أبي السائب قال: قال علي "لا تعامل بالخدعة، فإنها خلقت اللثام، ومحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة، وساعده على كل حال، وزل معه حيث زال"

استحباب إفتاء السلام

وإظهار البشر والتبسم

أنبأنا أحمد بن صالح الطبري، حدثنا الفضل بن سهل الأعرج، حدثنا محمد ابن جعفر المدائني، حدثنا ورقاء عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن السلام اسم من أسماء الله، وضعه في الأرض، فأفشوه بينكم؛ فإن الرجل المسلم إذا مرَّ بالقوم فسَلَّم عليهم فردُّوا عليه كان له عليهم فَضْلُ درجة بتذكيره إياهم بالسلام، فإن لم يردوا عليه ردَّ عليه مَنْ هو خير منهم وأطيب". قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يلزم إفشاء السلام على العام؛ لأن من سلَّم على عشرة كان له عتق رقبة، والسلام مما يذهبُ إمشاؤه بالمكثرتين من الشحناء، وما في الخلد من البغضاء، ويقطع الهجران، ويصافي الإخوان.

والبادئ بالسلام بين حسنتين: إحداهما: تفضيل الله عز وجل إياه على المسلم عليه بفضل درجة، لتذكيره إياهم بالسلام، وبين ردِّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد.

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا شعيب بن واقد حدثنا جرير، قال: قال زبيد الياامي "إن أجود الناس من أعطى مالا لا يريد جزاءه، وإن أحسن الناس عفواً من عفا بعد قدرة، وإن أفضل الناس من وصل من قطعه، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام".

أخبرنا أبو خليفة، حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر العسبي، قال: حدثنا عمار بن ياسر قال "ثلاثٌ من جمعن جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يسلم عليه متبسماً إليه فإنَّ من فعل ذلك تحتَّ عنهما خطاياهما كما تحتَّ ورقُ الشجر في الشتاء إذا يسَّ، وقد استحق المحبة من أعطاهم بشر وجهه.

ولقد أخبرني محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام العنبري، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا إسماعيل بن حماد عن سعيد بن الخمس قال: قيل له "ما أبشك؟" قال: إنه يقوم عليّ برخيص" وأنشدني الأبرش:

أخو البشر محبوب على حسن بشره ولن يعدم البغضاء من كان عابسا
ويسرع بخلُ المرء في هتكِ عرضهِ ولم أرَ مثل الجود للمرء حارسا

قال أبو حاتم: البشاشة أدام العلماء وسجية الحكماء، لأن البشر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصيلٌ من الباغي، ومنجاة من الساعي، ومن بشَّ للناس وجهاً لم يكن عندهم بدون البازل لهم ما يملك.

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن محمد العبادي حدثنا سُويد عن علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه قال "أخبرت أنه مكتوب في الحكمة: يا بني، لِيَكُنْ وجهك بَسْطاً، وَلِيَكُنْ كلمتك طَيِّبَةً - تكن أحبَّ إلى الناس من أن تعطيتهم العطاء.

وأنشدني الخلاصي أنشدنا أحمد بن بكر بن خالد البيزدي لسعيد بن عبيد الطائي:

الْقَ بِالْبِشْرِ مِنْ لَقِيَتْ مِنَ النَّاسِ
أَسْ جَمِيعاً وَلَا قَهْمَ بِالطَّلَاقِ
تَجَنُّ مِنْهُمْ جَنَى ثَمَارٍ، فَخَذَهَا
طَيِّباً طَعْمَهُ لَذِيذَ الْمَذَاقِ

أخبرنا محمد بن صالح الطبري حدثنا محمد بن حميد حدثنا حَكَّامُ بن مسلم عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي قال "يعجبني من القراء كل سهلٍ طَلَّقَ مِضْحَاكًا. فأما من تلقاه يبشر ويلقاك بعبوسٍ يَمُنُّ عليك بعمله، فلا أكثر الله في القراء ضربَ هذا" قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب على العاقل إذا رزق السلوك في ميدان طاعة من الطاعات إذا رأى من قَصَّرَ في سلوك قَصْدِهِ أَنْ يُعَبِّسَ عليه بعمله وجهه، بل يُظْهِرَ الْبِشْرَ والبشاشة له، فلعله في سابق علم الله أن يرجع إلى صحة الأوبة إلى قصده مع ما يجب عليه من الحمد لله والشكر له على ما وفقه لخدمته، وحرَمَ غيره مثله: أخبرنا محمد بن أبي علي الخلاصي أخبرني محمد بن موسى السمرري أن حماد ابن إسحاق أنشدهم:

فَتَى مِثْلَ صَفْوِ الْمَاءِ، أَمَا لِقَاؤُهُ
فَبِشْرٌ، وَأَمَا وَعْدُهُ فَجَمِيلٌ
يَسْرُكُ مُفْتَرّاً، وَيَشْرِقُ وَجْهَهُ
إِذَا اعْتَلَّ مَذْمُومُ الْفِعَالِ بِخَيْلٍ
عَيَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ، أَمَا لِسَانُهُ
فَعَفٌّ، وَأَمَا طَرْفُهُ فَكَلِيلٌ

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

لَنْ تَسْتَمَّ جَمِيلاً أَنْتَ فَاعِلُهُ
إِلَّا وَأَنْتَ طَلِيقُ الْوَجْهِ بِهَلُولُ
مَا أَوْسَطَ الْخَيْرِ فَابْسُطْ رَاحَتِيكَ بِهِ
وَكَنْ كَأَنَّكَ دُونَ الشَّرِّ مَغْلُولُ

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا الدارمي موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن إسماعيل بن سالم عن حبيب بن أبي ثابت قال "من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو يتبسم".

ما أبيح من المزاح للمرء

وما كره له منه

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى حدثنا هدية بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان له خادم يقال له: أَنْجَشَةُ، وكان حَسَنَ الصوت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا

أبجشة لا تكسر القوارير" قال قتادة: يعني ضَعَفَةَ النساء.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح، وترك التُّعَسُّب.

والمزاح على ضربين: فمزاح محمود، ومزاح مذموم.

فأما المزاح المحمود: فهو الذي لا يَشُوبُه ما كَرِهَ اللهُ عز وجل، ولا يكون بائِثٌ ولا قِطِيعَةٌ رحم.

وأما المزاح المذموم فالذي يثير العداوة، ويذهب البهاء، ويقطع الصداقة، ويُجرئُ الدينء عليه، ويحقد

الشريف به.

أخبرنا محمد بن المنذر حدثنا إبراهيم بن محمد الرقي حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا بكر بن سليم قال:

سمعت ربيعة يقول "إياكم والمزاح، فإنه يفسد المودة، ويُغِلُّ الصدر".

أنبأنا محمد بن سعيد القرزاز حدثنا الفضيل بن الخضر التميمي حدثنا عبد الله ابن حُبَيْق قال: كان يقال "لا

تمازح الشريف، فيحقد عليك، ولا تمازح الوضع، فيجترئ عليك" وأنشدني محمد بن عبد الله:

أكرم جليسك، لا تمازح بالأذى

إن المزاح ترى به الأضغان

كم من مزاح جذَّ حبلَ قرينه

فتجذمت من أجله الأقران

قال أبو حاتم رضي الله عنه: المزاح في غير طاعة الله مَسْلَبَةٌ للبهاء مَقْطَعَةٌ للصداقة، يورث الضُّعْفَ، وينبت

الغل.

وإنما سمى المزاح لأنه زاح عن الحق، وكم من افتراق بين أخوين، وهجران بين متآلفين، كان أول ذلك

المزاح.

أنبأنا محمد بن أحمد بن الحسين القرشي حدثنا الأسود بن عامر عن أبي إسرائيل عن الحكم قال: كان

يقال "لا تمار صديقك ولا تمازحه، فإن مجاهداً كان له صديق، فمازحه، فأعرض كلُّ واحد منهما عن

صاحبه، فما زاده عن السلام حتى مات"

قال أبو حاتم رضي الله عنه: وإن من المزاح ما يكون سبباً لتهيج المرء، والواجب على العاقل اجتنابه؛

لأن المرء مذموم في الأحوال كلها، ولا يخلو المماري من أن يفوته أحد رجلين في المرء: إما رجلٌ هو

أعلم منه، فكيف يجادل من هو دونه في العلم؟ أو يكون ذلك أعلم منه، فكيف يماري من هو أعلم منه؟.

ولقد سمعت حفص بن عمر البزار يقول: سمعت إسحاق بن الضيف يقول: سمعت جعفر بن عون يقول:

سمعت مسعر بن كدام يقول لابنه كدام:

فاسمع مقال أبٍ عليك شفيق

أني نخلتك يا كدام نصيحتي

خلقان لا أرضاهما لصديق

أما المزاحة والمرء فدعهما

إني بلّوتهما فلم أحدهما لمجاور جاراً، ولا لشفيق

والجهل يُزري بالفتى في قومه وعروقه في الناس أي عروق

قال أبو حاتم رضي الله عنه: المرء أخو الشنان، كما أن المناقشة أحت العداوة، والمرء قليل نفعه كثير شره، ومنه يكون السباب، ومن السباب يكون القتال، ومن القتال يكون هراقة الدم وما ماري أحد أحداً إلا وقد غير المرء قلوبهما، وقد أحسن الذي يقول:

وإياك من حلو المزاح ومّره ومن أن يراك الناس فيه مماريا

وإن مرء المرء يُخلق وجهه وإن مزاح المرء يبدي التثانيا

دعاه مزاح أو مرء إلى التي بها صار مقلّي الإخاء وقاليا

أخبرني محمد بن المنذر حدثني كثير بن عبد الله التميمي حدثني إسماعيل بن محمد الطلحي حدثنا أبو الأحفش الكناي أنه قال لابن له:

أبني لا تك ما حبيت ممارياً ودع السفاهة إنها لا تنفع

لا تحملنّ ضغينة لقرابة إن الضغينة للقرابة تقطع

لا تحسبنّ الحلم منك مدلة إن الحليم هو الأعزّ الأمتع

أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدي الهروي حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قال: سمعت أبي عن الأوزاعي قال: بلال بن سعد "إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه، فقد تمت خسارته". قال أبو حاتم رضي الله عنه: المزاح إذا كان فيه إثم فهو يُسودّ الوجه، ويُدمى القلب ويورث البغضاء، ويجي الضغينة، وإذا كان من غير معصية يُسليّ الهَم ويرقع الخلّة، ويجي النفوس، ويذهب الحشمة، فالواجب على العاقل أن يستعمل من المزاح ما يُنسب بفعله إلى الحلاوة، ولا ينوي به أذى أحد ولا سرور أحد بمساءة أحد.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عائذ - كان بمرّة - حدثنا أحمد بن عبد الله ابن حكيم العرياني - قرية من قرى مرو - حدثنا سهل بن يحيى عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم قال "لا يمازحك إلا من يحبك"، أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا الصلت بن مسعود حدثني ابن عيينة قال: أظنني سمعته من داود بن شابور، عن محمد ابن المنكدر قال: قالت لي أمي وأنا غلام "لا تمازح الغلمان، فتهون عليهم، أو يجترئوا عليك".

حدثنا عمرو العلابي حدثنا ابن عائشة حدثنا دريد بن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار قال: قال عمر بن الخطاب "من كثر ضحكك قلت هيبته، ومن مزح أستخف به، ومن أكثر من شيء عُرف

به".

أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو الدرداء حدثنا أبو إسحاق الطالقاني عن مُبَشَّر بن إسماعيل عن راشد بن أبي قبال قال "استسقى سعيد بن جبير، فأتيته بسويق مُحَلَّى، فقال: يا راشد شَكَرَ أزدست شيرين" قال أبو حاتم رضي الله عنه: من مازح رجلا من غير جنسه هان عليه واجترأ عليه، وإن كان المزاح حَقًّا، لأن كل شيء لا يجب أن يسلك به غير مَسْلُكِهِ، ولا يظهر إلا عند أهله. على أي أكره استعمال المزاح بحضرة العام، كما أكره تركه عند حضور الأشكال. ولقد أخبرنا كامل بن مكرم حدثنا ربيعة بن الحارث الجيلاني حدثنا عبد الله ابن عبد الجبار الجباري قال: قال أبو عبد الرحمن الأعرج "كان إبراهيم بن أدهم يحدثننا، ويضاحكننا، وإذا رأى غيرنا قال: هذا جاسوس"

استحباب الاعتزال من الناس عاما

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سلم - بيت المقدس - حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد الخدري قال "قيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: رجل في شَعْبٍ من الشُعَبِ يتقي الله، ويدعُ الناس من شَرِّهِ" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عاما، مع توقي مخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لم يكن فيه خَصْلَةٌ تُحمد إلا السلامة من مقارفة المأثم لكان حقيقاً بالمرء أن لا يُكَدَّر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدي إلى المناقشة.

ولقد أخبرني الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى، أنبأنا عبد الله، أخبرنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن عمر بن الخطاب قال: "خذوا بحضنكم من العزلة".

أنبأنا عمرو بن سعيد سنان الطائي حدثنا حامد بن يحيى البلخي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول "رأيت الثوري في المنام، فقلت له: أوصني، فقال: أقل معرفة الناس، أقل معرفة الناس، أقل معرفة الناس".

أنبأنا القطان بالرقة حدثنا المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول "رأيت ابن السَّمَاك يكتب إلى أخ له: إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبداً ما وجدت من العبودية بُدًّا، فافعل".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يستعبد نفسه لأمثاله بالقيام في رعاية حقوقهم، والتصبر على ورود الأذى منهم، ما وجد إلى ترك الدخول فيه سبيلا، لأنه إذا حَسَم عن نفسه ترك الاختلاط بالعالم، والمخالطة بهم تمكَّن من صفاء القلب، وعدم تكدُّر الأوقات في الطاعات.

ولقد استعمل العزلة جماعة من المتقدمين مع العام والخاص معاً.
كما أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدي حدثنا داود بن أحمد بن سليمان الدمياطي حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت ابن المبارك يقول "عادَ فُضَيْلُ داوَدَ الطائِي، فأغلق داوُدُ الباب، وجلس فضيل خارج البيت ييكي، وداود داخل البيت ييكي".
أبناؤنا الحسين بن محمد السنجي حدثنا علي بن المنذر حدثنا الحسن بن مالك قال: سمعت بكر محمد العابد يقول: قال لي داود الطائي "يا بكر، أستوحش من الناس كما تستوحش من السبع".
أبناؤنا محمد بن أحمد بن الفرغ البغدادي بالأبلة حدثنا إبراهيم بن حماد بن زياد حدثنا عبد العزيز بن الخطاب قال "رؤى إلى جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخم أسود رابض، فقيل له: يا أبا يحيى، ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك؟ قال: هذا خير من جليس السوء".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا الذي ذهب إليه داود الطائي وضرباؤه من القراء من لزوم الاعتزال من الخاص، كما يلزمهم ذلك من العام - أرادوا بذلك عند رياضة الأنفس على التصبر على الوحدة، وإثارة ضِدِّ الخُلطة على المعاشرة؛ فإن المرء متى لم يأخذ نفسه بترك ما أبيض له فأنا خائف عليه الوقوع فيما خطر عليه.

وأما السبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافة: فهو ما عرفتهم به من وجود دَفن الخير، ونشر الشر، يدفنون الحسنة، ويظهرون السيئة. فإن كان المرء عالماً بدَّعوه، وإن كان جاهلاً عَيَّروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حَقَّرُوهُ وإن نطق قالوا: مهذار، وإن سكت قالوا: عَيِّي، وإن قَدَّر قالوا: مُقَتَّر، وإن سمح قالوا: مبذر، فالنادم في العواقب، المحطوط عن المراتب، من اغتر بقوم هذا نَعْتهم، وغره ناس هذه صفتهم.

ولقد أبناؤنا محمد بن المهاجر المعدل أخبرني أحمد بن محمد بن بكر الأناوي عن داود بن رشيد، قال: حدثني إبراهيم بن شماس قال: قال لي الأكاف حفص بن حميد صاحب ابن المبارك بمرو "يا إبراهيم، صحبتُ الناس خمسين سنة، فلم أجد أحداً ست لي عورة، ولا وصلني إذا قطعت، ولا أمنتني إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كثير" وأنشدني محمد بن المهاجر المعدل لعلني بن حجر السعدي:

وحفظٍ للسان، وخفض صوت

أقلهم، فبادر قبل فوت

وما خُلق امرؤ إلا لموت

زمانك ذا زمانُ دخول بيت

فقد مرَّجتُ عهد الناس إلا

فما يبقى على الأيام شيء

أخبرنا يعقوب بن إسحاق القاضي حدثنا بن يحيى قال: وفيما قرأت على نافع عن مالك بن أنس "أنه بلغه عن أبي ذر قال: كان الناس ورَقاً لا شوك فيه، فهم اليوم شوك لا ورَق فيه"
 أنبأنا محمد بن أبي علي الخلامي حدثنا جنيد بن حكيم الدقاق حدثنا سليمان ابن أبي شيخ قال: كان القَحْدَمِي ينشد كثيراً:

ذَهَبَ الحُسْنُ والجَمالُ مِنَ النِّسْ
 اس، ومات الذين كانوا مِلاحاً
 وَبَقِيَ الأَسْمَجُونَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ
 إِنَّ فِي المَوْتِ مِنْ أَوْلئِكَ راحاً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يعلم أن البَشَرَ مجبولون على أخلاق متباينة، وشيم مختلفة، فكل واحد يُحب أتباع مساعده، وترك مباعده، فمتى رام من أخيه ضدَّ ما وطَّن نفسه عليه قَلاه، وإذا تبين له منه خلاف ما أضمر عليه قلبه ملَّه، ومن الملال يكون الاستئصال، ومن الاستئصال يكون البغض، ومن البغض تهيج العداوة، فالاشتغال هذا بمن نعته للعاقل حمق. ولقد أحسن التَّبَاجِي حيث يقول:

أَرَفِضُ النِّسْ، وَكُلُّ مَشغَلِهِ
 قَدْ بَخَلَ النِّسْ بِمِثْلِ خَرْدَلِهِ
 لا تَسأَلُ النِّسْ وَسَلْ مِنْ أَنْتَ لَهُ

وأنشدني ابن أبي علي قال: أنشدني محمد بن بن يعقوب العبدي:

إِذا قُلْتُ: هَذا صَاحِبُ قَدِّ رِضِيئِهِ
 وَقَرَّتْ بِهِ عِنايَ، بُدِّلْتُ آخِراً
 وَذَلِكَ: أَنِّي لا أَصَاحِبُ صَاحِباً
 مِنَ النِّسْ إِلا خائِني وَتَغيِّراً

أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال مكحول "إن كان في مخالطة الناس خير فالعزلة أسلم".

أنبأنا علي بن سعيد العسكري حدثنا شعيب بن يحيى حدثنا أحمد النسائي حدثنا يحيى بن عبد الأعلى أن مالك بن دينار كان يقول "من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين فقد قلَّ علمه، وعمي قلبه، وضيع عمره" أنبأنا القطان حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا محمد بن روح قال: سمعت إبراهيم البخاري يقول: "دخلت المسجد الحرام بعد المغرب، فإذا فُضِّيل جالس، فجلست إليه، فقال: من هذا؟ فقلت، قال: ما جاء بك؟ قلت: رأيتك وحدك، فجلست إليك، قال: تحب أن تغتاب، أو تترين، أو ترائي؟ قلت: لا، قال: قم عني"

استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى بالموصل حدثنا قطن بن نسير حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس قال "أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، وأخى بين عرف بن مالك وبين الصَّعْب بن جَثَامَة" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن لا يغفل عن مؤاخاة الإخوان، وإعداده إياهم للنوائب والحدثنان، لأن من تَعَزَّى عن موضع سَلَّوته بأخيه عند الهموم والغموم، كان عقله إلى التقديح أقرب، ومن النماء أنقص.

ولقد أنبأنا محمد بن المنذر حدثنا الفضل بن عبد الصمد الأصبهاني حدثنا يزيد بن خالد الرملي حدثنا سهيل أبو عمرو قال: قال محمد بن واسع "لم يبق من العيش إلا ثلاث: الصلاة في الجماعة، ترزق فضلها، وتكفي سهوها، وكفاف من معاش ليست لأحد من الناس عليك فيه منة، ولا لله عليك فيه تبعة، وأخ محسن العشرة، زُغْتَ قَوْمُكَ".

أنبأنا عبد الرحمن بن عبد المحسن بجرجان حدثنا محمد بن عبد الله القصار أنبأنا عبد الرزاق عن ابن المقفع قال "ثلاث من اللذات: محادثة الإخوان، وأكل القديد، وحكُّ الجرب".

أنبأنا محمد بن أبي علي حدثنا محمد بن هريم الشيباني أنشدنا محمد بن عمران الضبي:

كما تقبض الكف بالمعصم

وما المرء إلا بإخوانه

ولا خير في الساعد الأجم

ولا خير في الكف مقطوعة

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن لا يعد في الأدواء إحاء من لم الضراء، ولم يشاركه في السراء، ورب أخى إحاء خير من أخى ولادة، ومن أتم حفظ الأخوة تفقد الرجل أمور من يوده. والوُدُّ الصحيح هو الذي لا يميل إلى نفع، ولا يفسد منع، والمودة أمن، كما أن البغضاء خوف.

والعاقل لا يؤاخي إلا من خالفه على الهوى، وأعانه على الرأي، ووافق سره علانيته، لأن خير الإخوان من لم يناقش، كما أن خير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، والمستوخم لا يؤلف كما أن غير الثقة لا يود، فمتى ما أخى المرء من لم يصفه بالوفاء يجب الاستظهار عليه بمن يسليبه عنه، لأن التودد ممن لا يود يعدُّ ملقاً، ولا يفوت الإنسان في الأخوة أحد رجلين: إما أريب قصر في حقوقه فاغتاله بمكر، وإما جاهل لم يصادفه فيؤذيه بسوء معاشرته، وصيانة الأخوة ليست إلا في الاستغناء عن الإخوان.

ولقد أحسن العباس بن عبيد بن يعيش حيث يقول:

وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا

كم من أخ لك لم يلد له أبوكا

وأعلم بأن أبا الحفاظ أخوكا

صاف الكرام إذا أردت إخوانهم

وكأنما آباؤهم ولدوكا

كم اخوة لك لم يلدك أبوهم

تخشى الحنوف بها لما خذلوكا

لو كنت تحملهم على مكروهة

بنياط قلبك ثم. ما نصروكا

وأقارب لو أبصروك معلقاً

وإذا افتقرت إليهم فضحوكا

الناس ما استغنيت كنت أخوا لهم

أخبرنا القطان بالرقعة حدثنا أحمد بن إسماعيل السني حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال "دخلت على قتادة وأنا ظمآن، وفي الحجرة حب ماء، فقلت: اشرب من مائكم هذا؟ قال: أنت لنا صديق".

قال أحمد: قال عبد الرزاق: يتأول القرآن "أو صديقكم" يقول: لا يستأذن أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا علان بن المغيرة البصري حدثنا عمرو الناقد حدثنا ابن عيينة عن أيوب السخيتاني أنه قال "يزيدني حرصاً على الحج لقاء إخوان لي لا ألقاهم بغير الموسم".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعلم أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاخاة والمشاركة، والسُّرَّاق يداخلون الرجال على التقارف، ولا يزدادون بذلك مودة، ولكن من أسباب المؤاخاة التي يجب على المرء لزومها مَشْيَ القَصْدِ وخَفْضَ الصوت، وقلة الإعجاب، ولزوم التواضع وترك الخلاف. ولا يجب للمرء أن يكثر على إخوانه المؤونات فيبرمهم، لأن المرضع إذا كثر مَصُّهُ ربما ضَجَّرت أمة فتلقيه. ولا ينبغي لمن قدر أن يمنع أخاه شيئاً يحتاج إليه ليحبر به مصيبته، أو يفرح به كربته.

والعاقل لا يؤاخي لثيماً، لأن اللثيم كالحية الصماء لا يوجد عندها إلا اللدغ والسُّم، ولا يصلُّ اللثيم، ولا يؤاخي إلا عن رغبة أو رهبة، والكريم يودُّ الكريم على لثيمة واحدة، ولو لم يلتقيا بعدها أبداً.

ولقد أخبرنا محمد بن المنذر حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس حدثنا إسماعيل ابن محمود عن ابن المبارك عن سفيان عن يونس بن عبيد "أنه أصيب بمصيبة فليل له ابن عوف لم يأتك؟ فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أختنا لم يضرَّه أن لا يأتينا".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يتفقد ترك الجفاء مع الإخوان، ويراعي محوها إن بدت منه، ولا يجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة، لأن من استضعف الصغيرة يوشك أن يجمع إليه صغيراً، فإذا الصغير كبير، بل يبلغ مجهوده في مَحْوِها، لأنه لا خير في الصدق إلا مع الوفاء، كما لا خير في الفقه إلا مع الورع، وإن من أخرق الخرق التماس المرء الإخوان بغير وفاء وطلب الأجر وبالرياء، ولا شيء أضيع من مودة تمنح من وفاء له، وصنيعة تصطنع عند من لا يشكرها.

وأنشدني الخلافي قال: أنشدني محمد بن محمد البكري:

خَطَّ المودة بالحلاوة

أحذر مودة ما ذق

يُحصى الذنوب عليك أي

ام الصداقة للعداوة

وأنشدني محمد بن إبراهيم البصري - بصُورَ - لنفسه:

لا يَغْرُنُكَ صَدِيقٌ أَبَدًا
لَكَ فِي الْمَنْظَرِ، حَتَّى تَخْبُرَهُ
كَمْ صَدِيقٌ كُنْتُ مِنْهُ فِي عَمَى
غَرَّنِي مِنْهُ زَمَانًا مَنظَرُهُ
كَانَ يَلْقَانِي بِوَجْهِ طَلْقٍ
وَكَلامٍ كَاللَّالِي يَنْثُرُهُ
فَإِذَا فَتَشْتَهُ عَنْ غِيْبِهِ
لَمْ أَجِدْ ذَاكَ لَوْدٍ يُضْمِرُهُ
فَدَعِ الْإِخْوَانَ كُلَّ مَنْ
يُضْمِرُ الْوَدَّ كَمَا قَدْ يَظْهَرُهُ
فَإِذَا فَزَتْ بِمَنْ يَجْمَعُ ذَا
فَاجْعَلْنَهُ لَكَ ذُخْرًا تَذَخَّرُهُ

أنبأنا القطان بالرقعة حدثنا هشام بن عمار حدثنا إبراهيم بن موسى المكي عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال "وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثمانية عشر كلمة، كلها حكم، قال: ما كافات من يعصي الله فيك. يمثل أن تطيع الله فيه، وضَعُ أمرَ أخيك على أحسنه، حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظننَّ بكلمة خرجت من مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملاً ومن تعرَّضَ لالتهمه فلا يلومنَّ من أساء به الظن، ومن كتم سرَّه كانت الخيرة في يديه، وعليك بإخوان الصدق فعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدَّة في البلاء، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق، ولا تعرض لما لا يعينك، ولا نسأل عما لم يكن. فإن فيما كان شغلا عما لم يكن، ولا تطلبن حاجتك إلى من لا يجب لك نجاحتها، ولا تصحبنَّ الفاجر فتعلم فجوره، واعتزل عدوك، وأحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا خشى الله، وتخشع عند القول، وذلل عند الطاعة، واعتصم عند المعصية، واستشر في أمرك الذين يخشون الله، فإن الله يقول "28:35 إنما يخشى الله من عباده العلماء".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يواخي إلا ذا فضل في الرأي والدين والعلم والأخلاق الحسنة، ذا عقل نشأ مع الصالحين، لأن صحبة بليد نشأ مع العقلاء خير من صحبة لبيب نشأ مع الجهال. ورأس المودة الاسترسال، وأفتها الملالاة، ومن أضع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخوانهم، وآيس الإخوان من نفسه، ومن ترك الإخوان مخافة تعاهد الود بوشك أن يبقى بغير أخ، كما أن من ترك نزع الماء إشفاقا على رشائه يوشك أن يموت عطشا.

والعاقل يستخير أمور إخوانه قبل أن يواخيهم، ومن أصح الخبرة للمرء وجود حالته بعد هيجان الغضب. أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا عبد الله بن الضحاك الهدادي حدثنا هشام بن محمد

عن عوانة بن الحكم قال: قال لقمان لابنه "يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فدعه" أنبأنا محمد بن صالح الطبري حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا داود يحيى ابن اليمان عن أبيه عن سفيان قال "أصحب من شئت، ثم أغضبه، ثم دس إليه من يسأله عنك". قال أبو حاتم رضي الله عنه: من لم ينصفك عند غضبه لم تودك أيامه، وليس الصديق كالمراة يطلقها المرء إذا شاء، والجارية يبيعها متى أحب، لكنه عرضه ومروءته؛ فالتثبت والاتقاد أولى به من التهاجر والانقطاع، ومن غاب عنه أخوه فلا يغب عما يجب له عليه، وليكثر منهم عدة للشدائد، لأن الشعر مع دقته إذا جمع عمل منه الحبل الغليظ الذي يقهر الفيل المغتلم، ولا يصلح أن يكون رقيقاً من لم يزدرد ريقاً. وأنشدني الخلافي قال: أنشدني محمد بن محمد البكري لصالح بن عبد القدوس:

إذا كان ودّ المرء ليس بزائد على "مرحباً" أو "كيف أنت؟" وحالكا
 أو القول "أني وامق لك، حافظ" وأفعاله تُبدي لنا غير ذلكا
 ولم يك إلا كاشراً أو محدثا فأفّ لودّ ليس إلا كذلكا
 ولكن إخاء المرء من كان دائماً لذي الودّ منه حيثما كان سالكا

أخبرنا أبو يعلى حدثنا علي بن الجعد حدثنا سفيان الثوري عن شعبة قال: خرج عبد الله بن مسعود على أصحابه فقال "أنتم جلاء حزبي".

أخبرني محمد بن سعيد القزاز حدثنا هلال بن العلاء حدثنا إسحاق بن الضيف عن شيبه بن أبي مسهر عن الحكم بن هشام قال خالد بن صفوان "لم يبق من لذات الدنيا إلا ثلاث: مجالسة النسوان، وشمّ الولدان، ولقي الإخوان".

حدثنا محمد بن المنذر حدثنا مسعدة بن حازم المصري خالي هارون ابن سعيد حدثنا خالد بن نزار حدثنا سفيان عن موسى بن عقبة قال "إن كنت لألقي الأخ من إخواني فأكون بلقيته عاقلاً أياماً". قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات في كتاب "مراعاة العشرة" فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

فالواجب على العاقل أن يعلم أنه ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل غم فقدهم، شم يتنوقى جهده مفسدة من صافاه، ولا يسترسل إليه فيما يشينه، وخير الإخوان من إذا عظمت صانك، ولا يعيب أحاه على الزلة، فإنه شريكه في الطبيعة، بل يصفح، ويتنكب محاسدة الإخوان؛ لأن الحسد للصديق من سقم المودة كما أن الجود بالمودة أعظم البذل، لأنه لا يظهر ود صحيح من قلب سقيم،

وليحذر المرء في إخائه ألم التثقيل على أخيه؛ لأن من ثقل على صديقه خف على عدوه، وإن من أعظم المعونة على تسليية المهم الرضا بالقضاء، ولقي الإخوان.

أنبأنا محمد بن هلال العقي حدثني يونس بن إبراهيم العزي حدثنا إبراهيم ابن عبد الله العدني عن سفيان أنه قيل له "ما ماء العيش؟ قال: لقاء الإخوان".

حدثنا القطان أحمد بن أبي الحواري حدثنا المسيب بن واضح عن ابن المبارك قال: قال سفيان: "لربما لقيت الأخ من أخواني، فأقيم شهراً عاقلاً بلاقائه".

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

خير لكانزهم كنزاً من الذهب

استكثرتن من الإخوان إنهم

وجدته لك خيراً من أخي النسب

كم من أخ لك لو نابتك نائبة

وأنشدني الكريزي:

يجزيك ما عشت بالإحسان إحسانا

من خير ما حُزته ودّ لذي كرم

أنال نالك منه البر ما كانا

تلقي بئسأشته في قربه، وإذا

أنبأنا القطان حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول "كنت أنظر إلى أخ من إخواني بالعراق، فأعمل على رؤيته شهراً".

حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال: قال ربيعة "المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة؛ فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على أصحابك، وكثرة المزاح في غير مسأخط الله، وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله، وتلاوة القرآن".

كراهية المعادة للناس

أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام - ببيروت - حدثنا محمد بن محمد بن مصعب وحدثني ابن المبارك عن عمرو بن وأقد عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "أول شيء فهاني عنه ربي - بعد عبادة الأوثان - لعن الحمير، وملاحاة الرجال".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعلم أن من يؤدّه لم يحسده، ومن لم يحسده لم يعاده؛ فيكون للعدو المكاتم أشدّ حذراً منه للعدو المبارز، ومن وجد عنده مغتراً، وكان ممن لا يعفو، ثم لا ينتصف منه؛ أصابته الندامة، والرأي إذا كان من الأريب كان أبلغ في هلاك العدو من العدد الكثير من

الجنود، وترك العداوة على الأحوال كلها أحوط للعاقل من الخوض في سلوكها.
أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى أخبرنا عبد الله بن هارون هو الأعور عن إسماعيل قال "لا
تشتري عداوة رجل بمودة ألف رجل".

وأنشدني عمرو بن محمد قال: حدثنا الغلابي، قال: أنشدني مهدي ابن سابق:

تكثر من الإخوان ما أسطعت إنهم
عماد إذا استتجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خلٍ لصاحب
وإن عدواً واحداً لكثيرُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب على العاقل أن يكافئ الشر بمثله، وأن يتخذ اللعن والشتم على عدوه
سلاحاً؛ إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب، وتحصين العورات، حتى لا يجد العدو إليه سبيلاً.
والعاقل لا يرحم من يخافه، ولا يترك إحصاء معائب العدو، ويفقد عشارتهم مع السكوت عن ثلبه، ولا
يستضعف عدواً بحيلة؛ فإن من استضعف الأعداء اغتر، ومن اغتر لم يسلم، اللهم إلا أن يكون العدو
ذليلاً فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء؛ لأن لعدو الذليل أهل أن يرحم، كما أن المستجير الخائف
أهل أن يؤمن، والممادة للعاقل خير من المصافاة للجاهل.
وأنشدني الخلامي أنشدني أحمد بن محمد البكري:

وولمن يعادي عاقلاً خيراً له
من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك أن تصادق أحمقاً
إن الصديق على الصديق مصدق

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أخلق بذبي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ

أبصر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا قلة عن غرة زلجا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يبصر موضع خطواته قبل أن يضعها، ثم يقارب عدوه بعض المقاربة،
لينال حاجته، ولا يقاربه كل المقاربة فيجتراً عليه، والعاقل لا يعادي ما وجد إلى المحبة سبيلاً، ولا يعادي
من ليس له منه بد، ولا العدو الحنق الذي لا يطاق؛ فإنه ليس له حيلة إلا الهرب منه، وحيلة السبيل إلى
القدرة على العدو وجود الغرة فيه، وإن يرى العدو أنه لا يتخذه عدواً، ثم يصادق أصدقاءه، فيدخل بينه
وبينهم.

وأحزم الأمور في أمر العدو: إن لا يذكره بسوء إلا عند الفرصة، وإن من أيسر الظفر بالأعداء اشتغال
بعضهم ببعض، وإن مما يستعين به المرء على عدوه: مجانبة من يعاشره، ويصحب عدوه.

أخبرني محمد بن سعيد القزاز حدثني أحمد بن زهير بن حرب قال: سمعت يحيى بن معين يقول: قال ابن السماك "لا تَخَفُ مَنْ تَحْذِرُ، وَلَكِنْ أَحْذِرْ مَنْ تَأْمَنُ".

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

تمنيتُ أنْ أبقيَ معافىً، وأنْ أرى
على من يئأويني تدور الدوائر
فيصبح مخذولاً، وأمسى سالماً
إلى الله داع بالكفاية ناصرُ

سمعت محمد بن محمود يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت الفضل ابن موسى الشيباني يقول "كان صياد يصطاد العصفير في يوم ريح، قال: فجعلت الرياح تُدخِلُ في عينيه الغبار، فتذرفان، فكلما صاد عصفوراً كسر جناحه وألقاه في ناموسه. فقال عصفور لصاحبه: ما أرقّه علينا، ألا ترى إلى دموع عينيه؟ فقال له الآخر: لا ننظر إلى دموع عينيه، ولكن انظر إلى عمل يديه" قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يأمن عدوه على كل حال، إن كان بعيداً لم يأمن مغادرته، وإن كان قريباً لم يأمن موأثته، والعاقل لا يخاطر بنفسه في الانتقام من عدوه: لأنه إن هلك في قصده قيل: أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاء فعله. والمعادة بعد الجُلَّةِ فاحشة عظيمة، لا تليق بالعاقل ارتكابها فن دفعه الوقتُ إلى ركوبها ترك للصالح موضعاً.

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي الأسود الدؤلي:

وأحِبُّ إذا أحببت حُناً مُقارِباً
فإنك لا تدري: متى أنت نازع؟
وأبغض إذا أبغضت غيرَ مجانب
فإنك لا تدري متى أنت راجع؟
وكن معدناً للحلم وأصْفَحْ عن الأذى
فإنك راءٍ ما عملت وسماع

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

إذا أنت عادت امرءاً بعد خُلَّة
فإنك إن نابذت مَنْ زَلَّ زَلَّةً
فدع في غدٍ للعودِ والصلح موضعاً
ظللت وحيداً لم تجد لك مفرعاً

أبأننا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا أبو همام حدثنا ابن وهب أخبرني يونس ابن يزيد عن ابن شهاب قال "اجتمع مروان بن الحكم وابن الزبير يوماً عند عائشة، فجلسا في حجرهما وبينهما وبينهما الحجاب، فسألا عائشة شعراً وحديثاً" ثم قال مروان:

ومن يشاءِ الرحمن يخفِضُ بقدره
وليس لمن لم يرفع الله رافعُ

وقال ابن الزبير:

وفوّضَ إلى الله الأمورَ إذا اعترت

وبالله لا بالأقربين تُدافع

وقال مروان:

وداؤ ضمير القلب بالبرِّ والتقى

ولا يستوي قلبان قاسٍ وخاشعٌ

وقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان: عبدٌ مكلّم

عُتْلُ، لأرحام الأرقاب قاطع

وقال مروان:

وعبد يجافي جنبه عن فراشه

يبيت يناجي ربه وهو راعع

وقال ابن الزبير:

وللخير أهل يعرفون بهديهم

إذا اجتمعت عند الخطوب المجمع

وقال مروان:

وللشر أهل يعرفون بشكلهم

تشير إليهم بالفجور الأصابع

قال: فسكت ابن الزبير، فلم يجب مروان بشيء.

فقالت عائشة: "يا عبد الله، مالك لم تحب صاحبك، والله ما سمعتُ تجاوبَ رجلين تجاولا نحو ما تجاولتما فيه أعجب إلى من مجاولتكما" قال ابن الزبير: إني خفت عَوَلَ القول، فكففت.

فقالت عائشة: "إن مروان في الشعر ما ليس لك" أنبأنا محمد بن المنذر، حدثنا عصام بن الفضل الداري، حدثني الزبير بن بكار عن محمد بن حرب، قال: قال عبد الله بن حسن لابنه محمد "إياك ومعاداة الرجال فإنها لا تعدمك مكرٌ حلِيم، أو مباداة جاهل"

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يُعادي على الحالات كلها، لأن العداوة لا تخلو من أن تكون لأحد رجلين: إما حلِيم لا يؤمنُ مكرُّه، أو جاهل لا يؤمن شتمه، ولا يجب على العاقل - إذا عادى - أن يُغرَّه إحسانه إلى عدوه ما يرى من سكونه إليه، فإن الماء وإن أصيل إسخانه، ليس بمانعه ذلك من إطفاء النار إذا صبَّ عليها، ولا يجب أن يعظم عليه حملة عدوه على عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته، لأن اللين والمكر أنكى في العدو من الفظاظة والمكابرة. ألا ترى النار مع حرها لا تحرق من الشجر إلا ما ظهر، والماء مع برده ولينه يستأصلها، ومجانبة المرء عدوه في العشرة أحد الأعوان عليه عند الفرصة.

كما أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا العتيبي عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس "من جالس عدوه حفظ عليه عيونه".

وأنشدني الأبرش:

لا تخافنَّ إن رماك عدو
بعبوب، إذا تكون برياً
إنما العيبُ أن يكون مُحَقّاً
في الذي قاله، ولستَ نقيّاً
فإذا كان كاذباً كنتَ بالصدِّ
ق على العائب الكذوب جريّاً
ولقد يُلزِقُ العدو بجنب
السمراء عيباً تخاله مَكُويّاً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يغيره الزاق العدو به العيوبَ والقبايح لأن ذلك لا يكون له وقعٌ، ولا لكثرة ثبات، ولا يلتذ المرء ما كان عدوه باقياً كما لا يجد السقيم طعم النور والطعام حتى يبرأ. وأشد مكيده العدو وما يعمل فيك من سبيل مأمئك، والغالب بالشر مغلوب وإن من أعظم الأعوان على الأعداء تعاهد المرء ولدّه وعياله وخدمه، وتوقيه إياهم على المعائب والزلات. أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه "يا بني إذا أردت أن تغيظ عدوك فلا ترفع عن ابنك العصا"

الحث على صحبة الأخيار

والزجر عن عشرة الأشرار

حدثنا الحسن بن سفيان النسائي، حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي عن شعبة عن قتادة، عن أنس، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثل الجليس الصالح مثل العطار، إن لم ينلْك منه أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء مثل القَيْن، إن لم تصبْك ناره أصابك شره". قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم صحبه الأخبار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مودّة الأخبار سريع اتصالتها، بطئ انقطاعها. ومودّة الأشرار سريع انقطاعها، بطئ اتصالتها. وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومنّ حادن الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم. فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب، لئلا يكون مريباً. فكما أن صحبه الأخيار تورث الخير، كذلك صحبه الأشرار تورث الشر.

وأنشدي محمد بن عبد الله زنجي البغدادي:

عليك بإخوان الثقات؛ فإنهم
قليل فَصَلِّهُمْ دون من كنت تصحبُ
ونفسك أكرمها وصنّها؛ فإنها
متى ما تجالس سفلة الناس تغضب

سمعت أبا يعلي يقول: سمعت إسحاق بن أبي إسرائيل يقول: سمعت سفيان ابن عيينة يقول "من احب رجلا صالحاً فإنما يجب الله تبارك وتعالى".

أنبأنا محمد بن أبي علي الخلابي، حدثنا عبد الله بن الصقر السكري، حدثنا وهب بن محمد بن منبه البناي، قال: سمعت الحارث بن وجيه يقول: سمعت مالك بن دينار يقول "إنك تنقل الحجاره مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخبيص مع الفجار".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يُدَّس عرضه، ولا يعودُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضي عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار، على أن الناسَ عند الخيرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها.

أنشدني علي بن محمد البسامي:

ولأنَّ إلا كان مُرَّ الفعّال

وقلَّ ما حلَّوَلِي كلامُ امرئ

وكان محموداً على كل حال

وربما حلَّوَلِي كلامُ الفتى

تُصاحبُ الناسَ، وتبلو الرجالُ

فكلُّ هذا أنت راء إذا

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي، حدثنا نصر بن علي، أنبأنا نوح ابن قيس، حدثنا حوشب عن الحسن في قوله "25:63 وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" قال "حُلماء علماء، صُبرٌ ثبت إن ظلّموا لم يظلموا وإن بُغى عليهم لم ييغوا، قد براهم الخوف كأنهم القِداح".

أنبأنا حامد بن محمد بن شعيب البلخي، حدثنا سريح بن يونس، حدثنا شجاع بن أبي نصر أبو نعيم القاري عن أبي عمرو بن العلاء، قال "رآني سعيد ابن جبير وأنا جالس مع الشباب، قال: ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشيوخ".

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة عن سفيان عن أبي عمران بن حطان عن أبيه قال: قال أبو الدرداء "لصاحبٌ صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملئ الخير من الساكت والساكت خير من مملئ الشر".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يصاحب الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن، لا يستقيم وده، ولا يفي بعهده.

وإن من سعادة المرء خصالاً أربعا: إن تكون زوجته موافقة، وولده أبارا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرا تكون مجالسة الكلب خيراً من عشرته، ومن يصحب السوء لا

يسلم، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهم وما أشبه صحبة الأشرار إلا بما أنشدني منصور بن محمد الكريزي.

فلو كان منه الخير إذ كان شره
ولكنه شرٌّ، ولا خيرَ عنده
عتيداً ضربت الخير يوماً مع الشر
رضيتُ لعمري بالكفاف مع الأجر
وليس على شرٍّ إذا طال من صبر

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا ابن عُلَية عن يونس عن الحسن قال "أيها الرجل، إن أشد الناس عليك فقدماً لرجلٌ فزعت إليه وجدت عنده رأياً، ووجدت عنده نصيحة، بينا أنت كذلك إذ فقدته، فالتمست منه خلفاً فلم تجده.

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان، قال: قال جعفر بن محمد "من كان فيه ثلاث فقد وجب له على الناس أربع: إذا حالطهم لم يظلمهم، وإذا حدّثهم لم يكذبهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم. وعلى الناس: إن يظهروا عدله، وأن تكمل فيهم مروءته، وأن يجب عليهم أخوته، وأن يُجرّم عليهم غيبته. وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

أصحاب خيار الناس أين لقيتهم
والناس مثلُ دراهم ميّرتها
خيرُ الصحابة مَنْ يكونُ ظريفاً
فرأيتُ فيها فِضةً وزُيوفاً

وأخبرنا ابن قحطبة، حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول "إن الله ليحفظ بالعبد الصلح القبيل من الناس" قال أبو حاتم رضى الله عنه: الواجب على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يُعنه، وإن نسي لم يذكره، وإن غفل حرضه على ترك الذكر. ومن كان أصدقاؤه أشراراً كان هو شرهم، وكما أن الخير لا يصحب إلا البررة، كذلك الردى لا يصحب إلا الفجرة؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات، لأن محمد بن عثمان العقي قال: حدثنا أحمد بن داود البصري، حدثنا أحمد بن داود البصري، حدثنا ابن عائشة قال: قال عبد الواحد بن زيد "جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا ولا تجالسوا غيرهم، فإن كنتم لا بدّ فاعلين، فجالسوا أهل المروءات؛ فإنهم لا يرثون في مجالسهم".

كراهية التلون في الوداد بين المتأخيين

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة بعسقلان، حدثنا إبراهيم الحوراني، حدثنا بكار بن شعيب، حدثنا ابن أبي حازم عن أبيه عن سهل، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا خير في صُحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له" قال أبو حاتم رضى الله عنه: الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: إن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرَّمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه، وعلى البذل له إن حرَّمه، وعلى الدنو منه إن باعده حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وكم من صديق وُدُّه بلسانه
يضاحكنى كرهاً لكيما أوُدُّه
خؤون الغيب لا ينتدم
وتتبعني منه إذا غبت أسهم

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثني ابن شيبه، قال: قال الأصمعي: قال رجل من الأعراب "من أعجز الناس من قَصَّرَ عن طلب الإخوان، وأعجز منه: من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه".

قال أبو حاتم رضى الله عنه: العاقل لا يقصر في تعاهد الوداد، ولا يكون ذا لونين، وذا قلبين، بل يوافق سرُّه علانيته، وقوله فعله، ولا خير في متأخيين ينمو بينهما الخلل، ويزيد في حالتهما الدغل. كما أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لما الله من لا ينفع الودُّ عنده
ومن هو ذو لونين ليس بدائم
ومن هو ذو قلبين، أما لقاؤه
ومن هو إن تحدث له العين نظرةً

وأنشدني عمرو بن محمد النسائي لابن الأعرابي:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها
إن البغيض له عين يصد بها
من الشنأة، أو وُدِّ إذا كانا
لا يستطيع لما في الصدر كتماننا
حتى ترى من ضمير القلب تبياننا
العين تنطق والأفواه ساكنة

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

وجارٍ لا تزالُ تزورُ منه
قوارضُ لا تنامُ ولا تنيمُ
قريب الدار نائي الوء منه
معاندةٌ، أبت لا تستقيم
يبادر بالسلام إذا التقينا
وتحت ضلوعه قلب سقيم

أنبأنا محمد بن أبي علي الخلامي، حدثنا أحمد بن محمد بن بكر الأنباوي عن هشام بن عبد الملك اليزني، قال: المقنع الكندي:

أبل الرجال إذا أردت إخاءهم
وتوسمنُ أمورهم وتفقّد
فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى
فبه اليبدين قريرَ عينٍ فاشدّد
ومتى يزلّ، ولا محالة، زلةً
فعلى أخيك بفضل رأيك فاردد
وإذا الخنا نقض الحبي في موضع
ورأيت أهل الطيش قاموا فاقعد

أخبرنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا الوليد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه "يا بني عليك بالحبيب الأول، فإن الآخر لا يعدله".

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن بكر بن سيف، حدثني محمد ابن حسين قال "كان أعرابي بالكوفة، وكان له صديق، وكان يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابي من عُدده للشدائد إذ حزّب الأعرابي أمر، فأتاه، فوجده بعيداً مما كان يظهر للأعرابي، فأنشأ يقول:

إذا كان وُدُّ المرء ليس بزائد
على "مرحباً" أو "كيف أنت" وحالكا!
ولم يك إلا كاشراً، أو محدثاً
فأف لود، ليس إلا كذلكا
لسانك معسولٌ بشّة
وعند الثريا من صديقك مالكا
وأنت إذا همّت يمينك مرّة
لتفعل خيراً، قاتلتها شمالكا

سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال محمد بن حازم:

وإن من الإخوان إخوان كثرّة
وإخوان: كيف الحال والأهل كله؟
وإخوان "حيّك الإله"، و"مرحباً"
وذلك لا يسوى نقيراً مترباً
جواد إذا استغثت عنه بماله
يقول: إلى القرض، والقرض فاطلباً
فإن أنت حاولت الذي خلف ظهره
وجدت الثريا منه في البعد أقربا

قال أبو حاتم رضى الله عنه: العاقل لا يصادق المتلون، ولا يؤاخي المتقلب، ولا يظهر من الوداد إلا مثل ما يضمّر، ولا يضمّر إلا فوق ما يظهر، ولا يكون في النوائب عند القيام بها إلا ككونه قبل إحداثها

والدخول فيها، لأنه لا يحمد من الإخاء ما لم يكن كذلك.

وأنشدني محمد بن المنذر، وأنشدني محمد بن خلف التيمي، أنشدني رجل من خزاعة:

وليس أخي من ودّني بلسانه
ولكن أخي من ودّني في النوائب
ومن ماله مالي، إذا كنتُ معدماً
ومالي له، إن عَضَّ دهرٌ بغارب
فلا تحمدنُ عند الرخاء مؤاخياً
فقد تنكر الإخوانُ عند المصائب
وما هو إلا كيف أنت ومرحبا
وبالبيض رَوَّاعٌ كروغ الثعالب

أخبرنا ابن قحطبة، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا أبو معاوية عن هشام ابن عروة عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة "أحب خليلك و خليل أيبك"

قال أبو حاتم رضى الله عنه: إن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه: ملاحظة العين إذا لَحَظَتْ، فإنها لا تكاد تبدي إلا ما يضمّر القلب من الود، ولا يكاد يخفي ما يجنه الضمير من الصد، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكا لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله. ولقد أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا محمد بن الحسن الذهلي، حدثنا علي بن محمد المذهبي عن محمد بن إبراهيم العباسي عن عبد الله بن الحجاج مولى المهدي وعن إبراهيم بن شكله قال "اعلم أن من أظهر ما تحب أو ما تكره فإنما لك أن تقيس ما أضمر قلبه بالذي أظهر لسانه، وليس لك أن تعرف ما أسر ضميره، فعامله على نحو ما يبدي لك لسانه" وفي ذلك أقول:

ليس المسيء إذا تغيب سوءه
عني بمنزلة المسيء المعلن
من كان يظهر ما أحب فإنه
عندي بمنزلة الأمين المحسن
والله أعلم بالقلوب، وإنما
لك ما بدا لك منهم بالألسن
ولقد يقالُ خلافُ ذلك إنما
لك ما بدا لك منهم بالأعين

غير أن خالي خالفني في ذلك، وزعم أن الأعين أئين شهادة على ما في القلوب من الألسن. وكتب في ذلك رسالة "أما بعد، فقد بدا لي من صدك، ما آيسني من ودك، ولم يزل يخبرني لحظك ما تضمّر لي من بغضك". وكتب في أسفل ذلك:

وما أحب إذا أحببت مكتتما
بيدي العداوة أحيانا ويخفيها
تظل في قلبه البغضاء كامنةً
فالقلب يكتُمها والعين تبديها
والنفس تعرف في عيني مُحَدَّثها
مَنْ كان سلّمها أو من أعاديها

عينك قد ذلنا عينيَّ منك على

أشياء لولاها ما كنت أريها

أخبرنا الخلاصي، حدثنا أحمد بن محمد الصوفي، حدثنا محمد بن صالح البغدادي قال: سمعت إبراهيم الحجني يقول "دلائل الحب تعرف في الحب، وإن لم ينطق لسانه".

ائتلاف الناس واختلافهم

أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السخيتاني، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النرسي، حدثنا حماد بن سلمة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف".

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان الثوري عن حبيب ابن أبي ثابت عن أبي الطفيل قال: قال علي "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف". قال أبو حاتم رضى الله عنه: سبب ائتلاف الناس وافتراقهم - بعد القضاء السابق - هو تعارف الروحين، وتناكر الروحين، فإذا تعارف الروحان وجدت الألفة بين نفسيهما، وإذا تناكر الروحان وجدت الفرقة بين جسميهما.

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران، حدثنا يوسف ابن يعقوب الصفا، حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي يحيى عن مجاهد قال: رأى ابن عباس رجلا فقال "إن هذا ليحبي، قالوا: وما علمك؟ قال: إني لأحبه، والأرواح جنود مجندة، فما تعرف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف". أنشدني محمد بن أبي علي الخلاصي، أنشدني أحمد بن محمد بن بكر الأبنوي:

إن القلوب لأجناد مجندة

لله في الأرض بالأهواء تعترف

فما تعرف منها فهو مؤتلف

وما تناكر منها فهو مختلف

أنبأنا ابن مكرم بالبصرة، حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا الحكم ابن عبد الملك عن قتادة في قول الله تعالى "120:11 إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم" قال: للرحمة والطاعة، فأما أهل طاعة الله فقلوبهم وأهواؤهم مجتمعة، وإن تفرقت ديارهم، وأهل معصية الله فقلوبهم مختلفة، وإن اجتمعت ديارهم. وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

فما تبصر العيان والقلب آف

ولا القلب والعينان منطبقان

ولكن هما روحان تعرّض ذي لذي

فيعرف هذا ذي فيلتقيان

قال أبو حاتم رضى الله عنه: إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه: هو الاعتبار بمن يحادثه ويوده، لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع. وما رأيت شيئاً أدلّ على شيء، ولا الدخان على النار، مثل الصاحب على الصاحب. وأنشدني الأبرش:

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ما شاه
ونو العر إذا احتك ذا الصحة أعداه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

وللروح على الروح دليل حين يلقاه

حدثنا أبو خليفة، حدثنا محمد بن كثير العبدى، أنبأنا سفيان عن أبي إسحاق عن هبيرة، قال: اعتبر الناس بأخذانهم.

أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن موسى الأخباري، حدثنا محمد بن صالح العدوي، حدثنا الحسين بن جعفر بن سليمان الضبعي قال: سمعت أبي يقول: سمعت مالكا يقول "الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصعو مع الصعو وكل إنسان مع شكله". وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

يزين الفتى في قومه ويشينه
لكل امرئ شكل من الناس مثله
وفي غيرهم: أخذانه ومدخله
وكل امرئ يهوي إلى يشاكله
وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إن كنت حلت، وبى استبدلت مطرحة
فكل طير إلى الأشكال موقعها
وإذا، فلم تأت مكروها ولا بدعا
والفرع يجري إلى الأعراق منتزعا

قال أبو حاتم رضى الله عنه: العاقل يجتنب مما شاة المرئ في نفسه، ويفارق صحبة المتهم في دينه، لأن من صحب قوماً عرف بهم، ومن عاشر امراً نُسب إليه، والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لم يجد المرء بدا من صحبة الناس تحرّى صحبة مَنْ زانه إذا صحبه، ولم يشنه إذا عرف به، وإن رأى منه حسنة عدّها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه.

فأما اليوم فأكثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها. وما أشبه عشرتهم إلا بما أخبرني محمد بن يعقوب البغلاني، حدثني عبد الصمد ابن الفضل حدثنا الحسين بن سهل التياس عن أبي عبيدة قال "تكلم عصفور في بني إسرائيل مع فحّ، فقال العصفور: انخاؤك لماذا؟ قال: من العبادة. قال: دفنك في التراب

لماذا؟ قال: من التواضع. قال: فما هذا الشعر؟ قال هذا لباسي. قال: ما هذا الطعام؟ قال: هذا أعدده
لعاير السبيل. قال: فتأذن لي فيه؟ قال: نعم. قال: فنقر العصفور نَقْرَةً فَأُخَذَ بَعْنَقه، فجعل العصفور يقول:
شَعُّ شَعِّ شَعُّ. وقال: والله لا يغري قارئ بعدك أبدا".
وأنشدني محمد بن أبي علي لابن أبي اللقيش:

إن كنت تبغي العلم أو نحوه
أو شاهداً يخبر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها
واعتبر الصاحب بالصاحب

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

تَعَارَفَ أرواحُ الرجال إذا التقوا
فمنهم عدو يُتَّقِي و خليل
كذلك أمور الناس والناس منهم
خفيف إذا صاحبتَه وتقبل

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

أجعل قرينك من رضىت فعاله
كم من قرين شائن لقرينه
وأحذر مقارنة القرين الشائن
ومُهجنٍ منه لكل محاسن

قال أبو حاتم رضى الله عنه: إن من الناس من إذا رآه المرء يعجب به، فإذا ازداد به علماً ازداد به عجباً،
ومنهم من يبغضه حين يراه، ثم لا يزداد به علماً إلا ازداد مَقْتاً، فاتفقهما يكون باتفاق الروحين قديماً.
وافترقهما يكون بافتراقهما، وإذا ائتلفا ثم افترقا فراق حياة من غير بُغض حادث، أو فراق ممات، فهنالك
الموت الفظيع، والأسف الوجيع، ولا يكون موقف أطول غُمَّةً. وأظهر حسرةً وأدوم كآبةً، وأشد تأسفاً،
وأكثر تلهفاً من موقف الفراق بين المتواحيين، وما ذاق ذائق طعماً أمراً من فراق الخليلين، وانصرام القرينين.
حدثنا محمد بن يعقوب الخطيب قال: سمعت معمر بن سهل يقول: سمعت جعفر بن عون يقول: سمعت
مسعر بن كدام يقول:

لن يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكرُّ عليهم ونهار

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، حدثنا الزبير بن بكار، حدثني محمد بن
موسى أبو غزية قال: كان أبو العتاهية إذا قدم المدينة يجلس إلي، فأراد مرة الخروج فودعني، قال:

إن نَعَشْ نَجْتَمِعُ، وإلا فما
أشغل من مات عن جميع الأنام

حدثنا محمد بن أبي علي، قال: أنشدنا ممد بن موسى السمرى، أنشدنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني:

فيا عجباً ممن يمدُّ يمينه
إلى إلفه عند الفراق، فيسرع

ضعفتُ عن التوديع لما رأيته

فصافحته بالقلب، والعينُ تدمع

وأنشدني ابن فياض للبحثري:

الله جارك في انطلاقك

تلقاء شامك، أو عراقك

لا تعدلني في مس

يري حيث سرت، ولم الألقك

إني خشيت موافقا

للبين تقسح غرب ماقك

وعلمت ما يخشى الموّد

ع عند ضمك واعتناقك

فتركت ذاك تعمداً

وخرجت أهرب من فراقك

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

أفي كل يوم حيّة البين تفرع

وعيني لبين من ذوي الود تدمع؟

فلا النفس مع تهيامها مستفيقة

ولا بالذي يأتي به الدهر تقنع

وأنشدني محمد بن بندار بن أصرم:

أيا قلب لا تجزع من البين، وأصطبر

فليس لما يقضى عليك بدافع

توكل على الرحمن إن كنت مؤمناً

يُجرك، ودعني من نحوس الطوالع

وكل الذي قد قدر الله واقع

وما لم يقدره فليس بواقع

وأنشدني عبد الرحمن بن يحيى بن حبيب الأندلسي لنفسه:

نطقت مدامعه بما في قلبه

وعن الجواب لسانه لا ينطق

فكأنه مما يقاسي قلبه

دنف مريض أو أسير مؤثق

وكأنما الأشجان في أحشائه

لفراق أهل الود نارٌ تحرق

كيف السلو، وهل له من سلوة

من بان أحبابه يتفرّق؟

قال أبو حاتم رضي الله عنه: السبب المؤدي إلى إظهار الجزع عند فراق المتواخين: هو ترك الرضا بما يوجب القضاء، ثم ورود الشيء على مضمّر الحشا بضد ما انطوى عليه قديماً، فمن وطن نفسه في ابتداء المعاشرة على ورود ضد الجميل عليها من صحبتته، وتأمل ورود المكروه منه على غفلته، لا يظهر الجزع عند الفراق، ولا يشكو الأسف والاحترق، إلا بمقدار ما يوجب العلم إظهاره. ولقد أولع بجماعة الفراق حتى إنهم خرجوا إلى ثلب الطيور، ومدح الدمن وتأولوا لعن نوح عليه السلام الغراب.

أنبأنا جعفر بن أحمد بن سنان القطان، بواسط، حدثنا عمرو بن محمد بن عيسى الضبعي، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا الجريري، عن أبي السليل عن أبي مراوح قال "بعث نوح الغراب والحمامة حيث استقرت السفينة على الجودي، يلتسان له الجُدُّ - يعني الأرض - فأما الغراب فرأى جيفة فوق عليها فأكل منها، وأما الحمامة فجاءت عاضَّةً على غصن شجرة بطين أحمر، قال: فدعا للحمامة بالبركة، وأما الغراب فلعنه، وقال له قولاً شديداً".

أنبأنا محمد بن جعفر بن الحسن البغدادي، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين البغوي، قال: قال سليم بن منصور "أمرت لُبْنَى فاشترى لها أربعة غربان، فلما رأتهن صرخت وبكت، وكتفتهن، وجعلت تضربهن بالسوط حتى قتلتهن جميعاً. وأنشأت تقول:

لقد نادى الغراب ببين لُبْنَى
وقال: غداً تَبَايُنُ دار لُبْنَى
فقلت: تعست، ويحك من غراب
لقد أولعت لا لُقَيْت خيراً
فطار القلب من حذر الغراب
وتنأى بعد ود واقتراب
أكل الدهر سعيك في تَبَاب
بتفريق المحب عن الحباب

وأنشدني إبراهيم بن علي الطرقي، قال أنشدني علي بن إسحاق:

غراب البين، ويحك صِحْ بقرب
تنادى بالتفريق كل يوم
أراني الله ريشك عن قريب
كما أسخنت يوم البين عيني
كما قد صحت ويحك بالبعداد
فما لك بالتواصل لا تنادي؟
تمرطه البزاة بكل وادي
وألقيت الحزازة في فؤادي

أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب، بهمذان، حدثنا عبد الكبير بن محمد الإنسي، حدثنا بعض أصحابنا، قال: مررت بالبصرة على باب دار، فإذا بصوت غراب يُجَلِّد، فدنوت من الدار فإذا صاحبة الدار، وبين يديها جوار، وهي تأمر بجلده. فقلت: أما تتقون الله في هذا الغراب؟ فقلن لي: هذا الغراب الذي قيل فيه:

ألا يا غراب البين قد طرَّتْ بالذي
أحاذر من لُبْنَى، فهل أنت واقع؟

فقلت: ليس هذا ذاك الغراب: فقالت: والله ما نراك تأخذ البريء بالسقيم حتى تظفرَ بذلك الغراب. قال أبو حاتم رضى الله عنه: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات والأشعار على التقصي في كتاب "الوداع والفراق" فأعنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب؛ إذ شرطنا فيه الإشارة إلى الشيء المحصول، والإيماء إلى الشيء المقول.

الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا يزيد بن صالح الشكري، حدثنا حماد ابن سلمة، عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن رجلاً زار أحاً له في قرية، فرصد الله على مدرجته ملكاً فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أحاً لي في هذه القرية، فقال: هل له عليك من نعمة تُربُّها؟ قال: لا، إلا أني أحبه في الله، قال: إني رسول الله إليك، أن الله تبارك وتعالى أحبُّك كما أحبته".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل تعاهد الزيارة للإخوان وتفقد أحوالهم؛ لأن الزائر في قصده الزيارة في الآجل بفعله ذلك. وقد قال بعض القدماء: إن الرجل إذا زار أحاً له في الله، لم يبق في السماء ملك إلا حياة بتحية مستأنفة لا يجيبه ملم مثله ولم تبق شجرة من شجر الجنة إلا نادى صاحبته: ألا إن فلان ابن فلان زار أحاً في الله.

والآخر: التلذذ بالمؤانسة بالأخ المزور، مع الانقلاب بغيمتين معاً.

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا عبد الله بن رجاء الغداني قال: كان عتبة الغلام يأوي المقابر والصحاري، ثم يخرج إلى السواحل فيقيم بها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فشهد الجمعة ورأى إخوانه فسلم عليهم.

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثني بعض مشيختنا، قال: قال عامر بن قيس: إنما أجدني آسف على البصرة لأربع خصال: تجاوب مؤذنيها، وظماء الهواجر، ولأن بها إخواني ولأن بها وطني.

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا محمد بن بشر الخطابي، حدثنا محمد بن سهل التميمي، قال: سمعت الفريابي يقول: جاءني وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو محرم بعمرة، فقال: يا أبا محمد لم يكن طريق علي، ولكنني أحببت أن أزورك وأقيم عندك، فأقام عندي ليلة، وجاءني ابن المبارك وقد أحرم بعمرة من بيت المقدس فأقام عندي ثلاثاً، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، أقم عندي عشرة أيام، قال: لا، الضيافة ثلاثة أيام.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الناس في الزيارة على ضربين: فمنهم من صحح الحال بينه وبين أخيه، وتعرى عن وجود الخلل، وورود البغض فيه، فإذا كان بهذا النعت، أحببت له الإكثار من الزيارة، والإفراط في الاجتماع؛ لأن الإكثار من الزيارة بين من هذا نعتة لا يورث الملالة، والإفراط في الاجتماع بين من هذه صفته يزيد في المؤانسة.

والضرب الآخر: لم يستحکم الود بينه وبين من يواخيه، ولا أذاهما الحالُ إلى ارتفاع الحشمة بينهما
يبتذلان لمهنتيهما، فإذا كان بهذا النعت أحببت له الإقلال من الزيارة. لأن الإكثار منها بينهما يؤدي إلى
الملاة، وكل مبذول مملول، وكل ممنوع ملذوذ. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة
تصرح بنفي الإكثار من الزيارة حيث يقول "زُرْ غَبًّا تَزِدُّ حُبًّا" إلا أنه لا يصح منها خير من جهة النقل،
فتكينا عن ذكرها وإخراجها في الكتاب، وإليها ذهب بعض الناس حتى ذكروها في أشعارهم.
من ذلك ما أنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إذا زرت الحبيب فزره غباً

إلى من زرته مقةً وحبا

وقد قال النبي، وكان براً

وأقل زور من تهواه تردد

وأنشدني محمد بن أبي علي:

والى حين أغيب صباً

حدت ولا استحدثت ذنباً

زوروا على الأيام غباً

إني رأيتك لي محبا

فقعدت لا لملاة

إلا لقبول نبينا:

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا خالد بن أحمد الشيباني، حدثنا سعيد ابن عنيسة، حدثنا حميد بن
عبد الرحمن الرؤاسي، قال: سمعت الحسن بن صالح يقول: كل مودة لا تزاد إلا بالالتقاء مدخولة.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: من صحح الحال بينه وبين الإخوان لم يضره قلة الاجتماع، لاستحكام الحال
بينهما، والمودة إذ اضرَّ بها قلة الالتقاء تكون مدخولة، وأما من لم يحلَّ في نفس صحة الحال، ولم
يستحکم أسباب الوداد؛ فالتوقي من الإكثار في الزيارة أولى به، لئلا يستثقل ويمل.
وأنشدني الخلافي، أنشدني أحمد بن محمد الصيداوي:

تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكاً

ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

عليك بإقلال الزيارة إنها

فإني رأيت القطر يُسأم دائباً

وأنشدني الكريزي:

ب تكون كالثوب استجدّه

أن لا يزال يراك عنده

أقل زيارتك الحبي

إن الصديق يُملهُ

وأنشدني أوس بن أحمد بن محمد بن أحمد لأبي تمام:

لديباجتيه، فاعترب تتجدد

وطول مقام المرء في الحي مخلق

فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الخلق إذ ليست عليهم بسرمد

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا بن زنجويه، حدثنا حسين بن الوليد، حدثنا عبد الله بن المؤمل عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس "أكرم الناس عليّ حليسي الذي يتخطى رقاب الناس حتى يجلس إليّ".
أنبأنا مكحول ببيروت، حدثنا عبيد بن محمد بن هارون حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة في قوله تعالى "26:42 ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات" قال: يشفعون في إخوانهم "ويزيدهم من فضله" قال: يشفعون في إخوان إخوانهم.

صفة الأحمق والجاهل

أنبأنا محمد بن نصر بن نوفل، أنبأنا أبو داود السنجي، حدثنا أبو عاصم، عن شبيل بن عزرة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثل الجليس الصالح مثل العطار، إن لم يعطك شيئاً يُصِيبك من عطره، ومثل الجليس السوء مثل القَيْن، إن لم يَحْرِقْ ثوبك، أصابك من دخانه".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: شبيل بن عزرة هذا من أفاضل أهل البصرة وقرائهم، ولكنه لم يحفظ إسناد هذا الخبر: لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقصر به شبيل ولم يحفظه.

والواجب على العاقل ترك صحبة الأحمق، ومجانبة معاشرته التَّوَكِّي، كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب، وعشرة الفطن اللبيب، لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقله، أصابك من الاعتبار به، والأحمق إن لم يُعَدِّك حمقه تدنست بعشرته.

وقد أنبأنا الحسين بن محمد السنجي حدثنا إبراهيم بن أبي داود البرسلي حدثنا زهير بن عباد حدثنا شهاب بن خراش عن أبيه عن يسير بن عمرو - وكان قد أدرك الصحابة - قال: أهدج الأحمق، فليس للأحمق خير من هجرانه.

أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن أبي يعقوب الربيعي حدثنا أحمد ابن إسحاق الخشاب عن الأصمعي عن سلمة بن بلال قال: كان فتى يعجب عليّ ابن أبي طالب، فرآه يوماً وهو يمشي رجلاً متَّهماً، فقال له:

ل إِيَّاكَ وإِيَاهِ

لا تصحب الجاهل

حليما حين آخاه

فكم من جاهل أردى

إذا ما هو ما شاه

يقاس المرء بالمرء

وللشيء من الشيء

مقاييس وأشباه

وللقب على القلب

دليل حين يلقاه

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اختر ذوي التمييز واستبقهم

وجانب النوكي وأهل الريب

فصحبة العاقل زين الفتى

وصحبة الأنوك أخذ السبب

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من علامات الحمق التي يجب للعاقل نفقدها ممن خفي عليه أمره: سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقعة في الأخطاء، والاختلاط بالأشرار.

والأحمق إذا عرضت عنه اغتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حَلَمَتْ عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته.

وما أشبه عشرة الحمقى إلا بما أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

لي صديق يرى حقوقي عليه

نافلات وحقه كان فرضا

لو قطعت الجبال طولاً إليه

ثم من بعد طولها سرت عرضاً

لرأي ما صنعت غير كبير

واشتهى أن أزيد في الأرض أرضاً

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال: قال لي أبو طاهر ابن السرح قال: حدثني خالي أبو رجاء عبد الرحمن بن عبد الحميد عن سعيد ابن أبي أيوب قال: لا تصاحب صاحب السوء، فإنه قطعة من النار، لا يستقيم وده ولا يفي بعهده. وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

لن يسمع الأحمق من واعظ

في رفعة الصوت وفي همه

لن تبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

والحمق داء، ما له حيلة

ترجى، كبعد النجم في لمسها

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أظلم الظلمات الحمق، كما أن أنفذ البصائر العقل، فإذا امتحن المرء بعشرة الأحمق كان الواجب عليه اللزوم لأخلاق نفسه، والمباينة لأخلاقه، مع الإكثار من الحمد لله على ما وهب

له من الانتباه لما حرم غيره التوفيق له، فإن جرى الأحمق في صحبته ميدانه في عشرته فالواجب على العاقل لزوم السكوت حينئذ في أوقاته، لأن أبا حمزة محمد بن عمر بن يوسف أنبأنا بنسنا حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا ابن داود قال: سمعت الأعمش يقول: السكوت للأحمق جواب.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: وإن من الحمقى مَنْ لا يَصُدُّه عن سلوكه السكوت عنه، ولا يدفعه عن دخول المكامن الإغضاء عنه ولا ينفعه.

فالعاقل إذا امتحن بعشرة من هذا نعتة تكلف بعض التجاهل في الاحايين؛ لأن بعض الحلم إذعان، كما أن استعماله في بعض الحالات قطب العقل.

ولقد أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

لئن كنت محتاجاً إلى اللحم إنني إلى الجهل في بعض الأحيان أحوج
ولي فرس باللحم باللحم ملجَم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقومٌ ومن شاء تعويجي فإني معوجٌ
وما كنت أرضى الجهل خذنا ولا أبا ولكنني أرضى به حين أخرجُ
فإن قال بعض الناس: فيه سماجةٌ، فقد صدقوا، والذل بالحر أسمح

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

لن تُرضِيَ الرَّذْلَ إلا حين تسخطه وليس يسخط إلا حين ترضيه
ولا يسوعك إلا حين تكرمه ولا يسرك إلا حين تقصيه

حدثنا أبو يعلى حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو سفيان المعمرى عن سفيان الثوري قال: ابن آدم لم يخلق إلا أحمق، ولولا ذلك لم ينفعه عيشه.

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عصام بن الفضل الرازي حدثنا الزبير بن بكار عن محمد بن حرب قال: قال عبد الله بن حسن لابنه: يا بني أحذر الجاهل، وإن كان لك ناصحاً، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدواً؛ فيوشك الجاهل أن يورطك بمشورته في بعض اغترارك، فيسبق إليك مكر العاقل.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ومن شيم الأحمق العجلة، والخفة، والعجز، والفجور، والجهل، والمقت، والوهن، والمهابة، والتعرض، والتحاسد، والظلم، والخيانة، والغفلة، والسهو، والغى، والفحش، والفجر، والخيلاء، والعدوان، والبغضاء.

وإن من أعظم أمارات الحمق في الأحمق لسانه؛ فإنه يكون قلبه في طرف لسانه، ما خطر على قلبه نطق به لسانه.

والأحمق يتكلم في ساعة بكلام يعجز عنه سحبان وائل، ويتكلم في الساعة الأخرى بكلام لا يعجز عنه بأقل.

والعاقل يجب عليه مجانبة مَنْ هذا نعته، ومخالطة مَنْ هذه صفته، فإنهم يجترئون على من عاشرهم. ألا ترى الزُّطَّ ليسواهم بأشجع الناس، ولكنهم يجترئون على الأسد لكثرة ما يرونها. وأنشدني محمد بن يوسف بن أيوب الأرمي:

وَأَمَّنْ يِعَادِي عَاقِلًا خَيْرَ لَهُ مَنَ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ
فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَصَادِقَ أَحْمَقًا إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مَصَدَّقٌ

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي أنشدني أبي لصالح بن عبد القدوس:

أَحْذَرُ الْأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ إِنَّمَا الْأَحْمَقُ كَالثُوبِ الْخَلْقُ
كَلَّمَا رَفَعْتَهُ مِنْ جَانِبٍ حَرَكْتَهُ الرِّيحُ وَهَنًا فَانْخَرَقُ
أَوْ كَصَدْعٍ فِي زُجَاجٍ فَاحْشُ هَلْ تَرَى صَدْعَ زُجَاجٍ يَلْتَصِقُ؟
كَحَمَارِ السُّوءِ إِنْ أَفْضَمْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ، وَإِنْ جَاعَ نَهَقُ
وَإِذَا جَالَسْتَهُ فِي مَجْلَسٍ أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالْخُرْقُ
وَإِذَا نَهْنَهْتَهُ كِي يَرْعَوِي زَادَ شِرَاءً، وَتَمَادَى فِي الْحُمُقِ
عَجَبًا لِلنَّاسِ فِي أَرْزَاقِهِمْ ذَاكَ عَطْشَانٌ، وَهَذَا غَرِقُ

أنبأنا يعقوب بن إسحاق القاضي، حدثنا أبو هاني عبد الحميد بن عبد الله حدثنا عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه قال: الأحمق كالثوب الخلق، إن رفاته من جانب انخرق من جانب آخر، مثل الفخار المكسور، لا يُرْقَعُ ولا يُشْعَبُ، ولا يعاد طينا.

فهذا مثل الأحمق: إن صحبته عنك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك منّ عليك، وإن أعطيته كَفَرَكَ، وإن أسر إليك أتهمك، وإن أسرت إليه خانك، وإن كان فوقك حَقَرَكَ، وإن كان دونك غمزك. وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أَعْلَمُ بَأَنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً فِي صُورَةِ الرَّجْلِ السَّمِيعِ الْمَبْصِرِ

فَطَنًا بِكُلِّ مَصِيبَةٍ فِي مَالِهِ وَإِذَا يَصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ
وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

فيحسبَ جهلاً أنه منك أعلمُ

إليه، وقالوا: إنه منك أفهم

وإن عناءَ أن تفهّمَ جاهلاً

وتشخصَ أبحارَ الرّاعِ تعجباً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الأحمق يتوهم أنه أعقل من ركب فيه الروح، وأن الحمق قسّم على العالم غيره، والأحمق مُبَغِّضٌ في الناس، مجهول في الدنيا، غير مرضى العمل، ولا محمود الأمر عند الله وعند الصالحين، كما أن العاقل محب إلى الناس، مُسَوِّدٌ في الدنيا، مرضى عند الله والآخرة، وعند الصالحين في الدنيا.

أنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان، قال: كان الحسن يقول: أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل. وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وما الرشد إلا أن تصاحب من رَشَدَ

وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

وما الغيُّ إلا أن تصاحبَ غاويًا

ولن يصحبَ الإنسانَ إلا نظيره

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

جليسة من نوّكه في تعب

عمداً، ويرضى عند حال الغضب

في عجب قد جاز حدّ العجب

أسلمَ في كتابٍ سوء الأدب

لنا جليس تارك للأب

يغضب جهلاً عند حال الرضا

فنحن منه كلما جاءنا

كأنه من سوء تأديبه

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا محمد بن أبي يعقوب الربيعي، حدثنا عبد الله بن موسى البصري، حدثنا العتيبي، قال: سمعت أعرابياً يقول: العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أسر منه بلين العيش مع السفهاء.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: وإن من شيم العاقل: الحلم، والصمت، والوقار، والسكينة والوفاء والبذل، والحكمة، والعلم، والورع والعدل، والقوة، والحزم، والكياسة، والتميز، والسمت، والتواضع، والعفو، والإغضاء، والتعفف، والإحسان، فإذا وفق المرء لصحبة العاقل فليشدّ يديه به ولا يزايله على الأحوال كلها.

والواجب على العاقل أن لا يصحب بحيلة من لا يستفيد منه خيراً.

ولقد أنبأنا محمد بن محمود بن عدي النسوي، حدثنا علي بن سعيد بن جرير، قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أخبرت عن مالك بن دينار أنه قال: مررت براهب في صومعته فناديت به، فأشرف عليّ، فكلمني

وكلمته، فقال لي فيما يقول: إذا استطعت أن تجعل فيما بينك وبين الدنيا حائطا فافعل، وإياك وكلّ جليس لا تستفيد منه خيراً فلا تجالس، قريباً كان أو بعيداً.

الزَّجْرُ عَنِ التَّجَسُّسِ وَسُوءِ الظَّنِّ

حدثنا محمد بن أحمد الرقام بتستر، حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى، حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن حيان عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً".

حدثنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا جعفر بن محمد بن الحجاج الرقي، حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائي، حدثنا محمد بن المبارك، عن يونس بن نافع، عن كثير بن زياد، قال: سمعت الحسن يقول: لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيء، فإنه من التجسس.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمى قلبه وتعب بدنه، وتعدّر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم واعجز منه من عابهم بما فيه من عاب الناس عابوه، ولقد أحسن الذي يقول:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا	عليم، وأبدوا منك ما كان يُستُرُّ
وقد قال في بعض الأقاويل قائل	له منطق فيه كلام مُحَبَّرٌ
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم	فلا عيب إلا دون ما منك يُذَكَّرُ
فإن عبت قوما بالذي ليس فيهم	فذلك عند الله والناس أكبر
وإن عبت قوما بالذي فيك مثله	فكيف يعيب العورَ من هو أعور؟
وكيف يعيب الناس من عيب نفسه	أشدُّ إذا عدَّ العيوب وأنكر؟

متى تلتمس للناس عيباً تجد لهم	عيوباً، ولكن الذي فيك أكثر
فسالمهم بالكف عنهم، فإنهم	بعيبك من عينيك أهدى وأبصر

حدثنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا هارون بن صدقة القاضي، حدثنا سعيد ابن مسلمة الإيادي، قال: ادعت امرأة على رجل حماراً لها، فقدمته إلى القاضي، فسأها البينة، فأحضرت أبا دلامة ورجلاً آخر،

فقال لها القاضي: أما شاهدك هذا فقد قبلنا شهادته، فأتنا بشاهد آخر، فأتت أبا دلامة فأخبرته، فصار إلى القاضي وأنشأ يقول:

إن الناس غَطَّوْنِي تَغْطِيتُ عَنْهُمْ
وإن حفروا بئري حفرت بئارهم
وإن بحثوا عني ففيهم مباحث
ليعلم يوماً كيف تلك النبائث؟

فقال القاضي للمرأة: كم ثمن حمارك؟ قالت: ثلاثمائة، قال: قد احتملناها لك من مالي وأنشدني الكريزي:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره
وما خير مَنْ تخفى عليه عيوبه
ويعمى عن العيب الذي هو فيه
ويبدو له العيب الذي لأخيه

حدثنا محمد بن المنذر، حدثنا الليث بن عبدة المصري، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة عن الشيباني، قال: في الكتب مكتوب: كما تدين تدان، وبالكأس الذي تسقى به تشرب، وزيادة: لأن البادئ لا بد له من أن يزداد.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: التجسس من شُعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسئ الظن بإخوانه، ولا يفكر في جنائياته وأشجانه.

ولقد أحسن الذي يقول:

ما يستريحُ المسيء ظنا
وقلَّ وجه يضيق إلا
من طول غم، وما يُريحُ
ودونه مذهب فسيحُ
مَنْ خَفَّ اللهُ عَنْهُ هَبَّتْ
من كل وجه إليه ريح
والجسم حيث استقر هادٍ
والروح جَوَّالَةٌ تسيح
كم تذبج الأرض من بنيتها
كلُّ بنيتها لها ذبيح
لن يهلك المرء من سماح
وقلَّما يُفلح الشَّحيح

قال أبو حاتم رضي الله عنه: سوء الظن على ضريين: أحدهما: منهي عنه بحكم النبي صلى الله عليه وسلم. والضرب الآخر: مستحب.

فأما الذي نهي فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة على ما تقدم ذكرنا له.

وأما الذي يستحب من سوء الظن فهو كمن بينه وبينه عداوة أو شحناء في دين أو دنيا، يخاف على نفسه

مكره، فحينئذ يلزمه سوء الظن بمكائده ومكره لئلا يصادفه على غرّة بمكره فيهلكه.
وفي ذلك أنشدني الأبرش:

ويمكن في عواقبه ندامه

وحسن الظن يحسنُ في أمور

وفيه من سماجته حزامه

وسوء الظن يسمُج في وجوه

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

أن يترك الدهرَ سوءَ الظن بالناس

ما ينبغي لأخي ودّ وتجربة

عناً، ويدفع ضرراً الحرص باليأس

حتى يكون قريباً في تباعده

حدثنا محمد بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا.
أنبأنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عمر بن سعد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مكتوب في التوراة "من تجرّ فجر، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل مباينة العام في الأخلاق والأفعال، بلزوم ترك التجسس عن عيوب الناس؛ لأن من بحث عن مكنون غيره بحث عن مكنون نفسه، وربما طمّ مكنونه على ما بحث من مكنون غيره، وكيف يستحسنُ مسلمٌ تلبّ مسلم بالشيء الذي هو فيه؟.
وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

فِيهِتَكَ النَّاسُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَ

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا

وَلَا تَعْبُ أَحَدًا عَيْبًا بِمَا فِيكَ

وَأَذْكَرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَرُوا

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَأَبْصَرْتُ مَا تَأْتِي، فَأَنْتَ لَبِيبٌ

إِذَا مَا اتَّقَيْتَ الْمَرْءَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى

وَفِي كَفِّهِ مِمَّا يُدْمُ نَصِيبٌ

وَلَا تُكِّ كَالنَّاهِي عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُهُ

وَيَفْعَلُ أَفْعَالَ الدِّينِ يَعِيبُ

يَعِيبُ فَعَالَ السُّوءِ مِنْ فَعَلِ غَيْرِهِ

حدثنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا محمد بن موسى السمرى حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم عن أبيه، قال: وحدثني عزيز عن الزبير بن موسى المخزومي قال: قالت ابنة عبد الله بن مطيع الأسود، وهي زوجة طلحة بن عبد الله بن عوف لزوجها: ما رأيت أحدا قط ألام من أصحابك، قال: مه، لا تقولي ذاك فيهم، وما رأيت من لؤمهم؟ قالت: أمراً والله بيناً، قال: وما هو؟ قالت: إذا أيسرت لزموك، وإذا

أعسرت جانبوك، قال: ما زدتِ على أن وصفتهم بمكارم الأخلاق، قالت: وما هذا من مكارم الأخلاق؟ قال: يأتوننا في حال القوّة منا عليهم، ويفارقوننا في حال الضعف منا عليهم.

الحث على مجانبة الحرص للعاقل

حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة - رحمة الله - حدثنا بشر بن معاذ العقدي حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص، والحسد" قال أبو حاتم رضي الله عنه: ركّب الله جل وعز في البشر الحرص والرغبة في الدنيا الفانية، لئلا تخرب، إذ هي دار الأبرار، ومكسب الأتقياء، وموضع زاد المؤمنين، واستجلاب الميرة للصالحين، ولو تعرّى الناس عن الحرص فيها بطلت وخربت، فلم يجد المرء ما يستعين به على أداء فرائض الله، فضلا عن اكتساب ما يجدي عليه النفع في الآخرة نفلا، والإفراط في الحرص مذموم، كما أنشدني علي بن محمد البسامي:

ليس عندي إلا الرضا بقضاء الل
ه فيما أحببته أو كرهته
لو إليّ الأمور، أختار منها
خيرها لي عواقبا ما عرفته
ولو أني حرصت جهدي أن أد
فع أمراً مقدراً ما دفعته
فأرى أن أردّ إلى من
عنده علمٌ كل ما قد جهلته

وأنشدني محمد بن نصر المديني:

يا كثير الحرص مشغو
لا بدنيا ليس تبقى
ما رأيت الحرص أدنى
من حريص قَطُّ رزقا
لا، ولكن في قضاء الل
ه: أن يعيا ويشقى
تعرف الحق، ولكن
لا ترى للحق حقا

أنبأنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي، حدثنا محمد بن الوليد بن أبان، حدثنا نعيم بن حماد عن ابن المبارك قال: سخاء الناس عما في أيدي الناس. أكثر من سخاء البذل، ومروءة القناعة أكثر من مروءة الإعطاء. أنشدنا أبو يعلى قال: أنشدونا منذ دهر للشافعي:

قدرُ الله واقعٌ
حيث يُقضى وروده
قد مضى فيك حكمه
وانقضى ما يرئده
وأخو الحرص حرصه
ليس مما يزيد

فأرد ما يكون إذ

لم يكن ما تريده

أنبأنا عبد الله بن عروة حدثنا يعقوب الدورقي حدثنا ابن عليه عن أيوب عن ابن سيرين قال: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً، وأفقر الفقراء من كان الحرص عليه أميراً؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه، والحرص محرمة، كما أن الجبن مقتلة، ولو لم يكن في الحرص خصلة تدم إلا طول المناقشة بالحساب في القيامة على ما جمع لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط في الحرص.

وقد كان بعض أصحابنا كثيراً ما ينشد:

تجانب الحرص، ودع عنك الحسد

ففيهما الذلُّ واتعابُ الجسد

وأنشدني الكريزي:

وأرقني طول التفكير إنني

عجبت لدهرٍ ما تُقضى عجائبه

فكم عاجز يدعي جليداً لغشمه

ولو كلف التقوى لكنت مضاربه

وعفٍ يسمى عاجزاً لعفافه

ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه

فليس بحرص المرء أدركه الغنى

ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

ولكنه قبضُ الإله وبسطه

فلا ذا يجاربه ولا ذا يغالبه

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحرص غير زائد في الرزق، وأهون ما يعاقب الحريص بحرصه أن يمنع الاستمتاع بما عنده من محصوله، فيتعب في طلب ما لا يدري أيلحقه أم يحول الموت بينه وبينه؟ ولو لزوم الحريص ترك الإفراط فيه واتكل على خالق السماء لأتحفه المولى جل وعز بادراك ما لا يسعى فيه، والظفر بما لو سعى فيه وهو حريص عسى لتعذر عليه وجوده.

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

الأربُّ باغ حاجة لا ينالها

وآخر قد تُقضى له وهو آيس

يحاولها هذا، وتقضى لغيره

وتأتي الذي تقضى له وهو جالس

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

وكم من أكلة منعت أخاها

بلذة ساعة أكلاتٍ دهر

وكم من طالب يسعى لشيءٍ وفيه هلاكه لو كان يدري

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحرص علامة الفقر، كما أن البخل جلباب المسكنة، والبخل لقاح الحرص، كما أن الحمية لقاح الجهل، والمنع أخو الحرص، كما أن الأنفة توأم السفه، وأنشدني عمر بن محمد قال: أنشدني الغلابي:

لا تأتين نذالة لمنالة

فليأتينك رزقك المقدور

وأعلم بأنك آخذ كل الذي

لك في الكتاب مُحَبَّرٍ مسطور

والله ما زاد امرءاً في رزقه

حرصاً، ولا أزرى به التقصير

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وأرض من العيش في الدنيا بأيسره

ولا ترومن ما إن رُمته صعباً

إن الغنى هو الراضي بعيشته

لا من يظل على ما فات مكتئباً

أبانا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عبد الله بن يحيى بن حميد الطويل حدثنا أبو عبد الرحمن العتيبي حدثني أبي قال: اختصمت بنو إسرائيل في القدر، خمسمائة عام، ثم تحاكموا إلى عالم من علمائهم، فقالوا له: أخبرنا عن القدر، وقصر وبين لتفهمة عنك العوام، فقال: حرمان عاقل، وحظ جاهل. قال أبو حاتم رضي الله عنه: لاحظ في الراحة أن أطاع الحرص، إذ حرص سائق البلايا، فالواجب على العاقل أن لا يكون بالمفرط في الحرص في الدنيا؛ فيكون مذموماً في الدارين، بل يكون قصده لإقامة فرائض الله، ويكون لبغيته نهاية يرجع إليها؛ لأن من لم يكن لقصده "منها" نهاية آذى نفسه وأتعب بدنه. فمن كان بهذا النعت فهو من الحرص الذي يحمد. وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

الحرص عونٌ للزمان على الفتى

والصبر نعم القرن للآزمان

لا تخضعن فإن دهرك إن رأى

منك الخضوع أمدّه بهوان

وإذا رآك وقد قصدت لصرفه

بالصبر، لاقى الصبر بالإذعان

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي، حدثني شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

لا تخضعن لمخلوق على طمع

فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين

وأنشدني الكريزي أيضاً، أنشدني شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

قد شاب رأسي، ورأس الحرص لم يَشِبْ
إن الحريص على الدنيا لفي تعب

مالي أراني إذا حاولتُ منزلةً

لو كان ينفعني علمي وتجربتي

ففلتها طمحت نفسي إلى رتب
لم أشف غيظي من الدنيا ولا كلبتي

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات بعلمها في كتاب "الثقة بالله". بما أرجو أن يكون فيه غُنية لم أراد الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

الزجر عن التحاسد والبغضاء

أنبأنا محمد بن الحسين بن مكرم البراز بالبصرة، حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج، حدثني عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها: فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء. وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

أعذر حسودك فيما قد خصصت به

إن يحسدوني فأني لا ألومهم

فدام لي ولهم ما بي وما بهم

أنا الذي وجدني في صدورهم

إن العلي حسن في مثله الحسد

قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

لا أرتقي صدراً منهم ولا أريد

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: رأى موسى رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه، فسأله عنه، فقال: ألا أخبرك بعمله؟ كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعقُّ والديه، قال: وكيف يعق والديه؟ قال: يستتب لهما حتى يُسبَّأ، ولا يمشي بالنميمة.

أنشدني ابن بلال الأنصاري:

عينُ الحسود عليك الدهر حارسةٌ

فأحذر حراستها، وأحذر تكشفها

تبدى مساويك والإحسان يخفيها

وكن على قدرٍ ما توليك توليها

أنبأنا عبد الرحمن بن زياد الكناني، بالأبلة، حدثنا أبو يحيى الضرير، حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة عن كعب بن علقمة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "ما من أحد عنده نعمة إلا وجدت له حاسداً، ولو كان المرء أقوم من القدح لوجدت له غامزاً، وما ضرت كلمة لم يكن لها خواطب" وأنشدني علي بن محمد البسامي:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
كضرائر الحسناء قلن لوجهها
فالقومُ أُنَادُ له وخصومُ
شتم الرجال، وعرضه مشتومُ
حسداً وبغياً: إنه لدميم

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن إبراهيم بن حرب، حدثنا غسان بن الفضل، أخبرني محمد بن يزيد عن يونس بن عبيد، قال: قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار؟ قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحسد من أخلاق اللئام، وتركه من أفعال الكرام، ولكل حريق مطفىء، ونار الحسد لا تطفأ. ومن الحسد يتولد الحقد، والحقد أصل الشر، ومن أضر الشر في قلبه، انبت نباتاً مرّاً مذاقه، نماؤه الغيظ، وثمرته الندم.

والحسد هو اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره، وحلولها فيه. فأما من رأى الخير في أخيه، وتمني التوفيق لمثله، أو الظفر بحاله، وهو غير مرید لزوال ما فيه أخوه؛ فليس هذا بالحسد الذي ذمَّ ونُهي عنه. ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه، فكلما أتخفه الله بترداد النعم، أزداد الحاسدون له بالمكروه والنقم.

وقد كان داود بن علي - رحمه الله عليه - ينشد كثيراً:

إني نشأت وحسادي ذوو عدد
يا ذا المعارج، لا تتقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما كان من حسن
فمثلُ خُلُقِي فِيهِمْ جَرٌّ لي حسدا

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق، أخبرنا عباد بن عباد المهلي قال: قال أبو جعفر المنصور لسفيان بن معاوية: ما أسرع الناس إلى قدمتك المدينة! فقال: يا أمير المؤمنين:

إن العرائن تلقاها مُحسدة
ولن ترى للناس حسدا

وأنشدني الكريزي، أنشدني محمد بن الحسين العمِّي:

حسدوا النعمة لما ظهرت
فرموها بأباطيل الكلم

وإذا ما الله أبدى نعمة

لم يضرها قول حساد النعم

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر قول: سمعت أحمد بن سعيد الدار يقول: سمعت أبا إسحاق الطالقاني يقول: كنا نتعلم في الكتاب - كما نتعلم أبو جاد - جهل نيسابوري، وبخل مروزي، وحسد هروي، وطرم بلخي.

أنبأنا محمد بن عثمان العقيبي: حدثنا عمران بن موسى بن أيوب، حدثني أبي عن مخلد بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين قال: ما حسدت أحداً على دين ولا دنيا. قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يوجد من الحسود أمان أحرز من البعد منه؛ لأنه ما دام مشرفاً على ما خصصت به دونه لم يزد ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله، ونماء للحسد فيه. فالعاقل يكون على إماتة الحسد بما قدر عليه أحرص منه على تربيته ولا يجد لإماتته دواء أنفع من البعاد، فإن الحاسد ليس يحسدك على عيب فيك، ولا على خيانة ظهرت منك، ولكن يحسدك بما ركب فيه من ضد الرضا بالقضاء كما قال العتيبي:

أفكر ما ذنبي إليك فلا أرى

لنفسى جرماً، غير أنك حاسدٌ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

ليس للحاسد إلا ما حسدٌ

وله البغضاء من كل أحد

وأرى الوحدة خيراً للفتى

من جليس السوء فانهض إن قعد

وأنشدني محمد بن نصر المديني لحبيب بن أوس:

وإذا أراد الله نشر فضيلة

طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف طيباً عَرَفَ العود

لولا التخوف للعواقب لم تنزل

للحاسد النعمي على المحسود

أنبأنا محمد بن المنذر، حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد عن حميد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ لا أبا لك! حيث حسدوا يوسف، ولكن غم الحسد في صدرك، فإنه لا يضررك، ما لم يعد لسانك وتعمل به يدك. قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل إذا خطر بباله ضرب من الحسد لأخيه أبلغ المجهود في كتمانته، وترك إبداء ما خطر بباله.

وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران، أو من تقارب الشكل، لأن الكتبة لا يحسدها إلا الكتبة، كما أن

الحجة لا يحسدها إلا الحجة، ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها مَنْ ييغضه عليها، أو يحسده فيها، والحاسد خصم معاند لا يجب للعاقل أن يجعله حكماً عند نائبة تحدث، فإنه إن حكم لم يحكم إلا عليه، وإن قصد لم يقصد إلا له، وإن حرم لم يحرم إلا حظه، وإن أعطى أعطى غيره، وإن قعد لم يقصد إلا عنه، وإن نهض لم ينهض إلا إليه، وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم التي عنده. فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه وجيرانه وبنى أعمامه.

وقد أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار قال: قال رجل لشيب بن شبة: إني لأحبك، قال: صدقت، قال: وما علمك؟ قال: لأنك لست بحار ولا ابن عم.

وأشددني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي.

إلا من الغش للإخوان والحسد

أنت أمرؤ قصرت عنه مروءته

إن الفضيلة لا تخلو من الحسد

أأن تراني خيراً منك تحسدني؟

قال أبو حاتم رضي الله عنه: بئس الشعار للمرء الحسد، لأنه يورث الكمد، ويورث الحزن، وهو داء لا شفاء له.

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما في قلبه كمين على وجه مبین، وما رأيت حاسداً سألماً أحداً.

والحسد داعية إلى النكد، ألا ترى إبليس؟ حسد آدم فكان حسده نكداً على نفسه، فصار لعيناً بعد ما كان مكيناً، ويسهل على المرء ترضي كل ساخط في الدنيا حتى يرضى، إلا الحسود؛ فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التي حسد من أجلها.

ولقد حدثني محمد بن عثمان العقدي حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: قال بعض الحكماء: أُلزم الناس للكآبة أربعة: رجل حديد، ورجل حسود، وخليط للأدباء وهو غير أديب، وحكيم محتقر للأقوام، وابتعد الناس من الدخول في دين الحق والنصيحة لأهله: جاهل ورث الضلالة عن أهله، ورأس أهل ملته حظي فيهم بفضل الضلالة، ومعظمٌ للدنيا يرى بهجتها دائمة محبوبه، ويرى ما رجي من خيرها قريباً، وما صرف من شرها بعيداً، ليس يعقد قلبه على الإيمان، ورجل خالط النسك فانصرف عنهم لحرصه وشرهه، وداجهم على مكر وخديعة.

الحث على مجانبة الغضب

وكرهية العجلة

أنبأنا عمر بن حفص البراز بجند يسابور، حدثنا محمد بن زياد الزياتي، حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبي صالح عن أبي هريرة أن جابراً قال "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني شيئاً يا رسول الله أدخل به الجنة، ولا تُكثِر عليّ، لعلني أعقل، قال: لا تغضب" قال أبو حاتم رضي الله عنه: أحسن الناس عقلاً مَنْ لم يَحْرَد، وأحضر الناس جواباً مَنْ لم يغضب. وسرعة الغضب: أنكى في العاقل من النار في يَسَّ العُوسَج؛ لأن من غضب زايه عقله، فقال: ما سوّلت له نفسه، وعمل ما شأنه وأرداه.

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقدي، حدثنا إسحاق بن زكرياء البناي حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثني وهيب قال: مكتوب في الإنجيل: ابن آدم، اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أمحك فيمن أمحك؛ وإذا ظلّمت فلا تنتصر، فإن نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وأنشدني الكريزي:

ولم أر فضلاً تمَّ إلا بشيئة

ولم أر عقلاً صحَّ إلا على الأدب

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم

عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

قال أبو حاتم رضي الله عنه: سرعة الغضب من شيم الحمقى، كما أن مجانبتة من زي العقلاء. والغضب بذر الندم، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدَرُ على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب. ولقد أنبأنا محمد بن إسحاق الثقفي، حدثنا حاتم بن الليث الجوهري، حدثنا بكار بن محمد قال: كان ابن عون لا يغضب، فإذا أغضبه إنسان قال: بارك الله فيك!

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

لم يأكل الناسُ شيئاً من مآكلهم

أحلى وأحمدَ عقباؤه من الغضبِ

ولا تلحّف إنسان بملحفة

أبهى وأزينَ من دين ومن أدب

أنبأنا كامل بن مكروم، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ضمرة عن أبي سعيد قال: كان عون بن عبد الله بن عتبة إذا غضب على غلامه قال: ما أشبهك بمولاك! أنت تعصيني وأنا أعصي الله، فإذا أشتد غضبه قال: أنت حر لوجه الله.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه ربّه، وتواتر حلم الله عنه ثم يسكن غضبه ولا يُزري بفعله الخروج إلى ما لا يليق بالعقلاء في

أحوالهم، مع تأمل وفور الثواب في العقبى بالاحتمال ونفي الغضب.
وأنشدني الأنصاري:

وكظمي الغيظَ أولى من مُحاولتي
غِيظَ العدوِّ بإضراري بإيماني
لا خيرَ في الأمرِ تُرديني مغبته
يوم الحساب إذا ما نصَّ ميزاني

أبأنا محمد بن المنذر، حدثنا عمر بن علي بن زياد العنبري قال: سمعت سالم ابن ميمون الخواص يقول:

إذا نطق السفية فلا تُجبه
فخير من إجابته السكوتُ
سكتُ عن السفية فظنَّ أني
عييت عن الجواب، وما عييتُ
شرارُ الناس لو كانوا جميعاً
قذَى في جوف عيني ما قذيتُ
فلست مجاوباً أبداً سفيتها
خزيت لمن يجافيه خزيتُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تأنَّ في أمرِك، وأفهم عني
فليس شيء يعدلُ التأنِي
تأنَّ فيه، ثم قل، فإنِّي
أرجو لك الإرشاد بالتأنِي

أخبرني محمد بن أبي علي الخلاصي، حدثنا عبد الله بن جعفر الزبيرى عن سعيد بن إبراهيم بن محمد بن طلحة، قال أنشدني يونس بن إبراهيم بن محمد ابن طلحة لمحمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله:

فلا تعجلْ على أحد بظلم
فإن الظلم مرتعةٌ وخيمُ
ولا تفحش، وإن ملَّيت غيظا
على أحد، فإن الفحش لومُ
ولا تقطع أخلَّ لك عند ذنب
وإن الذنب يغفره الكريم
ولكن داري عوراه برفق
كما قد يُرْفَعُ الخلقُ القديم
ولا تجزع لريب الدهر واصبر
فإن الصبر في العقبى سليم
فما جَزَعُ بمُغْنِ شيئاً
ولا ما فات ترَجِعُهُ الهموم

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لو لم يكن في الغضب خصلة تدم إلا إجماع الحكماء قاطبة على أن الغضبان لا رأي له، لكان الواجب عليه الاحتيال لمفارقتة بكل سبب.

والغضبان لا يعذره أحد في طلاق ولا عتاق. ومن الفقهاء من عدَّ السكران في الطلاق والعتاق، والخلق مجبولون على الغضب والحلم معاً، فمن غضب وحلم في نفس الغضب؛ فإن ذلك ليس بمذموم، ما لم يخرج غضبه إلى المكروه من القول والفعل، على أن مفارقتة في الأحوال لكلها أحمد.

ولقد أنبأنا عمر بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا مهدي بن سابق عن عطاء قال: قال عبد الملك بن مروان: إذا لم يغضب الرجل لم يحلم؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب.

الزجر عن الطمع إلى الناس

أنبأنا محمد بن أحمد بن المستنير بالمصيصة حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم حدثنا خالد بن عمرو عن سفیان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علمني عملاً إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبي الناس؛ فقال: أزهدي الدنيا يحبك الله، وأزهدي فيما في أيدي الناس يحبك الناس" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل ترك الطمع ترك الطمع إلى الناس كافة بكمال الإياس عنهم؛ إذ الطمع فيما لا يشك في وجوده فقر حاضر، فكيف بما أنت شك في وجوده أو عدمه؟. ولقد أحسن الذي يقول:

لأجعلنَّ سبيل اليأس لي سبلاً
والصبرُ أجعله غرماً أنال به
فالنفس قانعة، والأرضُ واسعة
والدار جامعة مثني ووحدانا
ما عشت منك، ودار ألهمَّ أوطاننا
في الناس قرباً، وعند الله رضوانا

وأنشدني عمرو بن محمد بن عبد الله النسائي قال: أنشدني الحسين بن أحمد ابن عثمان:

اليأسُ أدبني ورفع همتي
إني رأيت مواضع الطمع الذي
واليأس خير مؤدب للناس
يضع الشريف مواضع الأخصاس

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

فأجمعت يأساً لا لبانة بعده
والنفس تطمع هشة إن أطمعت
ولليأس أدنى للعفاف من الطمع
وتنال باليأس السلو فتقع

أنبأنا محمد بن عثمان العقبي حدثنا يزيد بن عبد الصمد حدثنا يحيى بن صالح حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن سعد بن عمارة أنه لما قال لأبنة: يا بني، أظهر اليأس فإنه غنى، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر. قال أبو حاتم رضي الله عنه: أشرف المنى ترك الطمع إلى الناس إذ لا غنى لذل طمع وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع ولم يعم بصره الطمع. ومن أحب أن يكون حراً فلا يهوى ما ليس له؛ لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل

وخضع، كما أن من قنع عف واستغنى.
ولقد أنشدني الكريزي:

والشك عجز، إن أردت سراحا
ولرب مطمعة تعود ذباحا

لا خير في عزم بغير روية
والياس مما فات يعقب راحة

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

فغيرته صروف الدهر أطوارا
فما أبالي أقام الدهر، أم سارا

فكنت لي أملا دهرأ أطلبه
صرفت بالياس عنه النفس فأنصرفت

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا عبد الله بن أبي شيبه حدثنا عبد الله بن مروان حدثنا محمد بن هانئ الطائي قال: بعث أبو الأسود الديلي إلى جار يقترض منه، فلم يقرضه واعتل عليه، وكان حسن الظن به، فقال أبو الأسود:

يعيش بجد عاجز وجليد

لا تشعرن النفس ياساً، فإنما

فكل قريب لا ينال بعيد

ولا تطمعن في مال جار لقربه

يروح بأرزاق العباد جدود

وفوض إلى الله الأمور، فإنما

أنبأنا القطان بالرقعة حدثنا المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: سمعت ابن السماك يقول: الرجاء حبل في قلبك، وقيد في رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك ينفك القيد من رجلك.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: الطمع غدة من قلب المرء له طرفان، أحدهما: القيد في رجله، والآخر: الطمع على لسانه، فما دامت العقدة قائمة لا تنفك رجلاه، ولا ينطق لسانه، فسعى إلى ما شاء، وقال ما أحب. ودواء زوال الطمع عن القلب: هو رؤية الأشياء من مكونها بدوام الخلو، وترك الناس كما أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

وارض بالوحدة أنسا

كن لقعر البيت جلساً

أو ترد اليوم أمسا

لست بالواجد حراً

زهد ما عمرت غرسا

فاغرس اليأس بأرض ال

طمع الكاذب ترسا

وليكن ياسك دون ال

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يجتنب الطمع إلى الأصدقاء؛ فإنه مدلّة، ويلزم اليأس عن الأعداء؛ فإنه منجاة، وتركه مهلكة، والإياس هو بذر الراحة والعز، كما أن الطمع هو بذر التعب والذل، فكم من

طامع تعب وذل، ولم ينل بغيته، وكم من آيس استراح وتعزز، وقد أتاه ما أمل وما لم يأمل.
وأنشدني الأبرش:

يَعْرَى وَيَغْرَثُ مِنْ أَمْسَى عَلَى طَمَعٍ مِنْ الْمَكَارِمِ وَهُوَ الطَّامِعُ الْكَاسِي
إِنْ الْمَطَالِعُ ذَلٌّ لِلرَّقَابِ، وَلَوْ أَمْسَى أَخُوهَا مَكَانَ السَّيِّدِ الرَّاسِ
وأنشدني محمد بن اسحق الواسطي:

ألم تعلمي أنني إذا النفس أشرفت على طمع لم أنس أن أنكرما
ولست بلوم على الأمر بعد ما يفوت، ولكن عل أن أتقدما

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا الفضل بن يوسف الكوفي حدثنا عبد الله ابن جبلة الكناني عن معاوية بن عمار عن أبي جعفر قال: اليأس عما في أيدي الناس عز، ثم قال: أما سمعت قول حاتم الطائي:
إذا ما عَزَمْتَ اليأس ألفيته الغنى إذا عرفته النفس، والطَّمَعُ الْفَقْرُ

الحث على مجانبة المسألة

وكراهيتها

حدثنا أبو يزيد خالد بن النضر بن عمرو القرشي بالبصرة حدثنا عبد الواحد ابن غياث حدثنا حماد بن سلمة حدثنا هشام بن عروة عن أبيه الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لأن يأخذ أحدكم حبلأ فيأتي بحزمة حطب فيبيعهأ خيرأ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل مجانبة المسألة على الأحوال كلها، ولزوم ترك التعرض؛ لأن الأفكار في العزم على السؤال يورث المرء مهانة في نفسه، ويحطه رثوة عن مرتبته، وترك العزم على الأفكار في السؤال يورث المرء عزاً في نفسه، ويرفعه درجة عن مرتبته.

ولقد أنبأنا محمد بن المنذر حدثنا الفيض بن الخضر التميمي حدثنا عبد الله ابن خبيق قال: قال موسى بن طريف: إن الحاجة تعرض لي إلى الرجل، فيخرج عزي من قلبي قطع الحاجة من ناحيته، فيرجع عزي إلى قلبي وأنشدني الكريزي قال: أنشدنا الحسن بن أحمد لعلي بن الجهم:

هي النفس، ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعذل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التفضل

فلا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمة ولكنَّ عاراً أن يزول التَّجمل

أخبرنا زكرياء بن يحيى الساجي حدثنا عبد الواحد بن غياث خالد ابن عبد الله داود بن أبي هند عن الشعبي أن عمر بن الخطاب قال "من سأل الناس لِيُثْرَى ماله، فإنما هو رَضْفٌ من النار يُلْقَمه، فمن شاء استقلَّ، ومن شاء استكثر" أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدلال حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا أبو عباد يحيى بن عباد حدثنا عن قتادة قال: سمعت مطرّف بن عبد الله يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم عن أبيه أنه أوصى بنيه عند موته، فقال: يا بني، إياكم ومسألة الناس؛ فإنها آخرُ كسب الرجل قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يسأل الناس شيئاً فيردوه، ولا يُلحَف في المسألة فيحرموه، ويلزم التعفّف والتكرم، ولا يطلب الأمر مدبراً، ولا يتركه مقبلاً؛ لأن فَوْتَ الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها، وإن من يسأل غير المستحق حاجة حطّ لنفسه مرتبتين، ورفع المسئول فوق قدره أخبرني محمد بن المنذر حدثنا أحمد بن مؤمل المصري قال: سمعت حامد بن يحيى يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: من يسأل ندلاً حاجة فقد رفعه عن قدره أنشدني ابن زنجي البغدادي:

ذُلُّ السُّؤالِ شَجِيٌّ في الحلقِ معترض
من دونه شَرَقٌ، من خَلْفِهِ جَرَضٌ

ما ماء كَفَّكَ، إن جادت وإن بخلت
من ماء وجهي إذا أفنيتَه عَوْضٌ

وأنشدني محمد بن عبد الله المؤدب:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
عوضاً، وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته
رجح السؤال، وخفَّ كلُّ نوال

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً
فأبذله للمتكرِّم المفضل

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبي سعيد التغلبي الدمشقي حدثنا حاجب بن أبي علقمة العطاردي قال: سمعت أبي يقول: قال مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير لابن أخيه: يا بُني أخي، إذا كانت لك حاجة إليّ فأكتب بها في رُقعة، فإني أصون وجهك عن ذلِّ السؤال. وأنشدني ذلك

يا أيها المتعبُ بذلُّ السؤال
وطالب الحاجات من ذي النوال

لا تحسبنَّ الموت موت البلى
فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت، ولكنَّ ذا
أعظمُ من ذاك لذلِّ السؤال

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أعظم المصائب سوء الخلف، والمسألة من الناس والهَمُّ بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال؟ ومن عزَّت عليه نفسه صُعرت الدنيا في عينه، ولا يَنْبُلُ الرجلُ حتى يَعِفَّ عما في

أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان مَلال، ومن غيرهم ضِدُّ النَّوَالِ وأنشدني الأبرش:

إن الحريص إذا يُلحُّ يُهان
يستنقلوه، وحظه الحرمان

أنبل بنفسك أن تكون حريصة
من يُكثر التَّسأل من إخوانه

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

فزاد أبو عمرو على حزني حزنا
فبات بلا أذن، ولن يستقد قرنا

أتيت أبا عمرو أرَجِّي عطاءه
فكنت كباغي القرن أسلم أذنه

حدثنا محمد بن عثمان العقي حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي حدثنا عبد الله بن سليمان قال: كان أكنم بن صيفي يقول: السؤال - وإن قل - أثمن من النوال، وإن جلّ.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرّم عليه قدره، ويعظم عنده خطره، فكيف بمن يهون عليه رده، ولا يكرّم عليه قدره؟ وأبعد اللقاء الموت، وأشدُّ منه الحاجة إلى الناس دون السؤال، وأشدُّ منه التكلف بالسؤال؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح مقرونا لم يخلُ من أن يكون فيه ذل السؤال، وإذا الحاجة لم تُقَضَّ كان فيه ذلان موجودان: ذل السؤال، وذل الردّ. وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

لا، ولا والد، ولا مولود

لا يحسُّ الصديق منك بفقر

أو سألتَ الذي عليك وجود

ذاك ذل إذا سألتَ بخيلا

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ببغداد حدثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت المعروف بن سويد يحدث عن عبد الله قال "إن في طلب الرجل إلى أخيه فتنة، إذا أعطاه حمد غير الذي أعطاه، وإن منعه ذم غير الذي منعه".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لو لم يكن في السؤال خصلة تَدُمُّ إلا وجود التذلل في النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه لكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يَسْتَفَّ الرمل وَيَمُصَّ النَّوَى أن لا يتعرض للسؤال أبدا ما وجد إليه سبيلا، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضي حاجته أو ذا سلطان لم يُخرج في فعله ذلك، كما لم يخرج في القبول إذا أعطى من غير مسألة، ومن استغنى بالله أغناه الله، ومن تعزز بالله لم يفقره، كما أن من اعتر بالعبيد أذلة.

ولقد أنبأنا سعيد بن محمد القزاز حدثنا أبو الهيثم الرازي حدثنا خالد بن يزيد حدثنا إبراهيم بن موسى

حدثنا هشام بن يوسف عن معمر قال: قال أبو معاوية - رجل من ولد كعب بن مالك - "لقد رأيتني أنضح أول النهار وأضرب آخر النهار على بطني بالمعول في المعدن، قال: قلت: لقد لقيت مؤونة، قال: أجل إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا".

الحث على لزوم القناعة

حدثنا الحسن بن سفيان الشيباني حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الطفاوي عن الأعمش عن ابن عمر قال "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد مكثت بُرْهَةً من الدهر مُتَوَهِّمًا أن الأعمش لم يسمع هذا الخبر من ليث بن أبي سليم، فدلسته، حتى رأيت علي بن المديني حدث بهذا الخبر عن الطفاوي عن الأعمش قال: حدثني مجاهد؛ فعلمت حينئذ أن الخبر صحيح، لا شك فيه، ولا امتراء في صحته.

فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر في هذا الخبر أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا؛ إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان في الغيبة الإكثار من الثروة، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا.

ولقد أخبرني محمد بن عثمان العقبي حدثني جعفر بن سنيد بن داود حدثني أبي حدثني حجاج حدثنا عتبة بن سالم قال: قال أكتثم بن صيفي لابنه: يا بني، من لم يأس على ما فاته ودع بدنه، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه.

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

عين ذي النعمة، أنثرى أو أقل

من تمام العيش ما قرت به

لك خير من كثير في دغل

وقليل أنت مسرور به

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

فغسر يومك موصول بيسر غد

أقول للنفس: صبرا عند نائبة

وأن أرزاق هذا الخلق تحت يدي

ما سررتني أن نفسي غير قانعة

أنبأنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان الثوري عن عيسى بن عبد الرحمن عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال "أربع قد فرغ منها: الخلق، والخلق، والرزق، والأجل. وليس أحد بأكسب من أحد".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطراً القناعة، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم؛ ولو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السوء، لطلب الفضل لكان الواجب على العاقل أن لا يفارق القناعة على حالة من الأحوال.

ولقد أنبأنا عمر بن حفص بن عمرو البزاز حدثنا أبو مسعود حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدني حدثنا أبو بكر بن محمد بن المنكدر عن أبيه قال "القناعة مال لا ينفذ". سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال محمد بن حميد الأَكَّاف:

تقنع بالكفاف، تعش رَخِيًّا
ولا تبغ الفضول من الكفاف
ففي خبز الفقار بغير أدم
وفي ماء الفرات غني وكاف
وفي الثوب المرقع ما يغطّي
به من كل عُرى وانكشاف
وكل تزئين بالمرء زين
وأزينه التزين بالعفاف

وأنشدني الكريزي:

لعمرك ما طول التعطل ضائري
ولا كل شغل فيه للمرء منفعه
إذا كانت أرزاق في القرب والنوى
عليك سواء فاعتتم راحة الدَّعه
وإن ضقت فاصبر يُفرج الله ما ترى
ألا رُبَّ ضيق في عواقبه سعه

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

الحمد لله حمداً أبداً
لقد تزين أهل الحرص والشين
لا زينَ إلا لراضٍ في ثقله
إن القنوع لثوب العز والدين

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يعلم أن الإنسان لم يوضع على قدر الأحطاء: وأن من عدم القناعة لم يزد المَال غنى، فتمكّن المرء بالمال القليل مع قلة أهمّهنّ من الكثير ذي التَّبعة، والعاقل ينتقم من الحرص بالقنوع، كما ينتصر من العدو بالقصاص؛ لأن السبب المانع رزق العاقل هو السبب الجالب رزق الجاهل.

وأنشدني محمد بن سعيد القرزاز، أنشدنا محمد بن خلف التيمي، أنشدني رجل من خزاعة:

رأيت الغني والفقيرَ حَظَّينَ قُسمَا
فأحرم مُحْتال وذو العِي كاسب
فهذا مُلِحٌ دائِبٌ غيرُ رابح
وهذا مُريحٌ رابِحٌ غيرُ دائِب

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إذا المرء لم يقنع بعيش، فإنه
وإن كان ذا مال من الفقر مُوقرُ
إذا كان فضل الناس يُغنيك بينهم
فأنت بفضل الله أغنى وأيسرُ

أخبرنا أحمد بن سعيد القيسي حدثنا محمد بن الوليد بن أبان حدثنا نعيم بن حماد قال: سمعت ابن المبارك يقول: مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: القناعة تكون بالقلب: فمن غنى قلبه غنيت يداه، ومن افتقر لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخط، وعاش آمناً مطمئناً. ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائد نهاية لرغبته، والجد والحرمان كأهما يصطرعان بين العباد.
ولقد أحسن الذي يقول:

فما كل ما حاز الفتى من تلاده
بكيس، ولا ما فاتته بتوانٍ
فأجملُ إذا طالبت أمراً فإنه
سيكفيك جَدَّان يصطرعان

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمي عن المدني قال: كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء.
وأنشدني عمرو بن محمد أنشدنا الغلابي أنشدنا ابن عائشة:

غنى النفس يغني النفس حتى يعفها
وإن مسّها حتى بها يضّرّ الفقر
وما شدة، فاصبر لها إن لقيتها
بدائمة إلا سيبتعها يسر

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

فيا ربّ كره جاء من حيث لم تخف
ومسرور أمر بالذي أنت خائف
أرى الناس، ما لم تبل، إخوان ظاهر
وإن تبل تنكر جُلّ ما أنت عارف

أنبأنا محمد بن عثمان العقي حدثنا إبراهيم بن مهدي الأبي حدثني محمد بن يحيى بن أبي عمر قال: سمعت سفيان بن عيينة - وذكر عنده الفضل ابن الربيع وضرباؤه - فأنشأ سفيان يقول:

كم من قويّ قويّ في قلبه
مُهذّب الرأي عنه الرزق منحرف
ومن ضعيفٍ ضعيفٍ العقل مختلطٍ
كأنه من خليج البحر يغترف

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من نازعته نفسه إلى القنوع، ثم حسد الناس على ما في أيديهم فليس ذلك لقناعة ولا لسخاوة، بل لعجز وفشل؛ فمثله كمثل حمار السوء الذي يعرج بخفة حملة، ويجزن إذا رأى العلف يؤثر به ذو القوة والحمل الثقيل، فالقانع الكريم أراح قلبه وبدنه، والشّرّ اللثيم أتعب قلبه وجسمه،

والكرام أصبر نفوسا، والثام أصبر أجسادا.
وأنشدني عمرو بن محمد أنشدنا الغلابي:

لعمرك ما الأرزاق من حيلة الفتى ولا سبب في ساحة الحيّ ثاقب
ولكنها الأرزاق تُقسَم بينهم فما لك منها غير ما أنت شارب

وأنشدني محمد بن سعيد أنشدني هلال بن العلاء الباهلي:

تجمل إذا ما الدهر أولاك غلظة فإنّ الغنى في النفس، لا في التمول
يزين لئيم القوم كثرة ماله وما زين الأقوم مثل التّجمل

حدثنا الحسين بن سفيان حدثنا عبد العزيز بن منيب حدثنا محمد بن يحيى الصائغ قال: قال الخليل بن أحمد:

إن لم يكن لك لحمٌ كفاك خلٌ وزيتُ
إن لا يكن ذا وهذا فكسرةٌ وبَيِّتُ
تظَلُّ فيه وتأوي حتى يجيئك موتُ
هذا العمري كفاف فلا يغرُّك ليتُ

أنبأنا كامل بن مكرم حدثنا محمد بن مروان البيروني حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز بن محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى "97:16 فلنحيينه حياة طيبة" قال: القناعة.

الحث على لزوم التوكل

على من ضمن الأرزاق

أنبأنا زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجي بالبصرة أنبأنا أبو الربيع الزهراني حدثنا المقرئ حدثنا حيوة بن شريح وابن لهيعة قالوا: حدثنا أبو هانئ حميد بن هاني الخولاني قال سمعت أبا عبد الرحمن الحُبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسمائة سنة" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفّل بالرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة، وما توكل أحد على الله جلّ وعلا من صحة قلبه حتى كان الله جلّ وعلا بما

تضمّن من الكفالة أوثقَ عنده بما حوته يده إلا لم يكَلِّه الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.
وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

توكل على الرحمن في كل حاجة
أردت؛ فإن الله يقضي ويقدر
متى ما يُرد ذو العرش أمراً بعبده
يُصبِّه، وما للعبد ما يتخير
وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه
وينجو بإذن الله من حيث يحذر

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أحسن الظن بمن قد عودك
كل إحسان، وسوّى أودك
إن من قد كان يكفيك الذي
كان بالأمس سيكفيك غدك

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة بعسقلان حدثنا أبو مروان الأزرق حدثنا الوليد عن ابن جابر بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال "إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله".
أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لو كان في صخرة في البحر راسية
صمّاء ملمومة مُلمن حواليتها
رزقٌ لعبد برّاه الله لا نفلقتُ
حتى تؤدّي إليه كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع مَطلبه
يوماً لسَهّل في المرقي مراقبها
حتى ينال الذي في اللوح خطّ له
إن هو أتاه، وإلا فهو آتياها

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي أنشدني محمد بن الحسين العمّي:

سل الحاجات من سيد
ليس له ستر ولا حاجب
يُعطي عطاياه إذا شاءها
من غير توقيع إلى كاتب

حدثنا محمد بن الحسين بن الخليل بنسأ القطواني حدثنا سنان حدثنا رياح القيسي قال "إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بني آدم، يحملون أرزاقهم على درجاتهم، ثم قال: أيما عبد من عبادي جعل همّه همّاً واحداً فضمنوا السموات والأرضين وبني آدم رزقه، وأيُّ عبد طلب رزقه أعطوه رزقه حيث أراد، فإن تحرّى مكاسبه بالعدل فطُيبوا له رزقه، وإن تعدى إلى الحرام فليأخذه من هواه إلى غاية درجته التي ليس فوقها، ثم حولوا بينه وبين سائر الدنيا؛ فلا يأخذن من حلالها ومن حرامها فوق الدرجة التي كتب له" قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يعلم أن الأرزاق قد فرغ منها وتضمنها العليُّ الوفي على أن يُوفرها على عباده في وقت حاجتهم إليها، والاشتغال بالسعي لما تضمن وتكفل ليس من أخلاق أهل الحزم إلا مع انطواء

صححة الضمير، على أنه وإن لم يسع في قصده أتاه رزقه من حيث لم يحتسب.
وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

لما رأيتك قاعدا مستقبلي
أيقنت أنك للهموم قرين
فأرفض لها وتعرّ عن أثوابها
إن كان عندك للقضاء يقين
هون عليك، وكن برّبك واثقا
فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في أمره
من كان يعلم أنه مضمون

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثير أنبأنا سفيان الثوري عن أبي قيس عن هذيل بن شرحبيل قال "جاء سائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفي البيت تمرّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هاك، لو لم تأتها أتتك".

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

فنحن بتوفيق الإله وأمره
عطاء بتوفيق لا يمنّ عطاؤه
على كل حال امرنا متوسّع
خبير بما تحنّي عليه الأضالع

أنبأنا محمد بن إبراهيم الشافعي حدثنا داود بن أحمد الدميّاطي حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ما اهتممت برزق قط قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعلم أن السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين مصادفته، فلا يجب أن يحزن العاقل لما يهوي وليس بكائن، ولا لما لا يهوي وهو لا محالة كائن؛ فما كان من هذه الدنيا أتى المرء من غير تعب فيه، وما كان عليه لم يدفعه بقوته، ولا يُدرك بالطلب المحروم، كما لا يُجرّم بالعقود المرزوق. ولقد أحسن الذي يقول:

ينال الغنى من ليس يسعى إلى الغنى
وما العجز يحرّمه ولا الحرص جالب
ويُحرم من يسعى له ويداوم
وما هو إلا حظوة ومقاسم

وأنشدني عمرو بن محمد الأنصاري أنشدنا الغلابي أنشدنا العتبي:

ورزق الخلق مقسوم عليهم
فلا ذو المال يُرزقه بعقل
مقاديرٌ يقدرها الجليل
ولا بالمال تقتسم العقول

أنبأنا الهيثم بن خلف الدوري - ببغداد - قال: سمعت إسحاق بن موسى الأنصاري يقول: سمعت يمان النجراني - وكان لا يدخر شيئا - يقول: مررت براهب في قاعة فلاة من الأرض، وأنا جائع، فقلت: يا

راهب، هل عندك من فضل؟ فأدلى إلى زنبلا فيه فلقٌ من خبز فأكلت منها، ورميت إليه الباقي، فقال: تزوده، قلت: أطمعني في هذا الموضع، وليس فيه إنسي، يطعمني إذا جعت ولا يكون معي شيء. وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

لا تنتهم ربك فيما قضى
وهون الأمر، وطب نفسا
لكل همٍّ فرج عاجل
يأتي على المصباح والممسى

قال أبو حاتم رضي الله عنه: التوكل هو القلب عن العلائق، برفض الخلائق، وإضافته بالافتقار إلى محول الأحوال، وقد يكون المرء موسرا في ذات الدنيا وهو متوكل صادق في توكله إذا كان العدم والوجود عنده سَيِّئِينَ لا فرق عنده بينهما، يشكر عند الوجود، ويرضى عند العدم، وقد يكون المرء لا يملك شيئاً من الدنيا بحيلة من الحيل، وهو غير متوكل إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم، فلا هو في العدم يرضى حالته، ولا عند الوجود يشكر مرتبته. وأنشدني الكريزي:

فلو كانت الدنيا تتال بفطنة
وفضل عقول نلت أعلى المراتب
ولكنما الأرزاق حظَّ وقسمة
بملك مليك، لا بحيلة طالب

وأنشدنا عمرو بن محمد الأنصاري أنشدنا الغلابي أنشدنا مهدي بن سابق:

ألا ترى الدهر لا تفنى عجائبه
والدهر يخلط ميسوراً بمعسور؟
وليس للهو إلا كل صافية
كأنها دمة من عين مهجور

أنبأنا علي بن سعيد حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا سهل بن عاصم حدثنا نافع بن خالد قال: دخلنا على رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق، فحضنا فيه وهي ساكنة، فلما فرغنا قالت رابعة: خيبة لمن يدعي حُبَّه ثم يتهمه في رزقه.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت هذا الباب بالعلل والحكايات على التقصي في كتاب "التوكل"، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

الحث على لزوم الرضا بالشدائد

والصبر عليها

أنبأنا أحمد بن علي بن المثني بالموصل، حدثنا أحمد بن جميل المروزي، حدثنا ابن المبارك أنبأنا عمر بن حبيب عن القاسم بن أبي بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"أول ما خلق الله القلم، ثم أمره فكتب ما يكون إلى يوم القيامة"
 قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فرغ منها، فمنها ما هو
 كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن ييزر بإزار
 له طرفان، أحدهما: الصبر، والآخر: الرضا، ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شدة قد صعبت
 وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثم فرج عنها السهل في أقل من لحظة.
 ولقد أنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

كم من أمر قد تضايقتُ به
 فأتاني الله منه بالفرج
 ولعبد مؤيس قربه
 قَدَّرَ اللهُ، فعاد بالنهج
 فله الحمد على ذي سرمد
 ما أضاء الصبح يوماً وبلج
 وكذلك الله ربُّ قادر
 يُصلح الأمر الذي فيه عوج
 وله الحمد على آلائه
 يستديم اليسر منه والفلج

حدثنا أبو خليفة حدثنا محمد بن كثر أنبأنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الحجاج الأزدي قال: سألتنا
 سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه "وما أخطأه لم يكن ليصيبه"
 وأنشدني الأبرش:

هَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ سَعِيهَا
 فليس ما قُدِّرَ مردود
 وارضَ بحكم الله في خلقه
 كل قضاء الله محمود

أنبأنا عبد الله بن قحطبة الطرحي حدثنا منصور بن قدامة الواسطي حدثنا محمد بن كثير عن معمر قال:
 لما حاصر الحجاج ابن الزبير بمكة جعلت الحجاره تضرب الحائط، فقبل له: لا نأمن عليك أن يصيبك
 منها حجر، فقال ابن الزبير:

هون عليك، فإن الأمور
 بكف الإله مقاديرها
 فليس بأتيك منهيا
 ولا قاصر عنك مأمورها

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان عن معسر: إن رجلا ركب
 البحر، فكسر به، فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فمكث فيها ثلاثا لا يرى أحداً، ولا يأكل طعاماً، ولا
 يشرب شراباً، فأيس من الحياة، فتمثل:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي
 وصار القار كاللبن الحليب

فأجابه مجيب يقول:

يكون وراءه فرج قريب

عسى الكربُ أمسيتَ فيه

فنظر، فإذا سفينة في البحر، فلوح لهم، فأتوه، فحملوه، وأصاب معهم خيراً، ورجع إلى أهله سالماً.
وأنشدني محمد بن جعفر الهمداني - بصور - على ساحل بحر الروم:

شف غماؤها بغير اختيال

لا تضيقنَّ في الأمرِ فقد تُك

ر، له فرجة كحلِّ العقال

ربما تكره النفوس من الأم

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

له كلُّ يومٍ في خليقته أمرٌ

عسى فرج يأتي به الله؛ إنه

له فرجاً مما ألحَّ به العُسرُ

عسى ما ترى أن لا يدوم، وأن ترى

قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

إذا أشدَّ عُسرَ فارحٍ يُسرًا

أنبأنا محمد بن صالح الطبري بالصيمرة حدثنا محمد بن عثمان العجلي قال: لما حدث شريك بحدث الأعمش عن سلمان عن ثوبان: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم، فأبيدوا خضراءهم، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء" فعسى به إلى المهدي، فبعث إلى شريك، فأتاه، فقال: حدثت بها؟ قال: قلت: نعم قال: عمرن رويتها؟ قال: عن الأعمش، قال: ويلي عليه! لو عرفت مكان قبره لأخرجته فأحرقته بالنار، قلت: إن كان لمأمونا على ما روى، قال: يا زنديق لأقتلنك، قلت: الزنديق من يشرب الخمر ويسفك الدم، قال: والله لأقتلنك، قلت: أو يكفي الله! قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلني الفضل بن الربيع، فقال: ليس لك موضع تهرب إليه؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد أمر بقتلك، قال: فخرجت إلى جبل، فخرجت يوماً أتجسس الخبر، فأقبل ملاح من بغداد، فاستقبله ملاح آخر من البصرة، فسأله: ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين، قلت: يا ملاح قُرب، فقرب.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

وللمقادير أسبابٌ وأبوابٌ

تجري المقادير إن عسراً وإن يُسرًا

إلا تفتح من مسروره باب

ما اشددت عسر، ولا انسدت مذهبه

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وغمرة كرب فرجت لكظيم

ألا رب عسر قد أتى اليسر بعده

أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الوهاب النيسابوري حدثنا بشر بن عبد الحكم عن علي بن عثمان قال: رثى إبراهيم بن آدم متنفظ الرجلين، رافعها على ميل، وهو يقول "31:47 ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبُلُو أخباركم" أنبأنا القطان بالرقعة حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا عبد العزيز بن عمير عن عطاء الأزرق عن عبد الواحد بن زيد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، من أين أتى هذا الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله، قلت: ومن أين أوتى قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: يجب على العاقل إذا كان مبتدئاً أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر، فإذا تمكن منه حيثئذ يرتقي من درجة الرضا، فإن لم يرزق صبراً فليلزم التصبر، لأنه أول مراتب الرضا، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلاً كريماً، إذ هو بذر الخير، وأساس الطاعات. ولقد اخبرني محمد بن سعيد القزاز حدثنا طاهر بن الفضل بن سعيد، حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمعت رجلاً من أهل الكتاب أسلم، قال: أوحى الله إلى داود: يا داود أصبر على المؤنة، تأتلك مني المعونة. وأنشدني عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضي:

صبراً جميلاً على ما ناب حَدَثَ والصبرُ ينفع أحياناً إذا صبروا

الصبر أفضل شيء تستعين به على الزمان إذا ما مسَّك الضرر

وأنشدني إبراهيم بن محمد بن سهل أنشدني أبو يعلي الموصلي:

إني رأيت وفي الأيام تجربةً للصبر عاقبةً محمودة الأثر

وقلَّ من جدَّ في شيء يحاوله فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أتاك الرُّوح والفرج القريب وساعدك القضاء، فلا تخيب

صبرت، فنلت عُقبَى كلِّ خير كذاك لكل مصطبر عقيب

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن علي قال: سمعت مضر أبا سعيد يقول: قال عبد الواحد بن زيد: ما أحببت أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم ودِعَامَة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا

حيلة له .

وأول درجته الاهتمام، ثم التيقظ، ثم الثبوت، ثم التصبر "ثم الصبر" ثم الرضا، وهو النهاية في الحالات .
ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبي حدثنا شعيب بن عبد الله البزار حدثنا غيلان عن معبد عن أبي المليح
عن ميمون بن مهران قال "ما نال عبد شيئاً من جسم الخير من نبي أو غيره إلا بالصبر".
وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

فما شدة يوماً، وإن جَلَّ خطبها،

بنازلة إلا سيبعتها يسرُ

وإن عسرت يوماً على المرء حاجةً

وضاقت عليه كان مفتاحها الصبر

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

تعزَّ، فإن الصبر بالحرِّ أجمل

وليس على ريب الزمان مُعَوَّلُ

فإن تكن الأيام فينا تبدَّلت

بنُعمى وبؤسى، والحوادث تفعل

فما لئنت منا فناةً صليبة

ولا ذللتنا لذي ليس يجمل

ولكن رحلناها نفوساً كريمة

تُحمل ما لا تستطيع فتحمل

وأنشدنا عمرو بن محمد الأنصاري أنشدنا الغلابي:

إني رأيت الخير في الصبر مسرعاً

وحسبك من صبر تحوز به أجراً

عليك بتقوى الله في كل حالة

فإنك إن تفعل تُصيب به ذخراً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الصبر على ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي، والصبر على الطاعات،
والصبر عند الشدائد المصيبات.

فأفضلها الصبر عن المعاصي.

فالعاقل يدبر أحواله بالثبوت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب التي وصفناها قبل،
حتى يرتقي بها إلى درجة الرضا عن الله جل وعلا في حال العسر واليسر معاً، أسأل الله الوصول إلى تلك
الدرجة بمنه .

وأنشدني عبد الله بن الأحوض:

تَعَزَّ بحسن الصبر عن كل هالك

ففي الصبر مسألةُ الهموم اللوازم

إذا أنت لم تسلُ اضطباراً وخشية

سلوت على الأيام مثل البهائم

وليس يزود النفس عن شهواتها

من الناس إلا كلُّ ماضي العزائم

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

غاية الصبر لذيذ طعمها
وَبَدِي الصبر منه كالصَّبْرِ
إن في الصبر لفضلاً بيننا
فاحمل النفس عليه تصطبر

وأنشدني الكريزي:

صبرت ومن يصبرُ يجدُ غِبَّ صبره
ألذُّ وأحلى من جَنَى النحل في الفم
ومن لا يطب نفساً، ويستبق صاحباً
ويغفر لأهل الود يُضرمَ وَيَصْرِمُ

أبأننا محمد بن زنجويه القشيري حدثنا عبد الأعلى عن حماد النرسي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن معاذة امرأة صلة بن أشيم قالت: "لما أتاه نعى زوجها وابنها جاءها النساء، فقالت: إن كنتن جئتن لتهنئتنا بما أكرمنا الله به وإلا فارجعن".

قال ثابت: وكان صلة يأكل يوماً فأتاه رجل، فقال: مات أخوك، قال: هيهات، قد نعى إلي، أجلس فكل، قال الرجل: ما سبقني إليك أحد، فقال قال الله "30:39 إنك ميت وإنهم ميتون".

حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا ابن عائشة قال: كتب بعض الحكماء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له محمد:

أصبر لكل مصيبة، وتجلد
واعلم بأن المرء غير مُخلد
وإذا ذكرت محمداً ومصائبه
فاذكر مصابك بالنبى محمد

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

يعزِّي المعزي، ثم يمضي لشأنه
ويؤمى المعزّي بعد ذلك بسلوّة
ويبقى المعزّي في أحرّ من الجمر
ويؤنوي المعزّي عنه في وحشة القبر

وأنشدني المنتصر بن بلال:

من يسبق السلوة بالصبر
فاز بفضل الحمد والأجر
يا عجبى من هلع جازع
يُصَبِّحُ بين الذم والوزر
مصيبة الإنسان في دينه
أعظم من جائحة الدهر

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تجري المقادير إن عُسراً وإن يسراً
والعسر عن قدرٍ يجري إلى يُسرٍ
حاذرت واقعها أو لم تكن حذراً
والصبر أفضل شيء وافق الظفرا

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طيب القراء، وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم، فقال لي: دخلت يوماً على أحمد بن حنبل، فإذا هو مغموماً مكروب، فقلت: مالك يا أبا عبد الله؟ قال: خير، قلت: وما الخير؟ قال: امتُحنت بتلك المحنة، حتى ضُربت، ثم عالجوني وبرأت، إلا أنه بقي في صُلبي موضع يُوجعي. هو أشدُّ عليّ من ذلك الضرب، قال قلت: أكشف لي عن صلبك، قال: فكشف لي، فلم أرَ فيه إلا أثر الضرب فقط، فقلت: ليس لي بذي معرفة، ولكن سأستخبر عن هذا، قال: فخرجت من عنده، حتى أتيت صاحب الحبس، وكان بيني وبينه فضل معرفة، فقلت له: أدخل الحبس في حاجة؟ قال: أدخل، فدخلت وجمعت فتياهم، وكان معي دريهمات فرققتها عليهم، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي، ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً، وأشدهم صبراً، قال قلت له: أسألك عن شيء؟ فقال: هات، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع للقتيل سياطاً يسيرة، إلا أنه لم يمت، وعالجوه وبرأ، إلا أن موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر، قال: فضحك، فقلت مالك؟ قال: الذي عالجوه كان حائكاً، قلت: إيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يُبَطُّ صلبه، وتؤخذ تلك القطعة ويرمي بها، وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته، قال: فخرجت من الحبس، فدخلت على أحمد ابن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطنه؟ قلت أنا، قال: أو تفعل؟ قلت: نعم، قال: فقام، فدخل البيت، ثم خرج ويده مخدتان، وعلى كتفه فوطة، فوضع إحدهما لي والأخرى له، ثم قعد عليها، وقال: استخر الله، فكشفت الفوطة عن صلبه، وقلت: أرنى موضع الوجع، فقال: ضَعُ إصبعك عليه، فإني أخبرك به، فوضعت إصبعي، وقلت: هاهنا موضع الوجع؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية، فقلت: ههنا؟ قال هاهنا أحمد الله على العافية، فقلت: هاهنا؟ قال هاهنا أسأل الله العافية، قال: فعلمت أنه موضع الوجع، قال: فوضعت الموضع عليه، فلما أحس بحرارة الموضع وضد يده على رأسه، وجعل يقول: اللهم أغفر للمعتصم، حتى بططته، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها، وشدت العصابة عليه، وهو لا يزيد على قوله: اللهم أغفر للمعتصم، قال: ثم هدأ وسكن، ثم قال: كأني كنت معلقاً فأصدرت، قلت: يا أبا عبد الله، إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم، ورأيتك تدعو للمعتصم؟ قال: إني أفكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكرهت أن آتي يوم القيامة وبينى وبين أحد من قرابته خصومة. هو مِنِّي في حلِّ.

الحث على العفو عن الجاني

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي بالبصرة حدثنا القعني حدثنا عبد العزيز ابن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال "أتى رجل فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعون، ويسئون إلي، وأحسن إليهم، ويجهلون علي، واحلم عنهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن كان كما تقول: فكأنما تسفهم المل. ولا يزال من الله معك ظهير ما زالت على ذلك".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

سألزُمُ نفسي الصّـفح عن كلّ مذنب
وإن كثرت منه إليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة:
شريف، ومشروف، وممثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي: فأعرف فضله
وأتبع فيه الحقّ، والحقُّ لازم
وأما الذي دوني: فإن قال صنت عن
إجابته عرضي، وإن لام لائم
وأما الذي مثلي: فإن زلَّ أو هفا
تفضّلتُ، إن الحلم للفضل حاكم

أنبأنا محمد بن عثمان العقي حدثنا محمد بن عامر الأنطاكي حدثنا ابن توبة حدثنا محمد بن مهاجر عن يونس بن ميسرة جليس قال: ثلاثة يحبهم الله: من كره سوءاً يأتيه إلى أخيه وصاحبه، فذلك قَمِنٌ أن يستحي من الله، ومن كان ذا رفعة من الناس فتواضع الله، فذلك الذي عرف عظمة الله، فيخاف مقتته، ومن كان عفوه قريباً من إساءته، فذلك تقوم به الدنيا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من أراد الثواب الجزيل، واسترهانَ الوُدَّ الأصيل، وتوقعَ لذكر الجميل؛ فليتحمل من ورودِ ثَقَلِ الردى، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى، باستعمال السُّنة التي ذكرناها في الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم؛ لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا.

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا ابن أبي شيبة حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون عن داود بن الزبير قال: أيوب "لا يَنْبُلُ الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم".

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وإذا مذنب أتاه به الحق
فغطاه عفوه في ستوره

من خَفِيَ الأمور، أو مشهوره

ومن الفائزين يوم نشوره

ه لزين الدنيا ويوم كروره

راجياً للثواب في كل زُرءٍ

فهو في عاجل الحياة كريم

خَصَلَّة جَزَلَّة بها خَصَّه الل

أنبأنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا عمر بن حفص الشيباني حدثنا سفيان عن رجل، قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول "أحب الأمور إلى الله ثلاثة: العفو في القدرة، والقصد في الجدّة، والرفق في العبادة، وما رَفَقَ أحدٌ بأحدٍ في الدنيا إلا رَفَقَ الله به يوم القيامة" أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا ابن عائشة قال: كتب الحجاج إلى عبد الملك "إنك أعزّ ما تكون أحوجّ ما تكون إلى الله، فإذا تعززت بالله فاعفُ، فأنتك به تعز، وإليه ترجع".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالم بأسرهم، رجاء عفو الله جل وعلا عن جنائياته التي ارتكبتها في سالف أيامه؛ لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء، وصاحب العقاب وإن انتقم إلى الندم أقرب، فأما من له أخ يُوَدُّه فإنه يحتمل عنه الدهر كله زلاته.

ولقد أخبرني محمد بن المنذر حدثنا أحمد بن داود التمار. قال: سمعت مردويه الصائغ يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: لأخيك إلى سبعين زلّة، قيل له: وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال: لأن الأخ الذي آخيته في الله ليس يزيل سبعين زلة. أنشدني علي بن محمد البسامي:

فلستَ غداً من عثرتي متجاوزاً

إذا كان عن مولاك برّك عاجزاً

إذا لم تجاوزْ عن أخ لك عثرةً

وكيف يرجيك البعيدُ لنفعه

أنبأنا محمد بن صالح الطبري حدثنا الرمادي حدثنا الجعفي يحيى بن سليمان حدثنا ابن أبحر حدثني أبي قال: "أقبل الشعبي يوماً، فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير، قال: فاستمع عليهما، فإذا هما يقعان فيه ويشتمان، وينتقصانه حتى أكثرا، فلما أطالا أشرف عليهما الشعبي، فقال:

لعزة من أعراضنا ما استحلّت

وضميرُهُ من حرّه يتأوه

حدّرَ الجواب وإنه لمفوه

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر

فقالا: والله يا أبا عمرو، لا نَقَعُ فيك بعد اليوم".

وأنشدني بعض أهل العلم:

ولربما ابتسم الوقورُ من الأذى

ولربما خزنَ الحليم لسانه

وأنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم، أنبأنا عبد الله بن الحسين المصيبي، أنبأنا يعقوب بن أبي عباد، قال:
 قال الفضيل بن عياض: مَنْ طلب أخاً بلا عيب بقي بلا أخ.
 قال أبو حاتم رضي الله عنه: أغنى الناس عن الحقد مَنْ عظم عن المجازاة، وأجلُّ الناس مرتبة من صدَّ الجهل
 بالحلم، وما الفضل إلا لمن يحسن إلى من أساء إليه، فأما مجازاة الإحسان إحساناً فهو المساواة في الأخلاق،
 فربما استعملها البهائم في الأوقات، ولو لم يكن في الصبح وترك الإساءة خصلة نحمد إلا راحة النفس
 ووداع القلب لكان الواجب على العاقل أن لا يكدرَّ وقته بالدخول في أخلاق البهائم، بالمجازاة على
 الإساءة إساءة، ومن جازى بالإساءة إساءة فهو المسيء، وإن لم يكن بادئاً.
 كما أنشدني الكريزي:

أسأت، وأنكرتُ أني أسأتُ
 فأفضل، ولاتك عينَ المُسي
 لك، الفضل بالعفو عما عفوت
 وإلا فأنت القرين السوي
 وعفوك مقتدرًا نعمة
 وعفو المندد غير الهني

سمعت محمد بن عثمان العقبي، قال: سمعت هلال بن العلاء الباهلي يقول: جعلت على نفسي منذ أكثر
 من عشرين سنة أن لا أكافئ أحدا بسوء، وذهبتُ إلى هذه الأبيات:

لما عفوت، ولم أحقد على أحدٍ
 أرحتُ قلبي من عمِّ العداواتِ
 إني أحبي عدوي عند رؤيته
 لأدفع الشر عني بالتحيات
 وأظهر البشر للإنسان أبغضه
 كأنما قد حشى قلبي محبات

أنبأنا ابن قتيبة، حدثنا ابن أبي السري، قال: سمعت أبا عمر الصنعاني يقول: حدثنا زيد بن أسلم قال: قال
 لقمان لابنه "كذب من قال: إن الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقا فليوقد ناراً إلى جنب نار، فلينظر هل
 تطفئ إحدهما الأخرى؟ وإلا فإن الخير يطفئ الشر، كما يطفئ الماء النار".

حدثني محمد بن أبي علي الخلابي، حدثنا محمد بن خلف البسامي، حدثنا محمد بن عبيد الله الداري،
 حدثنا محمد بن عمران الضبي، قال: قال ابن السماك: لَنْ لِمَنْ يَجْفُو، فَقَلَّ مَنْ يَصْفُو.
 وأنشدني الأبرش:

توخَّ من السبل أوساطها
 وعدَّ عن الحائر المشتبه
 وسمعك صن عن سماع القبيح
 كصون اللسان عن النطق به
 فإنك عند استماع القبيح
 شريك لقائله، فانته

فكم أزعج الحرص من طالب

فوافي المنية في مطلبه

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بجند يسابور، حدثنا جعفر بن محمد حبيب الذارع حدثنا عبد الله بن رشيد، حدثنا جماعة بن الزبير، قال: قال لقمان لابنه "أي بني، أي شيء أقل؟ وأي شيء أكثر؟ وأي شيء أحلى؟ وأي شيء أبرد؟ وأي شيء أنس؟ وأي شيء أوحش؟ وأي شيء أقرب؟ وأي شيء أبعد؟ قال: أما أقل شيء فاليقين، وأما أي شيء أكثر فالشك، وأما أي شيء أحلى فروح الله بين العباد يتحابون بها، وأما أي شيء أبرد فغفو الله عن عباده، وعفو الناس بعضهم عن بعض، وأي شيء أنس حبيبك إذا أغلق عليك وعليه باب واحد، وأي شيء أوحش جسد إذا مات، فليس شيء أوحش منه، وأي شيء أقرب فالآخرة من الدنيا، وأي شيء أبعد فالدنيا من الآخرة".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يحسن عند الجفوة، ويغضي عن المجازاة عليها. يمثلها.

وقد قيل: إن من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة.

وهو عندي - والله أعلم - غضب لا يخرج به إلى المعاصي: ولا إلى الانتقام من الجاني، كأنه في نفسه يعلم محل الجفوة منه، كما يعقل ورود النعمة عليه، وما أقبح قدرة اللئيم إذا قدر، ومن أساء سمعاً أساء إجابة، ومن أتى المكروه إلى أحد فبنفسه بدأ؛ لأن الشرور تبدو صغاراً ثم تعود كباراً.

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا محمد بن إدريس الرازي، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى وإسماعيل بن عبيد الله المخزومي، قالوا حدثنا عبد الأعلى ابن مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول لبنيه: "يا بني أكرموا من أكرمكم، وإن كان عبداً حبشياً، وأهينوا من أهانكم، وإن كان رجلاً قرشياً".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا الذي قال إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر: إن استعمله العاقل في الأحوال كلها مع الجاهل فلا ضير، فأما من ارتفع عن حد الجهال، واتضع عن حد العقلاء، فالإغضاء عن مثله في الأوقات أحمد مخافة الازدياد منه، ولأن يصير المرء على حرارة الجفاء ومرارتها أولى من الانتقام مما يستجلب عليه بما هو أحر وأمرّ مما مضى؛ لأن من الكلام ما هو أشد من الحجر، وأنفذ من الإبر، وأمرّ من الصبر.

ولقد أحسن الذي يقول:

تذكرني النفس قلبي تصدّع

لقد أسمع القول الذي كاد كلما

كأنني مسرور بما منه أسمع

فأبدي لمن أبداه مني بشاشة

أرى أن ترك الشر للشر أقطع

وما ذاك عن عجز به، غير أنني

أنبأنا محمد بن صالح الطبري بالصيمرة، حدثنا أحمد بن مقدم العجلي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي عمرو في هذه الآية "7:199 خذ العفو وأمر بالعرف" قال: "أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عن أخلاق الناس".

صفة الكريم واللتيم

أنبأنا محمد بن الحسن بن الخليل بنسا، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة ابن سليمان عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال "قيل يا رسول الله، أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقهوا".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أكرم الناس من اتقى الله، والكريم التقي.

والتقوى: عي العزم على إتيان المأمورات، والأنزجار عن جميع المزجورات فمن صح عزمه على هاتين الخصلتين فهو التقي الذي يستحق اسم الكرم، ومن تعرى عن استعمالهما، أو أحدهما، أو شعبة من شعبهما، فقد نقص من كرمه مثله.

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا عيسى بن محمد بن سهل الأزدي عن أبيه عن المدائني، قال: قال زيد بن ثابت "ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم: حسن المحضر، واحتمال الزلة، وقلة الملامة" وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

لصاحبه وينكره اللتيم

رأيت الحق يعرفه الكريم

فكل فعاله حسن كريم

إذا كان الفتى حسناً كريماً

فكل فعاله سمج لتيم

إذا ألفتته سمجاً لتيماً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم لا يكون حقوداً ولا حسوداً، ولا شامتاً، ولا باغياً، ولا ساهياً، ولا لاهياً، ولا فاجراً، ولا فخوراً، ولا كاذباً، ولا ملولاً، ولا يقطع إلفه، ولا يؤذي إخوانه، ولا يضيع الحفاظ، ولا يجفو في الوداد، يعطي من يرجو، ويؤمن من لا يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة. أخبرني محمد بن أبي علي الخلاصي، حدثنا محمد بن الحسن الذهلي عن علي بن محمد المرحبي عن محمد بن إبراهيم العباسي عن عبد الله بن الحجاج - مولي المهدي - عن إبراهيم بن شكلة، قال "إن لكل شيء

حياة وموتا، وإن مما يجيي الكرم مواصلة الكرماء، ومما يجيي اللؤم معاشره اللئام".
وأنشدني الكريزي:

وما بال قوم لئام ليس عندهم عهد، وليس لهم دين إذا اتتمنوا
إن يسمعوا ربيبة طاروا بها فرحاً منا، وما سمعوا من صالح دفنوا
صمٌ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسوا إذا أطف، والكريم يُجل الكرام، ولأ يهين اللئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثراً إخوانه على نفسه باذلاً لهم ما ملك، إذا أطلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتهما، وإذا عرف منه مودة لم ينظر في قلق العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطع به شيء من الأشياء.

كما أنشدني الخلامي، أنشدنا أحمد بن أبي علي القاضي، قال: أنشدنا محمد بن مقيس الأزدي:

فإن الذي ببني وبين عشيرتي وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا قدحوا لي نار حرب بزندهم قدحت لهم في كل مكرمة زندا
وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وأعطيهم مالي إذا كنت واجدا وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا

أنبأنا ابن حوصا، حدثنا النحاسي حدثنا ضمرة عن إبراهيم بن أبي علي قال: رأيت سالم بن عبد الله ومحمد بن عبد العزيز يتسايران بأرض الروم، فأبال أحدهما دابته، فأمسك عليه الآخر حتى لحقه.
أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا أحمد بن أبي بكر بن خالد اليزيدي عن قطبة ابن العلاء بن المنهال، قال: سمعت المبارك بن سعيد يقول: سمعت الأعمش يقول: قال الشعبي "إن كرام الناس أسرعهم مودة، وأبطؤهم عداوة، مثل الكوب من الفضة يبطئ الانكسار، ويسرع الانجبار، وإن لئام الناس أبطؤهم مودة، وأسرعهم عداوة، مثل الكوب من الفخار: يسرع الانكسار، ويبطئ الانجبار" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم من أعطاه شكره، ومن منعه عذره، ومن قطعه وصله، ومن وصله فضله، ومن سأله أعطاه، ومن لم يسأله ابتدأه، وإذا استضعف أحداً رحمه، وإذا استضعفه أحد رأى الموت أكرم له منه، واللئيم بضد ما وصفنا من الخصال كلها.

ولقد أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلي، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا يحيى بن أيوب عن أبي عيسى قال: كان إبراهيم ابن أدهم كريم النفس، يخالط الناس بأخلاقهم ويأكل

معهم، قال: فرمما أتخذ لهم الشواء والجوازات والخبيص، وربما خلا وأصحابه الذين يأنس بهم فيتصارعون، قال: وكان يعمل عمل رجلين، وكان إذا صار إلى نفسه أكل عجينا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أجمع أهل التجارب للدهر، وأهل الفضل في الدين، والراغبون في الجميل: على أن أفضل ما أقتنى الرجل لنفسه في الدنيا، وأجل ما يدخر لها في العقبى هو لزوم الكرم، ومعاشرة الكرام؛ لأن الكرم يحسن الذكر، ويشرف القدر، وهو طباع ركبها الله في بني آدم، فمن الناس من يكون أكرم من أبيه، وربما كان الأب أكرم من أبنه، وربما كان المملوك أكرم من مولاه، ورب مولى أكرم من مملوكه.

ولقد أحسن الذي يقول:

رب مملوك إذا كشفته	كان من مولاه أولى بالكرم
فهو ممدوح على أحواله	وترى مولاه يهجي ويذم
وتراه كيف يعطو دائماً؟	وترى مولاه من تحت القدم
وفتى تلقى أباه دونه	وأباً تلقاه أعلى وأتم
من بنيه، ثم لا يعتل إن	طلب المعروف منه بالصمم
وكذاك الناس	فاعلم ربنا قدر الأخلاق فيهم وقسم

وأنشدني الأبرش:

رأيت اللين لا يرضى بضيم	لأن الضيم يسخطه الكريم
وإن اللين أكرم كل شيء	فليس يحبه خلق لنيم
فإن نزل الأذى واللين قلبا	فإن اللين يرحل لا يقيم
ويبقى للأذى في القلب صحب	من البغضاء يلبث لا يريم

حدثنا القطان بالرقعة، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبي يقول: ما من أحد إلا وله توبة، إلا سيئ الخلق؛ فإنه لا يتوب من ذنب إلا دخل في شر منه.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكريم محمود الأثر في الدنيا، مرضى العمل في العقبى، يحبه القريب والقاصي، ويألفه المتسخط والراضي، يفارقه الأعداء واللثام، ويصحبه العقلاء والكرام.

وما رأيت شيئاً أكثر عملاً في نقص كرم الكريم من الفقر، سواء كان ذلك بالقلب أو بالموجود.

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

لعمرك، إن المال قد يجعل الفنى
نسيباً، وإن الفقر بالمرء قد يُزري
ولا رَفَعَ النفسَ الدنيَّةَ كالغنى
ولا وضع النفسَ الكريمة كالفقر

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن زكريا بن أبي زائدة عن علي بن الأقرم عن أبي جحيفة قال: "جالسوا الكبراء، وخالطوا الحكماء، وسائلوا العلماء".

الزجر عن قبول قول الوُشاة

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون حدثنا واصل الأحذب عن أبي وائل عن حذيفة "إنه بلغه أن رجلاً يَنُمُّ الحديثَ، فقال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا يدخل الجنة نَمَّام".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على الناس كافة: مجانبة الأفكار في السبب الذي يؤدي إلى البغضاء والمشاحنة بين الناس، والسعي فيما يفرق جمعهم ويشتت شملهم، والعقل لا يخوض في الأفكار فيما ذكرنا، ولا يقبل سعاية الواشي بحيلة من الحيل، لعلمه بما يرتكب الواشي من الإثم في العقبى يفعل ذلك. ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد عن أبيه عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه "يا بني، إياك والنميمة، فإنها أحد من السيف". وأنشدني الكريزي:

من نَمَّ في الناس لم تؤمن عقاربه
على الصديق، ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل، لا يدري به أحد
من أين جاء، ولا من أين يأتيه؟
فالويل للعهد منه، كيف ينقضه؟
والويل للود منه، كيف يفتيه؟

أخبرنا أحمد بن إسحاق الناقد بواسط، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال "لما تعجل موسى ابن عمران إلى ربه رأى رجلاً تحت العرش، فغبطه بمكانه، فسأل ربه أن يخبره باسمه، قال: لكنني أخبرك من عمله بثلاث خصال: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة" أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن يعقوب الربيعي، حدثنا محمد بن إدريس المعدل عن العتيبي قال "سمعت أعرابية توصي ابناً لها، فقالت: عليك بحفظ السرِّ، وإياك والنميمة، فإنها لا تترك إلا أفسدتها، ولا ضغينة غلا أوقدتها". ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إلى مقارفتها من أن يُحترس من مجالسته، وأن لا يوثق بمودته، وأن يزهد في مواصلته ومعاشرته.

ولذلك يقول أخو ربيعة:

تمشيتَ فينا بالنميمة، وإنما
وما زلت منسوباً إلى كل آفة
تُفرّق بين الأصفياء النمائِ
وما زال منسوباً إليك الملائم
لأنك لم تتدم لشراً فعلته
وما تأت من خير فإنك نادم

أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمي، حدثنا علي بن محمد المدائني قال "وشي واش بعبد الله بن همام السلولي إلى زياد، قال: فبعث زياد إلى ابن همام، فجاء فأدخل الرجل بيتاً، فقال له زياد: يا ابن همام. بلغني أنك هجوتني، فقال له: أصلحك الله! ما فعلتُ، وما أنت، لذلك أهل، قال: فإن هذا أخبرني - وأخرج الرجل - فأطرق ابن همام هنيهة، ثم أقبل على الرجل، فقال:

وأنت امرؤ: إما ائتمنتك خالياً
فأنت من الأمر الذي كان بيننا
فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم
بمنزلة بين الخيانة والإثم

قال: فأعجب زيادة بجوابه، وأدناه، وأقصى الساعي، ولم يقبل منه.

وأشددني ابن زنجي البغدادي:

يمشون في الناس يبيغون العيوبَ لمن
إِن يعلموا الخيرَ يخفوه، وإن علموا
لا عيب فيه، لكي يستشرفَ العطب
شراً أذاعوا، وإن يعلموا كذبوا

أخبرني محمد بن أبي علي، حدثنا ابن أبي شيبه أبو جعفر، حدثنا الحسن بن صالح قال: سمعت حُجين بن المتثنى يقول "سعى رجل بالليث بن سعد إلى والي مصر، فبعث إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا الحارث، إن هذا أبلغني عنك كذا وكذا، فقال له الليث: سله - أصلح الله الأمير! - عما أبلغك: أهو شيء ائتمناه عليه فخاننا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من خائن، أو شيء كذب علينا فيه، فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب؟ فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث" أخبرنا ابن حوصا، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن عن ابن أبي عُليّة عن أبيه عن عمه إبراهيم بن أبي عبلة قال: "كنت جالساً مع أم الدرداء، فاتها آت، فقال: يا أم الدرداء، إن رجلاً نال منك عند عبد الملك بن مروان، فقالت: إن نؤبِن بما ليس فينا فطالما زُكِّينا بما ليس فينا" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الإغضاء عما ينقل الوشاة وصرف جميعها إلى الإحسان، وترك الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل، مع ترك الأفكار فيما يُزري بالعقل، لأن من وشى بالشيء إلى إنسان بعينه يكون قصده إلى المخبر أكثر من قصده إلى المخبر به،

لمشافهته إياه بالشيء الذي يَشُقُّ عليه علمه وسماعه".
ولقد أحسن الذي يقول:

من يُخْبِرَكَ بشتم عن أخ فهو الشاتم، لا من شَتَمَكَ
ذاك شيء لم يشافهك به إنما اللوم على من أعلمك
كيف لم ينصرك؟ إن كان أخا ذا وفاء عند من قد ظلمك
إنما رام بإبلاغ الذي نمَّ فيه فاعلمن أن يُرغمك
فأهنه، إنه من لؤمه إن تُهنه بهوان أكرمك
لكن الحرُّ إذا أكرمته لم يُصغرك، ولكن فخمك

أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن عبد الله السويدي قال: سمعت العباس ابن ميمون يقول: شيع المأمون الحسن بن سهل ذا الوزارتين، فلما بلغا غاية التشيع، قال له المأمون: يا حسن، ألك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تحفظ عليّ من قلبك ما لا أستطيع إدراكه الإبك، ويكون بيني وبينك قول كثير عزة:

وكوني على الواشين لَدَاءَ شَغْبَةٍ كما أنا للواشي ألدُّ شَغُوب

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا محمد بن خزيمه البصري حدثنا حذيفة حدثنا عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير قال: "الذي يعمله النمام في ساعة لا يعمله الساحر في شهر"
أخبرنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا محمد بن الحسن الهلالي حدثنا أبو عوانة البصري، حدثنا داود بن شبيب، حدثنا حماد بن سلمة قال: "باع رجل من رجل غلاماً له، وقال: أبرأ إليك من النميمة، فاشتره على ذلك، ف جاء إلى مولاته، فقال: إن زوجك ليس يحبك، وهو يتسرّى عليك ويتزوج، أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم، قال: خذي موسى فاحلقي به شعرات من باطن لحيته وبخره بها، وجاء إلى الرجل، فقال: إن امرأتك تبغي، وتصادق، وهي قاتلتك، أفتريد أن يبين لك ذلك؟ قال: نعم، قال تناوم لها، قال: فتناوم لها، فجاءت بموسى تحلق الشعر، فأخذها فقتلها، فأخذه أولياؤها فقتلوه" قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا وأمثاله من ثمرة النميمة؛ لأنها تهتك الأستار وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة وتهيج الحقد، وتزيد الصد، فمن وشي إليه عن أخ كان الواجب عليه معاتبته على الهفوة إن كانت، وقبول الذعر إذا اعتذر، وترك الإكثار من العتب، مع توطين النفس على الشكر عند الحفاظ، وعلى الصبر عند الضياع، وعلى المعاتبه عند الإساءة.
وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

وإذا أساء فكافه بعتابه
فتوقَّ ظاهر عيبه وسبابه
وأجب أخاك إذا دعا بجوابه

كاف الخليل على المودة مثلها
وإذا عتبت على امرئ أحببته
وألن جناحك ما استلان لوده

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

ولست لهم بعد العتاب بقاطع
إذا ما أتاها كارهاً غير طائع
وما أنا من جهل الجهول بجازع

أعائب إخواني، وأبقى عليهم
وأغفر ذنب المرء إن زلَّ زلة
وأجزع من لوم الحليم وعذله

أخبرني محمد بن علي الخلاصي، أخبرني محمد بن يزيد النحوي عن العتي عن أبيه قال: عتب ابن الزبير على معاوية في شيء، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين: أسمع أبياتاً أعتبتك فيها، قال: هات، فأنشده:

على أيّنا تعدو المنية أول
كثيراً لذو صفح على ذلك مُجمل
على طَرْف الهجران لو كان يعقل

لعمرك ما أدري، وإني لأوجل
وإني على أشياء منك تربييني
إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، فدخل عليه معن بن أوس المزني بعد ذلك، فقال له معاوية: هل أحدثت بعدنا شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشده: - لعمرك ما ادري وإني لأوجل - فقال: عليّ بابن الزبير، فقال: أليس هذا لك فيما زعمت؟ قال: أنا ألقت المعنى، وهو ألف القوافي، وهو بعدُ ظُئري، ومهما قال من شيء فأنا قتله، فضحك معاوية، وكان معن بن أوس مسترضعاً في مزيّنة.

سمعت الحسين بن إسحاق الأصفهاني يقول: كتب علي بن حجر السعدي إلى بعض إخوانه:

أجلُّك عن عتابٍ في كتاب
شفيتُ غليلَ صدري من عتابي
فكم من عاتب تحت التراب

أحنُّ إلى عتابك، غير أنني
ونحن إذا التقينا قبل موت
وإن سبقت بنا أيدي المنايا

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

ستتشر يوماً، والعتاب يطولُ
وسوف يؤديه إليك رسول
وإن نجتمع يوماً فسوف أقول

صحائف عندي للعتاب طويتها
كتاب لعمري لا بنانٌ يخطّه
سأكتب إن لم يجمع الله بيننا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن لا يقصر عن معاتبة أخيه على زلته، لأن من لم يعاتب على الزلة لم يكن بحافظ لخلّة، ومن أعتب لم يذنب، كما أن من اغتفر لم يعاقب، وظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد، ورُبَّ عَتَبٍ أنفع من صفح؛ ولذلك أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

إذا ما أمرؤ ساءتكَ منه خليقةً فكاتمته، فالوهنَ في ذاك تركبُ
لعلك لو عاتبته، ثم لُمته لسرك، حتى لم تكن تتعتبُ

وأنشدني الكريزي:

فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً وحق لها العتبي لدينا وقلتِ
وإن تكن الأخرى، فإن وراءنا مفاوز لو سارت بها العيس كلتِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب على العاقل أن يناقش على تصحيح الأعتاب بالإكثار مخافة أن يعود المعاتب إلى ما عوتب عليه؛ لأن من عاتب على كل ذنب أخاه، فحقيق أن يملّه ويقلاه، وإن من سوء الأدب كثرة العتاب. كما أن من أعظم الجفاء ترك العتاب، والإكثار في المعاتبة بقطع الود، ويورث الصد ولقد أنشدني عبد الله بن أحمد النقيب البغدادي لابن المعتز:

معاتبة الإلفين تحسنُ مرّة فإن أكثروا إيمانها أفسد الحبّاً
إذا شئتَ أن تُقلّي فزر مُتتابعاً وإن شئتَ أن نزداد حبّاً فزر غبّاً

وأنشدني محمد بن أبي علي الصيدأوي:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً خليلك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعرش واحداً، أو صلّ أخاك فإنه مقارف ذنب مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمّنت، وأي الناس تصفو مشاربه؟

أخبرنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن الحسن الذهلي عن أبي السائب قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لا تكثر العتاب، فإن العتاب يورث الضغينة والبغضة، وكثرته من سوء الأدب" قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات في كتاب "مراعاة الإخوان" فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

استحباب قبول الاعتذار من المعتذر

أنبأنا علي بن الحسن بن عبد الجبار - بنصيبين - حدثنا علي بن حرب الطائي حدثنا وكيع عن الثوري عن ابن جريج عن العباس بن عبد الرحمن بن مينا عن جودان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من اعتذر إلى أخيه فلم يقبل كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس" قال أبو حاتم رضي الله عنه: أنا خائف أن يكون ابن جريج رحمه الله ورضوانه عليه دلّس هذا الخبر بأن سمعه من العباس بن عبد الرحمن فهو حديث حسن.

فالواجب على العاقل إذا اعتذر إليه أخوه لجرم مضى، أو لتقصير سبق، أن يقبل عذره، ويجعله كمن لم يُذنب؛ لأن من تُنصّل إليه فلم يقبل أخاف أن لا يردّ الحوض على المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن فرط منه تقصير في سبب من الأسباب يجب عليه الاعتذار في تقصيره إلى أخيه.

ولقد أنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

من التقصير عذر أخ مُقَرِّ

فإن الصفح شيمة كل حرّ

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً

فصنّه عن جفائك، وأعف عنه

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

إقراره بالجرم والذنب

أعتاب من أصبح ذا عتب

شفيع من أسلمه جرمه

وتوبة المذنب من ذنبه

أنبأ عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، قال: غضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، القدرة تذهب الحفيظة، وأنت تجلّ عن العقوبة، فإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، قال: فعفا عنه.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للمرء أن يعتذر بحيلة إلى من لا يجب أن يجدر له عذراً، ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلى أخيه؛ فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدي إلى التهمة، وإن استحب الإقلال من الاعتذار على الأحوال كلها؛ لعلمي أن المعاذير يعتربها الكذب، وقلّ ما رأيت أحداً اعتذر إلا شاب بالكذب، ومن اعترف بالزلة استحق الصفح عنها، لأن ذلّ الاعتذار عن الزلة يوجب تسكين الغضب عنها، والمعتذر إذا كان محقاً خضع في قوله، ودلّ في فعله، كما أنشدني المنتصر بن بلال:

إليّ، فلم ينهض بإحسانك الشكر

فعدري إقرارى بأن ليس لي عذر

أياربّ قد أحسنتَ عوداً وبدأةً

فمن كان ذا عذر إليك وحجّةٍ

وأنشدني الكريزي:

وأزمتني ذنباً وإن كنت مجرماً

وإني وإن أظهرت لي منك جفوةً

لراضٍ لنفسي ما رضيت لها به

أراكَ بها مني أبرَّ وأرحماً

أنبأنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا الفيض بن الجهم التميمي، حدثنا عبد الله ابن خُبَيْق قال: كان يقال: أحتمل من دَلَّ عليك، وأقبل ممن اعتذر إليك.

أنبأنا بكر بن محمد بن الوهاب القزاز - بالبصرة - حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر قال: سمعت أبي قال: حدثنا مبارك بن فضالة عن حميد الطويل عن أبي قلابة، قال: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعلمه. قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للمرء أن يعلن عقوبة من لم يعلن ذنبه، ولا يخلو المعتذر في اعتذاره من أحد رجلين: إما أن يكون صادقاً في اعتذاره، أو كاذباً؛ فإن كان صادقاً فقد أستحق العفو؛ لأن شراً الناس من لم يُقل العثرات، ولا يستر الزلات، وإن كان كاذباً فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريسته وخضوع الاعتذار وذلتته: إن لا يعاقبه على الذنب السالف بل يشكر له الإحسان المحدث، الذي جاء به في اعتذاره، وليس يعيبُ المعتذر إن دَلَّ وخضع في اعتذاره إلى أخيه. وأنشدني الأبرش:

ت، فأين عاطفة الأخوة؟

هَبْنِي أَسَأْتُ، كما زعم

ت، فأين فضلك والمروة؟

أو إن أسأت، كما أسأ

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

ففعوٌ جميل كي يكون لك الفضل

هَبْنِي مَسِيئاً كالذي قلتَ ظالماً

لسوء ما أتيتُ به أهلاً، فأنت له أهل

فإن لم أكن للعفو منك

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

مثل جرم أبي لهب

هَبْنِي أَسَأْتُ، وكأني جرُمي

ت، وكم أسأت فلم تتب؟

فأنا أتوب كما أسأ

وأنشدني محمد بن أبي علي، أنشدنا الربيعي عن الأصمعي:

وخير الناس من أخطأ فتابا

أتيتك تائباً من كل ذنب

وقد ملك العقوبة والثوابا؟

أليس الله يُستعفيَ فيعفو

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

عصيت وتبت، كما قد عصي

وتاب إلى ربه آدمُ

فقل قولَ يوسفَ لا تترَباً

لكمُ يغفرُ الغافرُ الراحمُ

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا محمد بن عبد الله الجرزي عن حميد ابن سنان الخالدي - وكان نديماً لأبي دُلف - قال: دخلت على أبي دلف يوماً، وبين يديه كتاب وهو يضحك، فقال: هذا كتاب عبد الله بن طاهر، وفيه أبيات أحبُّ أن أنشدك إياها، وذلك أني كنت استبطأته في بعض المؤامرات، فكتبت إليه:

أرى وُدَّكم كالورد ليس بدائم

ولا خير فيمن لا يدوم له عهدُ

وودي بكم كالآس حُسنًا وبهجةً

له نَصْرَةٌ تبقى إذا فني الورد

فكتب إلي بهذه الأبيات:

شَبَّهت ودي الورد، فهو مشاكلي

وهل زَهْرٌ إلا وسيدها الوردُ

وشَبَّهت منك الود بالآس في البقا

ولم تخلف التشبه فيك ولم تَعُدْ

فودُّك كالآس المدير مذاقُهُ

وليس له في الريح قبلُ ولا بعدُ

أخبرنا عبد الكبير بن عمر الخطابي بالبصرة، حدثنا أبو حاتم السجستاني عن الأصمعي قال: حدثنا عيسى بن عمر قال: كان لأبي الأسود الدؤلي صديق، فرأى منه بعض ما يكره، فقال أبو الأسود:

رأيت امرءاً لم أكن أبلُهُ

أتاني، فقال: اتخذني خليلاً

فخاللته، ثم صافيته

فلم ينقص الود منه فتبلاً

فراجعته، ثم عاتبته

عاتباً رقيقاً، وقولاً جميلاً

فألفيته غير مُستَعْتَبٍ

ولا ذاكراً الله إلا قليلاً

ألستُ حقيقاً بتوذيعة

وأُتبعُ ذلك هجراً طويلاً؟

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الاعتذار يذهب الهموم، ويُجلى الأحزان، ويدفع الحقد، ويذهب الصد، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة، والإكثار منه يؤدي إلى الاتهام وسوء الرأي، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلى أخيه خَصْلَةٌ تُحمد إلا نفي التعجب عن النفس في الحال لكان الواجب على العاقل أن لا يفارقه الاعتذار عند كل زَلَّة.

ولقد أنشدني الكريزي

فانظر إليّ بطرف غير ذي مرض

فطال ما صحَّ لي من طرفك النظرُ

أدرك بفضلك عظماً كنت تجبُّره

واجمع برفقك ما قد كاد ينتشر

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا كهدي بن سابق حدثنا عطاء بن مصعب قال: قدم عبد الرحمن بن عَنبَسَةَ بن سعيد على معن بن زائدة باليمن، وكانت بينهما عداوة، فلما رآه قال له: يا عبد الرحمن، بأي وجه أتيتني؟ ولأي خير أمّلتني؟ قال: أصلح الله الأمير! اسمع مني حتى أنشدك بيتين قالهما نُصَيْبُ في عبد العزيز بن مروان، قال: وما هما؟ فأنشده:

لو كان فوق الأرض حيٌّ فعَالُهُ كفعلك، أو للفعل منك مقاربُ
لقلت له هذا، ولكن تَعَذَّرْتُ سواك على المستعْتَبِينَ المذاهبُ

فقال: أقم، فإني لا أواخذك فيما مضى، ولا أعْتَفُك فيما بقي.

أنبأنا الخلابي حدثنا محمد بن موسى السَّمَرِيُّ عن حماد بن إسحاق. قال ابن السماك لمحمد بن سليمان، أو حماد بن موسى لكاتبه، ورآه كالمعرض عنه: ما لي أراك كالمعرض عني؟ قال: بلغني عنك شيء كرهته، قال: إذاً لا أبالي، قال: ولم؟ قال: لأنه إن كان ذنباً غفرته، وإن كان باطلاً لم تقبله، قال: فعاد إلى المؤانسة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما يشاكل كل هذه الحكايات في كتاب "مراعاة العشرة"، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

الحث على لزوم كتمان السر

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدلال، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد العبدي، حدثنا الهيثم بن أيوب العطار السلمي، حدثنا سهل بن عبد الرحمن عن محمد بن مطرف أبي غسان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على الحوائج بكتمان السر، فإن لكل نعمة حاسداً".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا إسناد حسن، وطريق غريب، إن كان عروة هذا هو ابن الزبير بن العوام، وسعيد بن سلام، ما أرى حفظ، حديثه؛ فلذلك تنكبت عن ذكره. فالواجب على من سلك سبيل ذَوِي الحِجَى لُزُوم ما انطوى عليه الضمير بتركه إبداء المكنون فيه، لا إلى ثقة ولا إلى غيره؛ فإن الدهر لا بد من أن يضرب ضرباته، فيوقع ضدّ الوصل بينهما بحالة من الأحوال فيخرجه وجود ضد ما انطوى عليه قديماً من وفاته إلى صحة الخروج بالكلية إلى جفائه، بإبداء مكتوماته، والكشف عن مُخَبَّاتِهِ.

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقي، حدثني محمد بن عبد الكريم العبدي، حدثنا بكر بن يونس بن بكير، حدثني موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص أنه قال: عجبت من الرجل يفرُّ من القدر، وهو موافقه، ومن الرجل يرى القذاة في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه، ومن الرجل يخرج الضغن من موضع ويدع الضغن في نفسه، وما ندمت على أمر قط فُلِمْتُ نفسي على تدمي عليه، وما وضعت سري عند أحد فلمته على أن يفشيه، كيف ألومه وقد ضقت به؟ وأنشدني علي بن محمد البسامي:

نبيح بسرِّك ضيقاً به
وتبغي لسرك من يكتُم
وكتمانك السرَّ ممن تخاف
ومن لا تخافنهُ أحرَمُ
إذا ذاع سرِّك من مخبر
فأنت، وإن لمته، ألومُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

إذا ضاق صدر المرء عن بعض سره
فألقاه في صدري، فصدري أضيق
ومن لامني في أن أضيع سره
وضيَّعه قبلي، فذر السر أخرق

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدل، حدثنا أحمد بن محمد الصيداوي، حدثنا حماد بن إسحاق عن المدائني قال: كان يقال: أصبر الناس الذي لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شيء فيفشيه، وأنشدني البغدادي:

صنُّ السر بالكتمان يرضيك غِبُّه
فلا تلجئن سراً إلى غير حرزه
فقد يظهر المرء المضيع فيندم
فيظهر حرز السوء ما كنت تكتُمُ

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

إذا المرء لم يحفظ سريرة نفسه
فبُعداً له من ذي أخ ومودة
وكان لسرِّ الأَخ غيرَ كتوم
وليس على وُدِّ له بمقيم

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من حَصَّنَ بالكتمان سره ثم له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكّن والظفر، والحازم يجعل سره في وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن أضطره الأمر وغلبه أو دَعَاه العاقل الناصح له، لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلب له وعاءه، فمن الأوعية ما يضيق بنا يودع، ومنها ما يتسع لما استودع. وأنشدني الكريزي:

اجعل لسرك من فؤادك منزلاً
لا يستطيع له اللسان دخولا

إن اللسان إذا استطاع إلى الذي
ألفيت سرّك في الصديق وغيره
وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

كتم الفؤاد من الشئون وصولاً
من ذي العداوة فاشياً مبدولاً

سأكتمه سري وأكتم سره

ولا غرّني أنني عليه كريم

حليم فيفشي، أو جهول يذيعه

وما الناس إلا جاهل وحليم

أخبرني محمد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثني علي بن عيسى عن محمد عن ابن الأعرابي قال: كان يقال: العاقل من حذر صديقه. وأنشدني بعض إخواننا:

لعمرك كتمان الفتى سرّ ما نوى

أعف وأدنى للرشاد وأكرم

وأجمل في بثّ الحديث مقالة

وأحسن في الأخلاق دوماً وأحزم

وأنشدني الكريزي:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها

فأنت إذا حملته الناس أضيع

ويضحك في وجهي إذا ما لقيته

وينهشني بالغيب يوماً ويلسع

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتّمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهر لصديقه، وكفى لذوي الألباب عبراً ما جربوا، وما استودع حديثاً فليستر، ولا يكن مهتاكاً، ولا مشياًعاً؛ لأن السر إنما سرّاً؛ لأنه لا يفشي. فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بأن لا يفشيه ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر العدل، حدثنا محمد بن إسماعيل بن يعقوب الأعمى قال: أنشدني محمد بن سليمان بن سلام الجمحي لرجل من عبد شمس:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث

فأفشاء الرجال، فمن تلوم؟

إذا عاتبت من أفشى حديثي

وسرّي عنده فأنا الظلوم

وإني يوم أسأم حمل سري

وقد ضمّنته صدري سؤوم

فلمست محدثاً سري خليلي

ولا نفسي إذا حضرت هموم

وأطوي السرّ دون الناس: إني

لما استودعت من سرّ كئوم

وأنشدني علي بن حيدة الكاتب، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن بندار لشيخ الطاق.

يُسمعن منك إذا استودعت سرّ

أمت السر بكتمان ولا

تضعنُ سرّك إلا عند حُر

فإذا ضقت به ذراعاً، فلا

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا الرمادي، حدثنا مسدد قال: سمعت ابن داود يقول: سمعت الأعمش يقول: يضيق صدر أحدهم بسرّه، حتى يحدث به، ثم يقول: أكتمه عليّ. وأنشدني إبراهيم بن علي الظفري أنشدني الحسين بن عبيد الله:

والسر عند كرام الناس مكتوم

لا يكتم السر إلا من له شرف

ضلت مفاتيحه والبابُ مختوم

السر عندي في بيت له غلق

أنبأنا الخلابي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع البياضي، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن محمد:

فيا من رأى شيئاً يُصان بأن ينسى

وإني لأنسى السر كيما أصونه

فيخلصه قلبي إلى منطقي خلساً

مخافة أن يجري ببالي ذكره

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصيل الأسرار، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل. فتحصين السر للعاقل أولى به من التلief بالندم بعد خروجه منه. ولقد أحسن الذي يقول:

فأودعته قلبي، فكان أميناً

خشيت لساني أن يكون خووناً

أيا حرّكاتي كنّ في سكونا

فقلت، ليخفي دون شخصي وناظري:

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأماطي، حدثنا محمد بن سليمان المصيبي، حدثنا ابن عيينة عن ابن شبرمة عن الحسن بن علي بن شاذان قال: قال: ما كان يحتاج إليهم، ولكن أحب أن يستنّ به بعده. قال أبو حاتم رضي الله عنه: المستشار مؤتمن، وليس بضامن، والمستشير متحصن من السقط، متخير للرأي.

والواجب على العاقل السالك سبيل ذوي الحجى: إن يعلم أن المشاورة تفشي الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل في دينه، وإرشاد المشير المستشار قضاء حق النعمة في الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نعتّه.

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، قال: قال الحسن ما حذب قوما قط أمر

فاجتمعوا فتشاوروا فيه إلا أرشدهم الله لأصوبه.
وأنشدني الكريزي:

دَبَّرَ إِذَا مَا رَمَتْ أَمْرًا بِفِكْرَةٍ لتعلم ما تأتي وما تتجنبُ
وشاور نَقَى الرَّأْيِ عِنْدَ النَّبَاسِهِ لكي يَصِحَّ الأَمْرُ الَّذِي هُوَ أَصُوبُ
وأنشدني المنتصر بن بلال:

لَا تَسْبِقَنَّ النَّاسَ بِالرَّأْيِ وَأَتَنَّدُ فَإِنَّكَ تَعَجَلُ إِلَى الْقَوْلِ تَزَلُّ
ولكن تصفِّحْ رَأْيَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا وقل بعدهم رسلاً، وبالحق فاعمل

أنبأنا محمد بن عثمان العقبي، حدثني يحيى بن زيد بن محمد الأبي، حدثني إسماعيل بن حبيب أبو حميد الأبي عن عبد الله بن الديلمي عن وهب بن منبه أنه قال: في التوراة أربعة أحرف مكتوبة: من لم يشاور يندم، ومن استغنى أستأثر، والفقر الموت الأحمر، وكما تدين تُدان. قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا أئسَّ أنسُ من استشارة عاقل ودود، ولا وحشة أوحش من مخالفته؛ لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة ومفتاحا رحمه، من استشير فليشر بالنصيحة، وليجتهد بالرأي، وليلزم الحق، وقصد السبيل وليجعل المستشار كنفه بترك الخيانة، وبذل النصيحة، وليكن كما أنشدني علي ابن محمد البسامي:

ومن الرجال إِذَا زَكَتْ أَحْلَامُهُمْ مَنْ يَسْتَشَارُ إِذَا اسْتَشِيرَ فَيَطْرُقُ
حتى يجول بكل واد قلبه فيرى ويعرف ما يقول وينطق
إن الحلِيم إِذَا تَفَكَّرَ لَمْ يَكْذِبْ يخفى عليه من الأمور الأوفى

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا غسان بن الربيع، حدثنا يزيد بن ثابت عن إياس ابن دغفل عن الحسن: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "ما شاور قوم قط إلا هدوا إلى رشدهم". أخبرني محمد بن المنذر، حدثنا أحمد بن خالد السيرافي، حدثنا شيبان، حدثنا أبو الأشهب قال: قال الحسن: لا يندم من شاور مرشدا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير؛ لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزلل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بأن لا يستشير عاجزاً، كما أن الحازم لا يستعين كسلاً، وفي الاستشارة عين الهداية، ومن استشار لم يعدم رشداً، ومن ترك المشاورة لم يعدم غيًّا ولا يندم من شاور مرشداً، وقد أنشدني الواسطي:

الهمُّ ما لم تمضه لسبيله سقمُ القلوب وآفة الأبدان

وَمُعَوَّلَ الرَّجُلِ الْمَوْفِقِ رَأْيِهِ

عند اعتراض طوارق الأحزان

وإذا الحوادث سددت أسبابه

كان التبصر أنجد الأعوان

وإذا أضل سبيله تدبيره

طلب الهدى بتشاور الإخوان

أنبأنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا مطروح بن شاكر، حدثنا أصبغ عن ابن وهب عن إبراهيم بن نشيط عن ابن أبي حسين قال: كان يقال: ما هلك أمرؤ عن مشورة، ولا سعد بتوحيد قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من شيم العاقل عند النائية تُنوبه: إن يشاور عاقلاً ناصحاً ذا رأيٍ يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادى في الباطل بل يقبل الحق ممن جاء به، ولا يحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقيير؛ لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلة خطر غائصها الذي استخرجها، ثم ليستخر الله، وليمض فيما أشار عليه وقد أنشدني البغدادي:

أطع الحليم إذا الحليم عصاك

إن الحليم إذا عصاك هداك

وإذا استشارك من تودُّ، فقل له:

أطع الحليم إذا الحليم نهاك

ولئن أبيت لتأتين خلفه

أرباً يحوطك، أو يكون هلاكك

وأعلم بأنك لن تسود، ولن ترى

سبيل الرشاد إذا أطعت هواك

أنبأنا أبو محمد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بجرجان، حدثنا محمد بن حميد البزاز، حدثنا جرير عن ابن المقفع عن وزير كسرى قال: ثلاثة ليس لهم رأي فلا تستشروهم: صاحب الخف الضيق، وحاقن البول، وصاحب المرأة السوء السليطة.

الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة

أنبأنا الحسين بن محمد بن أبي معشر - بجران - حدثنا عبد الرحمن بن عمرو البجلي، حدثنا زهير بن معاوية عن سهيل بن أبي صالح عن عطاء بن يزيد الليثي عن تميم الداري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم النصيحة للمسلمين كافة، وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل معاً، إذ المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يشترط على من بايعه من أصحابه "النصح لكل مسلم" مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وأخبرني محمد بن أبي علي الخلاصي، حدثنا محمد بن الحسن الذهلي عن أبي السائب قال: قال علي بن أبي

طالب رضي الله عنه "لا تعمل بالخدیعة فأهما خُلِق اللئام، وامحَضْ أخاك حسنه كانت أو قبيحة، وزُلْ معه حيث زال".

وأنشدني الكريزي:

قل: للنصيح الذي أهدى نصيحته
النصح ليس له حدٌ فتعرفه
حتى إذا صرَّختُ عَنَّا عواقبه
لو كان للنصح حدٌ يُستبان به
لكن له سُبُلٌ شتَّى مخالفة
والناس غاوٍ، وذو رشدٍ، ومختاط
سرّاً إلينا، وسامته التكاليفُ
والنصح مستوحش منه ومألوف
كانت لنا عِظَةٌ منه وتعنيف
ما نالنا حَسْرَةً منه وتلھيف
بغْضٌ لبعْضٍ، فمجهول ومعروف
والنصح ممضى، ومردود وموقوف

قال أبو حاتم رضي الله عنه: خير الإخوان أشدهم مبالغة في النصيحة، كما أن خير الأعمال أحدها عاقبة، وأحسنها إخلاصاً، وضرب الناصح خير من تحية الشانئ. ويجب أن يكون للعاقل نصيحة مبذولة للعامه مكتوما من العام والخاص ما قدر عليه، وليس الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له.

وأنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم التيمي، حدثني أبي قال "لما قدم على الكوفة لقيه المغيرة بن شعبة، فقال له: إني أشير عليك رأي فاقبله، قال: هات، قال: أقرَّ معاوية على الشام، يسمح لك طاعته، فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه، ووليهم عشرين سنة لم يعتبوا عليه، ولم يعتبوه في عرض ولا مال، فقال: والله لو سألتني قرية ما وليته إياها، قال: فقال المغيرة: أراه سيَّلي أرضين وقرَّيات".

وأنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال "المؤمن شعبة من المؤمن، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه سدَّده وقومَه ونصحه السر والعلانية" وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أمنتُ على السر امرءاً غير حازم
فداع في الناس، حتى كأنما
بعلياء نارٌ أوقدت بتقوب
وما كان مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد
فحق له من طاعة بنصيب

سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت ابن الأعرابي يقول: قال بعض الحكماء "اثنان ظالمان: رجل أهديت له النصيحة فاتخذها ذنباً، ورجل وسع له في مكان ضيق فجلس متربعا" قال أبو حاتم رضي الله عنه: النصيحة محاطة بالتهمة، وليست إلا لمن قبلها، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها، ولا الآخرة إلا لمن طلبها، وليس على كل ذي نصح إلا الجهد، لو لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه لم يحمده غيب رأيه، ومشاورة الأصم أحمد من الناصح المعرض عنه، ومن بذل نصيحة لمن لا يشكر كان كالباذر في السباح، وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة من المعجب برأيه، وأنشدني الأبرش:

إذا نصحت لذي عجب لترشده
فإن ذا العجب لا يعطيك طاعته
وما عليك، وإن غاوى غوى حقباً
فلم يطعك، فلا تتصح له أبداً
ولا يجب إلى إرشاده أحد
إن لم يكن لك قرْبى، أو يكن ولداً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: النصيحة تجب على الناس كافة على ما ذكرنا قبل، ولكن إبدائها لا يجب إلا سرا؛ لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سراً فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أخرى من القصد فيما يشينه.

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا الرمادي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا سفيان قال: قلت لمسعر "تجنب أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجي إنسان فيؤبئني بها فلا، وأما أن يجي ناصح فنعم".

أخبرنا محمد بن أبي علي الخلافي حدثنا محمد بن المغيرة النوفلي حدثنا محمد بن علي الشقيقي حدثنا أبي عن ابن المبارك قال "كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره، ويؤجر في نهي، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره" أخبرنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا محمد بن منصور حدثني علي بن المديني عن سفيان قال: جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل - وعنده قوم - فسارّه بشيء، ثم أنصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفت أمس وأنت تصلي" قال أبو حاتم رضي الله عنه: النصيحة إذا كانت على نعت ما وصفنا تقيم الألفة، وتودي حق الأخوة.

وعلامه الناصح أراد زينة المنصوح له أن ينصحه سراً، وعلامة من أراد شينه أن ينصحه علانية، فليحذر العاقل نصحه الأعداء في السر والعلانية.

ولقد أنشدني ابن زنجي البغدادي:

فكم من عدو مُعلنٍ لك نصحه
وكم من صديق مرشدٍ قد عصيته
وما الأمر إلا بالعواقب؛ إنها
وأشدي منصور بن محمد الكريزي:

وصاحب غير مأمون غوائله
على خلاف الذي يُبدي ويظهره
عفوت عنه انتظاراً أن يثوب له
دهراً فلما بدا لي أن شيمته
بيدي لي النصح منه وهو مشتمل
وقد أحطت بعلمي أنه دغل
عقلٌ إليه من الزلات ينتقل
غش وليس له عن ذاك مُنتقل
تركته ترك قال لا رجوع له
إلى مودته مل حنت الإبل

أخبرنا عبد الله بن محمد القيراطي حدثنا محمد بن يزيد الملقب بِجَمَش حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا أبو حيان عن أبيه قال: كتب الربيع بن خيثم وصية: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصي به الربيع بن خيثم، وأشهد عليه وكفى بالله شهيداً وجزاءً لعباده الصالحين مثيباً، إني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وأن يعبد الله ومن أطاعني في العابدين وبمحمد في الحامدين، وينصح لجماعة المسلمين".

وصية الخطاب بن المعلي المخزومي ابنه

أخبرني محمد بن المنذر بن سعيد حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي حدثني عبد الرحمن بن أبي عطية الحمصي عن الخطاب بن المعلي المخزومي القرشي أنه وعظ ابنه فقال "يا بني، عليك بتقوى الله وطاعته، وتجنب محارمِه باتباع سنته ومعامله حتى تصح عيوبك، وتقر عينك، فإنها لا تخفي على الله خافية، وإني قد وسمت لك وسماً، ووضعت لك رسماً، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملأت أعين الملوك، وانقاد لك به الصعلوك، ولم تزل مرتجياً مشرفاً يُحتاج إليك، ويرغب إلى ما في يديك، فأطع أباك، واقتصر على وصية أبيك، وفرغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك ولبك، وإياك وهذر الكلام، وكثرة الضحك والمزاح، ومهازلة الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء، ويوقع الشحناء، وعليك بالرزانة والتوقر، من غير كبير يوصف منك، ولا خبيلاء تحكى عنك، والتق صديقك وعدوك بوجه الرضى، وكف الأذى، من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وكن في جميع أمورك في أوسطها؛ فإن خير الأمور أوسطها، وقلل الكلام، وأفش السلام وأمش متمكناً قصداً، ولا تخط برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلو عنقك، ولا ردائك، ولا تنظر في

عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مجلساً، ولا الحوانيت متحدثاً، ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء، فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها، والعَبَث بلحيتك وخاتمك، وذؤابة سيفك وتحليل أسنانك، وإدخال يديك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عنك، وكثرة التثاؤب والتمطّي، وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مجلسك هادياً، وحديثك مقسوماً، وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك، بغير إظهار عجب منك، ولا مسألة إعادة، وغُضَّ من الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك، ولا جاريتك، ولا عن فرسك، ولا عن سفك، وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجباً بشيء منها طمع فيها السفهاء، فولدوا لك الأحلام، واغتمزوا في عقلك، ولا تصنّع تصنّع المرأة، ولا تبدّل تبدّل العبد، ولا تهلب لحيتك ولا تُبطنها، وتوق كثرة الحفّ، وكتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف في الدهن، وليكن كحلك غباً، ولا تلحّ في الحاجات، ولا تخشع في الطلبات، ولا تعلم أهلك وولدك - فضلاً عن غيرهم - عدد مالك، فإنهم إن رأوه قبيلاً هُنتَ عليهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم، وأحفظهم في غير عنف، ولن لهم في غير ضعف، ولا تهازل أمتك، وإذا خاصمت فتوقّر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عن عجلتك، وتفكر في حُجَّتِك، وأر الحاكم شيئاً من حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تحفّر على ركبتيك، وتوقّ حمرة الوجه، وعرق الجبين وإن سُفه عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم، وأكرم عرضك، وألق الفضول عنك، وإن قربك سلطان فكن منه على حد السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وأرفق به رفقك بالصبي، وكلم بما يشتهي، ولا يحملنك ما ترى من إلفه إياك، وخاصته بك: إن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه، وإن كان لذلك منك مستمعاً، وللقول منك مطيعاً، فإن سقطت الداخل بين الملك وأهله صرعة لا تنهض، وزلة لا تقال، وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأوصم، ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخبر محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك الأحاديث العابرة المشنعة التي تنكرها القلوب، وتقف لها الجلود، وإياك ومضعف الكلام مثل: نعم، نعم، ولا، لا، وعجل، وعجل، وما أشبه ذلك، وإذا توضأت فأجد عرك كفيك، وليكن وضعك الحُرُض من الأشنان في فيك كفعلك بالسواك، ولا تنخّع في الطسّ، وليكن طرحك الماء فيك مترسلاً، ولا تمجّ فتتضح على أقرب جلسائك، ولا تعضّ نصف اللقمة، ثم تعيد ما بقي منها منصبغاً، فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك، ولا تعبت بالمشاش، ولا تعب شيئاً مما يقرب إليك على مائدة بقلة حل أو

تابل أو عسل، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة، ولا تمسك إمساك المشبور، ولا تُبذر تبذير السفية المغرور، واعرف في مالك واجبَ الحقوق، وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، وأعلم أن الجشع يدعو إلى الطبع، والرغبة كما قيل تدق الرقبة، وربّ أكلة تمنع أكالات، والتعفف مال حسيم، وخلق كريم، ومعرفة الرجل قدره، تشرف ذكره، ومن تعدى القدر، هوى في بعيد القعر، والصدق زين، والكذب شين، ولصدق يُسرع عطبَ صاحبه أحسنُ عاقبة من كذب يسلم عليه قائله، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان، ولقرب ملك جواده، خير من مجاورة بحر طراد، وزوجة السوء الداء العُضال ونكاح العجوز يذهب بماء الوجه، وطاعة النساء تزري بالعقلاء.

تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنع للشرف تدركه.

واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما ينسب الصانع إلى صناعته، والمرء يعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنهم يخونون من رافقهم، ويجزون من صادقهم، وقربهم أعدي من الجرب، ورفضهم مكن استكمال الأدب، واستخفاف المستجير لؤم والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن. والأخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البلاء وتجنب صديق العافية، فإنهم أعدى الأعداء.

ومن أتبع الهوى، مال به الردى، ولا يعجبك الجهم من الرجال، ولا تحقر ضئيلاً كالحلال وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه. وتوق الفساد، وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام وامنح البشر جليسك، والقبول ممن لا فاك.

وإياك وكثرة التبريق والتزليق، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقرباً، متعزلاً، منتهزاً في فرصتك، رقيقاً في حاجتك، مثبتاً في حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شكلهم.

وأحذر ما يلزمك اللائمة في آخرتك، ولا تعجل في أمر حتى تنظر في عاقبته، ولا ترد حتى ترى وجه المصدر.

وعليك بالثورة في كل شهر مرة، وإياك وحلاق الإبط بالنورة، وليكن السواك من طبيعتك، وإذا استكّت فعرضاً، وعليك بالعمارة، فإنها أنفع التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع، ومنازعتك اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، وذم الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك، ومعرفة الحق من

أخلاق الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، ومن أيسر أكبر، ومن أفتقر احتقر، قصر في المقالة، مخافة الإجابة، والساعي إليك غالب عليك، وطول السفر ملالة وكثرة المني ضلالة، وليس للغائب صديق، ولا على الميت شفيق، وأدب الشيخ عناء، وتأديب الغلام شقاء، والفاحش أمير، والوقاح وزير، والحليم مطية الأحمق، والحمق داء لا شفاء له والحلم خير وزير، والدين أزين الأمور، والسماجة سفاهة، والسكران شيطان، وكلامه هذيان، والشعر من السخر والتهدد هُجر، والشح شقاء، والشجاعة بقاء، والهدية من الأخلاق السرية، وهي تورث المحبة، ومن أبدأ المعروف صار ديناً، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء، ولرياء بخير خير من معالنة بشر، والعرق نزاع، والعادة طبيعة لازمة: إن خير فخير، وإن شراً فشر، ومن حل عقداً احتمل حقداً، ومراجعة السلطان خرق بالإنسان، والفرار عار، والتقدم مخاطرة، وأعجل منفعة إيسار في دعة، وكثرة العلل من البخل، وشر الرجال، الكثير الاعتلال وحسن اللقاء، يذهب بالشحناء، ولين الكلام، من أخلاق الكرام. يا بني، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

وأعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوقَّ منهن كل ذات بدأ مجبولة على الأذى، فمنهن المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر على جميل، ولا ترضى منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت الفحة ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعواريها، ولا تستحي من جارها، كلبة هرارة، مُهارشة عقارة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضة مشتوم، ولا ترعى عليه لدين ولا الدنيا، ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين، حجاب مهتوك، وستره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيباً، ويمسي عاتياً، شرابه مر، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره، نهاره ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقارة، وتلسه مثل العقرب الجرارة.

ومنهن شفشليق شعشع سلفع، ذات سم منقع، وإبراق واختلاف، تمب مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، مولدة لمخازيه، محتقرة لما في يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إلى حال، حتى قلا بيته، ومَلَّ ولده، وغثَّ عيشه، وهانت عليه نفسه، وحتى أنكره إخوانه ورحمه جيرانه.

ومنهن الورهاء الحمقاء: ذات الدل في غير موضعها، الماضغة للسانها، الآخذة في غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراجع، تنتشر الشمس ولما يُسمع لها صوت، ولم يكن لها بيت، طعامها بائت، وإناءها وضر، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونها ممنوع، وخادمها

مضروب، وجارها محروب.

ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على غيبها، المحبوبة في جيرانها، المحمودة في سرها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتا، النظيفة بيتا، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها ناعم، موموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بني ممن يقتدي بالهدى، ويأتم بالتقي، ويجتنب السخط، ويجب الرضى.

والله خليفتي عليك، والمتولي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد نبي الهدى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا.

الزجر عن تهاجر المسلمين كافة

حدثنا أبو يعلى الموصلي حدثنا وهب بن بقية الواسطي حدثنا خالد بن عبد الله عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يحل التباغض ولا التنافس ولا التحاسد ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانا كما أمرهم الله ورسوله فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فرح فرح الآخر بفرحه، ينفي الغش والدغل، مع استسلام الأنفس لله عز وجل، مع الرضا بما يوجب القضاء في الأحكام كلها، ولا يجب المهجران بين المسلميين عند وجود زلة من أحدهما، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان والعطف عليه بالإشفاق، وترك المهجران.

ولقد حدثني محمد بن المهاجر حدثني موسى بن محمد الأخباري عن النميري حدثني محمد بن يحيى النكتاني قال: أنشدني أبو غزية لمعاوية بن عبد الله بن جعفر:

لك أن تراه زل زلّه

ن يلونه في شر ألة

أهل البطانة والدخلة

مما يمر على الجيلة

لا يُرْهِدَنَّكَ فِي أَخ

والمرء يطرحه الذي

ويخونه من مأمّن

والموت أعظم حادث

أنشدني محمد بن الحسن بن قتيبة أنشدني حميد بن عياش:

فإن أنت أبغضت البيغض فأجمل

ولا تك في حب الإخلاء مفرطا

حبيبك أو تهوي البغيض فأعقل

فإنك لا تدري متى أنت مبغض

وأنشدني عمرو بن محمد بن عبد الله النسوي لثعلب:

لكنما الموت عندي صدُّ إخواني

وما صدودُ ذوات الدَّلِّ يُرْمِضُنِي

عند الملماتِ إلا عند هجران

إني لأصبرُ من عودٍ به جُلب

ضاقَت علي برحب الأرض أوطاني

إذا رأيت أزراراً من أخي ثقة

وأنشدني الأبرش:

وتوسمنُ أمورهم وتفقَدِ

أبلُ الرجال إذا أردت إخاءهم

فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشدُدِ

فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى

فعلَى أخيك بفضل حلمك فاردد

فمتى يزلُّ، ولا محالة، زلَّةً

ورأيت أهل الطيش قاموا فاقعد

وإذا الخنى نقض الحُبى في مجلس

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للمرء أن يدخل في جملة العوام والهمج بإحداث الود لإخوانه، وتكديره لهم بالخروج بالسبب الذي يؤدي إلى الهجران الذي نهى المصطفى صلى الله عليه وسلم عنه بينهم، بل يقصد قصده الإغضاء عن ورود الزلات، ويتحرى ترك المناقشة على الهفوات، ولا سيما إذا قيل في أحدهم الشيء الذي يحتمل أن يكون حقاً وباطلاً معاً، فإن الناس ليس يخلو وصلهم من رشق أسهم العذال فيه.

ولقد سمعت محمد بن عثمان العقبى يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال محمد بن حميد:

بحقِّ قيل فيه، أو قراف

ومن ذا من عيوبِ الناس ناج

ولازمَ خلتي أن لا أكافي

قبيح بي إذا خاللتُ خلا

إذا لم تحتل حقَّ المُصافي

وكلُّ مودة لا خير فيها

ولكن في الشدائد لا يوافي

فأما في الكلام فكم وفي

ولم ابن الإخاء على اعتساف

إذا أحببتُ لم أنقض إخائي

ولا أدعو اللئام إلى العطاف

ولكن أمنحُ الكرماءَ وُدّاً

ولا تثبت، فعهدك غير واف

متى تقطعُ صديقك بعد وصل

وصار المستقيم إلى خلاف

إذا ما المرء لم تطَّقه

سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت محمد بن عبد الرحمن يقول: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث يقول: قيل لرجل: ألك عيوب؟ قال: لا، قيل له: فلك من يلتمسها؟ قال: نعم، قال: فما أكثر عيوبك؟! قال أبو حاتم رضي الله عنه: السبب المؤدي إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء: إما وجود الزلة من أخيه - ولا محالة يزل - فلا يغضي عنها ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واشٍ يقدر فيه، ومشى عاذل بثلب له فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سبباً ولا لأخيه عذراً، وورود ملل يدخل على أحدهما، فإن الملامة تورث القطع ولا يكون لملول صديق. ولقد أخبرني محمد بن أبي علي الخلابي، حدثنا محمد بن إبراهيم اليعمرى حدثني عبد الرحمن بن إبراهيم الأصبهاني أنشدني بعض أهل الأدب:

مثل السراب يذم وردُهُ

إنَّ الملوَّةَ ودُّهُ

براق لم يصدقك وعدُهُ

أو كالحساب الزائد ال

عند الضراب فكلَّ حدُّهُ

أو كالحسام هزرتَهُ

فوعيده كذبٌ ووعدهُ

لا تقبلنَّ إخاءهُ

نك إذ بدا لك منه صدهُ

بيننا يودك رأيَ عي

وازورَّ، حتى مال خدهُ

وتغيرت أخلاقهُ

أنبأنا محمد بن يعقوب الخطيب بالأهواز حدثنا معمر بن سهل حدثنا إبراهيم ابن بشار عن سفيان قال: كان لابن شبرمة أخ فجفاه، فكتب إليه:

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

كلانا غنى عن أخيه حياته

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يحل لمسلم أن يهجره أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام: فمن فعل ذلك كان مرتكباً لنهي النبي صلى الله عليه وسلم، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، والسابق بالسلام يكون السابق إلى الجنة، ومن هجر أخاه سنة كان كسفك دمه، ومن مات وهو مهاجرٌ أخاه دخل النار، إن لم يتفضل الله عليه بعفو منه ورحمة، وغاية ما أبيض من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام. ولقد أنشدني عبيد الله بن محمد الأنماطي قال: أنشدني محمد بن الحسن:

فاستفتت فيها ابن أبي خيثمه

يا سيدي عندك لي مظلمة

قال: روى الضحاك عن بكرمه

فإنه يرويه عن شيخه

عن ابن عباس عن المصطفى

نبينا المبعوث بالمرحمه
فوق ثلاثٍ ربُّناً حرمه

إن صدود الخل عن خله

وأنشدني محمد بن شاه الأبيوردي الموصل:

صفو المودة مني آخر الأبد

إلا دعوت له الرحمن بالرشد

ولا مددتُ إلى غير الجميل يدي

حتى أغيبَ في الأكفان واللحد

ما ودني أحد إلا بذلت له

ولا جفاني وإن كنت المحب له

ولا ائتمنتُ على سر فبجت به

ولا أخون خليلي في خليلته

أنبأنا محمد بن المهاجر حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع حدثنا محمد بن سَماعة، قال: جئت يوماً إلى أبي علي المصري أسلم عليه، قال: فبشَّ بي واحتملني في حجره، ثم قال:

ورضيتُ في ذاك المعاد ثوابا

ولقلتُ: أحسنَ خالقي وأطابا

حسبي بوصولك في حياتي لذة

لو كنتَ رزقي ما أردت زيادة

الحث على لزوم الحلم عند الأذى

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة حدثنا يزيد بن خالد بن موهب الرملي حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا حلِيم إلا ذو عَثْرَة، ولا حلِيم إلا ذو تجرِبة".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا الخبر في الضرب الذي ذكرت في كتاب فصول السنن بأن العرب تُضيف الاسم إلى الشيء للقرب من التمام، وتنفي الاسم عن الشيء للنقص من الكمال، فلما كان الغالب على المرء أن لا يكون حلِيمًا حتى يكون ذا عَثْرَة نفي النبي صلى الله عليه وسلم اسم الحلِيمِ عمن لم يكن بذِي عَثْرَة، لنقصه عن الكمال.

فالحلِيمُ عظيم الشأن، رفيع المكان، محمود الأمر، مرضى الفعل. والحلم: اسم يقع على زَمِّ النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ما تحب إلى ما نهى عنه. فالحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والثبُت، ولم يقرن شيء إلى شيء أحسن من عفو إلى مقدرة. والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي ببغداد حدثنا يحيى ابن معين قال: حدثنا الحسن بن

واقف عن ضمرة قال: "الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله تبارك وتعالى تسمى به".
وأشدي محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

لصاحبه والجهل للمراء شائن
من الهم، إن الخير للشر دافن

ألم تر أن الحلم زين مسود
فكن دافناً للشر بالخير تسترخ

وأشدي محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

فبالحلم سُد، لا بالتسرع والشتم

إذا شئت يوماً أن تسود عشيرة

فاعلمن مغبته من الجهل، إلا أن تشر سن من الظلم

واللحلم خير

وأشدي علي بن محمد البسامي:

يُصَبِّكَ من ذلك الخيار

فارض بما حُم من قضاء

ما زانك الحلم والوقار

وعش حميداً، رخي بال

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من نفاسة اسم "الحلم" وارتفاع قدره، أن الله جل وعلا تسمى به، ثم لم يُسمَّ بالحلم في كتابه أحداً إلا إبراهيم خليله وإسحاق ذبيحه، حيث قال: "114:9 إن إبراهيم لأواه حليم" وقال: "101:37 فبشرناه بغلام حليم".

ولو لم يكن في الحلم خصلة نحمد إلا ترك اكتساب المعاصي، والدخول في المواضع الدنسة لكان الواجب على العاقل أن لا يفارق الحلم ما وجد إلى استعماله سبيلاً.
والحلم: سَجِيَّة، أو تجربة، أو هما.

حدثنا أبو حمزة محمد بن عمر بن يوسف حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يقول "لا حلم إلا بالتجربة".

وأشدي المنتصر بن بلال الأنصاري:

وإذا دنا شبراً فزده

صاف الصديق بؤده

ه، فمن يرد جهلاً يجده

وأحلم إذا نطق السفي

أنبأنا محمد بن علي الصيرفي بالبصرة حدثنا ابن أبي الشوارب حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتوخَّ الخير يُعْطَهُ، ومن يتوق الشر يُوقَهُ".

وأشدي الكريزي:

إذا أنا كافيت الجهول بفعله

فهل أنا إلا مثله إذ أحاوره؟

ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش

علي، فإني بالتحلم قاهره

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار حدثنا يحيى بن معين حدثنا عثمان ابن صالح حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث، أن رجلاً كتب إلى أخ له: أعلم أن الحلم لباس العلم فلا تعرين منه. قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم الحلم عن الناس كافة، فإن صعب ذلك عليه فليتحلم؛ لأنه يرتقي به إلى درجة الحلم.

وأول الحلم: المعرفة، ثم الثبت، ثم العزم، ثم التصبر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن إلى المسئ، فأما من أحسن إلى المحسن، وحلم عمن لم يؤده؛ فليس ذلك بحلم، ولا إحسان.

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقي حدثنا إسحاق بن زكريا حدثنا عند الصمد ابن حسان حدثنا أبو عمر المازني عن وهب بن منبه أنه قال: يا بني لا تجادلن العلماء فتهدون عليهم فيرفضوك، ولا تمارين السفهاء فيجهلوا ويشتموك، فإنه يلحق بالعلماء من صبر ورأي رأيهم، وينجو من السفهاء من صمت وسكت عنهم، ولا تحسن أنك إذا ماريت الفقيه إلا زدته غيظاً دائماً، ولا تحمين من قليل تسمعه فيوقعك في كثير تكرهه، ولا تفضح نفسك لتشفي غيظك، فإن جهل عليك جاهل فلينفعن إياك حلمك، وإنك إذا لم تحسن حتى يحسن إليك فما أجرك، وما فضلك على غيرك؟ فإذا أردت الفضيلة فأحسن إلى من أساء إليك، وأعف عمن ظلمك، وانفع من لم ينفعك، وانتظر ثواب ذلك من قبل الله، فإن الحسنه الكاملة التي لا يريد صاحبها عليها ثواباً في الدنيا. وأنشدني محمد بن حبيب الواسطي:

إذا المرء لم يصرف عذاباً من الذي

حياء، ولم يغفر لأخرق مذنب

فلم يصطنع إلا قليلاً صديقه

ومن يدفع العوراء بالحلم يغلب

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أحفظ لسانك إن لقيت مشاتماً

لا تجرين مع اللئيم إذا جرى

من يشتري عرض اللئيم بعرضه

يحوى الندامة حين يقبض ما اشترى

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري حدثنا علي بن الأزهر الرازي حدثنا إبراهيم ابن رستم قال: سمعت ابن المبارك يقول: دعانا عبد الله بن عون إلى طعامه، فكنا نأكل فجاءت الخادم ومعها صفحة فعثرت في ثوبها، سقطت الصفحة من يدها فقال لها ابن عون: مترس آزادي.

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: قال محمد بن السعدي لابنه عروة، لما ولي اليمن: إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك، وإلى الأرض تحتك، ثم عظم خالقهما. قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل، إذا غضب واحتدّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه وتعديه حرّماته، ثم يحلم، ولا يخرج غيظه إلى الدخول في أسباب المعاصي.

والناس على ضروب ثلاثة: رجل أعزُّ منك، ورجل أنت أعزُّ منه، ورجل ساواك في العز؛ فالتجاهل على من أنت أعز منه لؤم، وعلى من هو أعز منك جنف، وعلى من هو مثلك هراش كهراش الكلبين، ونقار كنفار الديكين، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر، ولا يكاد يوجد التجاهل وترك التحالم إلا من سفيهين، ولقد أحسن الذي يقول:

ولا تجاهلَ في قوم حليمانِ
وليس يلبسُهُ إلا سفيهانِ

ما تمَّ حلمٌ ولا علمٌ بلا أدبٍ
وما التجاهلُ إلا ثوبٌ ذي دنسٍ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

إذا شتم الكرام من الجواب
أشدُّ عليه من مرِّ العذاب

وما شيء أسرُّ إلى لئيمٍ
متاركة اللئيم بلا جواب

وأنشدني الكريزي:

بحسن الحلم، إن العزَّ فيه
ويُبرِّمُ باللجاجة منصفيه
كعير السوء يرمحُ عاقيه

تجرد ما استطعت من السفيه
فقد يعصي السفيه مؤدبيه
تلينُ له فيُغلظ جانباه

أبانا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا الحسن بن محمد الأزدي الكوفي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث عن أبيه قال: كنت جالسا عند جعفر بن محمد، ورجل يشكو رجلا عنده، قال لي كذا، وفعل لي كذا، فقال له جعفر: من أكرمك فأكرمه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما ضمَّ شيء إلى شيء هو أحسن من حلم إلى علم، وما عدم شيء في شيء هو أوحش من عدم الحلم في العالم، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل والآخر الصمت، وربما يُدفع العاقل إلى الوقت بعد الوقت إلى من لا يُرضيه عنه الحلم ولا يقنعه عنه الصفح؛ فحينئذ يحتاج إلى سفيه ينتصر له؛ لأن ترك الحلم في بعض الأوقات من الحلم.

ولقد حدثني محمد بن المنذر، حدثنا يزيد بن عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن ابن إبراهيم، حدثنا الوليد

عن سعيد بن عبد العزيز: إن رجلا استطال على سليمان بن موسى، فسكت له سليمان وانتصر له أخوه، قال: فقال مكحول: ذلَّ مَنْ لا سفيه له.

حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن القاسم عن أبيه فقال: قال أبو حنيفة لشيطان الطاق: ما تقول في المتعة؟ قال: حلال، قال: فَيَسُرُّكَ أن أُمَّكَ تزوجت متعة؟ فسكت عنه ساعة، ثم قال يا أبا حنيفة: ما تقول في النبيذ؟ قال: حلال، قال: وشربه ويبيعه وشرأؤه؟ قال: نعم، قال: فيسرك أن أُمَّكَ نَبَّاذة؟ قال: فسكت عنه أبو حنيفة. أنشدني علي بن محمد البسامي:

إذا كنت بين الحلم والجهل قاعدا
وخيَّرت: أني شئت، فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا
ولم يرض منك الحلم، فالجهل أفضل
وأنشدني محمد بن حبيب الواسطي:

إذا أمن الجهال جهلك مرة
فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الجهل والحلم والفة
بمرتبة بين العداوة والسلام
فيرجوك تارات، ويخشاك تارة
وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم

حدثنا محمد بن عثمان العقي، حدثنا يزيد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا أبو مسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: لا حلم لمن لا جاهل له.

وحدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قال المأمون: يحسنُ بالملوك الحلم عن كل أحد، إلا عن ثلاثة: قادح في ملك، أو مذيع لسر، أو متعرض لحرمة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحلم على ضربين: أحدهما: ما يرد على النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها، ويحلم عن الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل. والآخر: ما يرد على النفس بضد ما تشتهيه من المخلوقين، فمن تعود الحلم فليس بمحتاج إلى التصبر، لاستواء العدم والوجود عنده.

كما حدثنا أبو حمزة محمد بن يوسف بن عمر بنسا، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الله بن صالح العجلي قال: سمعت ابن أبي عتبة يقول: قيل للأحنف بن قيس التميمي، ممن تعلمت الحلم؟ قال من قيس بن عاصم التميمي، أتاه آت وهو محتب، فقال: ابن أخيك قتل ابنك! قال: عصي ربه، وفَتَّ عَضُدَه، وقطع رحمه، جهزوه، وما حلَّ حُبُوتَه، فمنه تعلمت الحلم.

حدثنا محمد بن شاذل الهاشمي، حدثنا أحمد بن الخليل البغدادي، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق، أخبرنا عبد الله عن جعفر بن سليمان قال: كانت امرأة بالبصرة متعبدة تصيبيها المصائب، فنكر من صبرها، حتى أصابتها مصيبة موجعة، فصبرت، فذكرت ذلك لها، فقالت: ما من مصيبة تصيبي فأذكر معها النار إلا صارت في عيني مثل التراب.

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بالبصرة، حدثنا عمرو بن إسحاق بن خلاد الجهضمي، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا ابن وهب عن بكر بن مضر قال: كان أبو الهيثم مات ولده، وبقي له بُنيٌّ صغير، فمات، فأتاه إخوانه يعزونه وهو في ناحية المسجد، فقال لهم: تركني حُزنُ يوم القيامة لا آسي على شيء فاتني، ولا أفرح لما أتاني.

حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي، حدثنا القاسم بن الحسن الزبيدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: مات ابن لشريح، فلم يصيحوا عليه، ولم يشعر به أحد، فقيل له، يا أبا آمنة، كيف هو؟ قال: قد سكن عَـلْزُهُ ورجاه أهله، ولم يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الليلة.

الحث على لزوم الرفق

في أمور وكراهية العجلة فيها

حدثنا محمد بن صالح الطبري بالصيمرة، حدثنا عبد الجبار بن العلاء العطار حدثنا سفيان بن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلي بن مملكة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أعطى حظه ممن الرفق فقد أعطى حظه من الخير، ومن مُنِعَ حظه من الرفق فقد منع حظه من الخير".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأمور كلها وترك العجلة والحفّة فيها؛ إذ الله تعالى يحب الرفق في الأمور كلها، ومن مُنِعَ الرفق منع الخير، كما أن من أعطى الرفق أعطى الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يُحبُّ إلا بمقارنة الرفق ومفارقة العجلة.

وأنشدي المنتصر بن بلال الأنصاري:

والخرق منه يكون العنْفُ والزَلُّ

الرفق ممن سيلقى اليُمنَ صاحِبُهُ

والكف عنها إذا ما أمكنت فَشَلُّ

والحزم أن يتأنى المرء فرصته

والله للبرِّ عونٌ ما له مثل

والبرُّ لله خير الأمر عاقبَةً

لا يصلح القول حتى يصلح العمل

خيرُ البرية قولاً خيراً عملاً

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

والخرق أشأم شيء يقدم الرجل

الرفق أيمن شيء أنت تتبعه

من يركب الرفق لا يستحقب الزللا

وذو الثنبت من حمد إلى ظفر

حدثنا محمد بن أبي علي الخلامي، حدثنا محمد بن خلف البسامي عن أحمد ابن موسى الأزرق أنه أنشده:

بيدي العقول أو العيوب المنطق

وزن الكلام إذا نطقت، فإنما

إن الغريب بكل سهم يُرشق

لا ألفينك ثاويًا في غربة

لم يقضها إلا الذي يترفق

لو سار ألف مُدجج في حاجة

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم الرفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغى عيب، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز ترجى السلامة. وفي ترك الرفق يكون الخرق، وفي لزوم الخرق تخاف الهلكة.

ولقد أنشدني الأبرش:

ففي الجور إهلاك، وفي القصد مسلك

عليك بوجه القصد، فاسلك سبيلهُ

تحمّلها ما لا تطيق فتهلك

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الراق لا يكاد يسبق، كما أن العجل لا يكاد يلحق، وكما أن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم والعجل يقول قبل أن يعلم، ويحجب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجرب، ويذم بعد ما يحمد، يعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه الندامة، وتعزله السلامة، وكانت العرب تكنى العجلة أم الندامات.

ولقد أنشدني بعض أهل العلم:

وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

العجز ضرٌّ، وما بالحزم من ضرر

فإن أمنت فما بالحزم من باس

لا تترك الحزم في أمر تحاذره

أخبرنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب قال: كان يقال: لا يوجد العجول محموداً، ولا الغضوب مسروراً، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا الشره غنياً، ولا الملول ذا

إخوان.

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه
وإن الذي يصطاده الفخُّ إن عتا
تصعَّبَ، حتى لا ترى فيه مُرتقى
على الفخ أعتى وأضيقا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العجلة تكون من الحدة، وصاحب العجلة أن أصاب فرصته لم يكن محموداً، وإن أخطأها كان مذموماً، والعجل لا يسير إلا مناكباً للقصد، منحرفاً عن الجادة، يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفى مساراً، يحكم حكم الورهاء، ويناسب أخلاق النساء.

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا مهدي بن سابق قال: قال خالد بن برمك: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا يتزل به كبير مكروه: العجلة، واللجاجة، والعُجب، والتواني، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة التواني الذل. قال أبو حاتم رضي الله عنه: العجلة موكل بما الندم، وما عجل أحد إلا اكتسب ندامة، واستفاد مذمه؛ لأن الزلل مع العجل، والإقدام على العمل بعد التأني فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الأقدام عليه، ولا يكون العجول محموداً أبداً، والعامل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي فيتجنّبهما معاً، ويجعل لنفسه مسلكا بينهما.

ولقد حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثني إبراهيم بن عاصم قال: سمعت صدقة يقول: سمعت الشمردل يقول: نكح العجز التواني، فولد الندامة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: سبب النجاح ترك التواني، ودواعي الحرمان الكسل، لأن الكسل عدو المروءة، وعذاب على الفتوة، ومن التواني والعجز أنتجت الهلكة، وكما أن الأناة بعد الفرصة أعظم الخطأ كذلك العجلة قبل الإمكان نفس الخطأ، والرشيد من رشد عن العجلة، والخائب من خاب عن الأناة، والعجل مخطئ أبداً، كما أن المثبت مصيب أبداً.

حدثني محمد بن عثمان العقي، حدثنا محمد بن الحسن المصري حدثني نعيم ابن حماد حدثنا ابن المبارك حدثنا معمر قال: كتب عمرو إلى معاوية يعاتبه في التأني "أما بعد، فإن التفهم في الخير زيادة ورشد، وإنه من لا ينفعه الرفق يضره الخُزق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعاني - أو قال: المعالي - ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وتصبره شهوته، ولا يدرك ذلك إلا بقوة الحلم".

وأنشدني محمد بن حبيب الواسطي:

بني إذا ما ساقك الضر فانتد
فللرِّفق أولى بالأريب وأحرز

فلا تحمين عند الأمور تعزراً

فقد يُورث الذل الطويل التعزز

أخبرني محمد بن المنذر حدثنا إسماعيل بن إسحاق حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد عن أيوب قال: قال أكنم بن صيفي: ما يسرني أني نزلت بدار معجزة فأسمنت وألبنت، قيل له: لم؟ قال: لأني أخاف أن أتخذ العجز عادة. وأنشدني المنتصر بن بلال:

وعليك في بعض الأمور صعوبة

والرفق للمستصعبات مدان

وبحسن عقل المرء يثبت حاله

وعلى المغارس تثمر العيدان

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا مهدي بن سابق عن عبد الله ابن عياش عن أبيه قال: شهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال معاوية: كذبت، فقال الأعرابي: إن الكاذب للمتممّل في ثيابك، فقال معاوية: هذا جزاء من يعجل.

الحث على تعلم الأدب

ونزوم الفصاحة

حدثنا الحسين بن إدريس الأنصاري أنبأنا أحمد بن أبي بكر عن مالك عن زيد بن اسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن من البيان لسحراً". قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد شبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر البيان بالسحر؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته والفصيح الذرّبُ اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رامقة.

ولقد حدثنا أبو خليفة حدثنا أبو محمد التوزي النحوي حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا حبان بن عليّ قال: سمعت ابن شُرمة يقول: ما رأيت لباساً على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة من شحم، وإن الرجل ليتكلم فيُعرب، فكأن عليه الخزّ الأدكن، وإن الرجل ليتكلم فيلحن فكأن عليه أسمالا، إن أحببت أن يصغر في عينك الكبير، ويكبر في عينك الصغير؛ فتعلم النحو. وأنشدني الكريزي:

أكرم بذّي أدب أكرم بذّي حسب

فإنما العزم في الأحساب والأدب

والناس صنفان ذو عقل وذو أدب

كمعدنِ الفضة البيضاء والذهب

كانوا موالِيَّ أو كانوا من العرب

وسائر الناس من بين الوري همَج

وأنشدني البسّامي:

بل المسود من قد ساد بالأدب

ليس المسودُّ مَنْ بالمال سوّده

ما دام في جمع ذا الأموال والنشب

لأنَّ من ساد بالأموال سوّده

هُون من الأمر في ذل وفي تعب

إن قلَّ يوماً له مال يصير إلى

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل وأحسن إزار يتّزر به العاقل، والأدب صاحب في الغربية، ومؤنس في القلة، وزين في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل على المروءة، ومن استفاد الأدب في حدائته انتفع به في كبره؛ لأن من غرس فسيلاً يوشك أن يأكل رُطبها، وما يستوي عند أولي النهي، ولا يكون سيان عند ذوي الحجى: رجلان: أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن.

وقد حدثنا الحسين بن محمد بن مصعب السمعاني حدثنا أبو داود حدثنا عبد الله بن بكر بن حبيب حدثنا أبي عن سالم بن قتيبة قال: كنت عند ابن هبيرة فجرى الحديث، حتى ذكروا العربية، فقال: والله ما استوى رجلان حسبهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن، إلا أن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن، قال: فقلت: أصلح الله الأمير! هذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته، أرأيت الآخرة ما باله فضّل فيها؟ قال: إنه يقرأ كتاب الله على ما أنزل، والذي يلحن يحمله لحنه على أن يدخل في كتاب الله ما ليس فيه، ويخرج منه ما هو فيه، قال قلت: صدق الأمير وبراً!

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

إنما الناس لأم ولأب

أيها الطالب فخرًا بالنسب

أو حديد أو نحاس أو ذهب؟

هل تراهم خلقوا من فضة

هل سوى لحمٍ وعظمٍ وعصب؟

أو ترى فضلهم في خلقهم

وبأخلاق كرام وأدب

إنما الفضل بحلم راجح

فلق من فاجر منهم وغلب

ذلك من فاجر في الناس به

وأنشدني محمد بن نصر بن نوفل أنشدني عبد العزيز بن أحمد بن بكار إمام مسجد مكة:

إلا وأحسن منها المرء بالأدب

ما حُلَّةٌ نسجت بالدُّر والذهب

حدثنا محمد بن أبي علي الخلابي حدثنا أحمد بن محمد المسروقي حدثنا محمد بن الحسين البرجلاني حدثنا أبو عمر العمري حدثني عبد الله بن سلمة بن مرداس عن أبيه قال: قال لي رجل ممن حكماء الفرس:

أقربُ القرابة المودة الدائمة، وأفضل ما ورث الآباء الأبناء حسن الأدب.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: أفضل ما ورث أب ابناً ثناء حسن وأدب نافع، والخرس عندي خير من البيان بالكذب، كما أن الحصور خير من العاهر.

فيجب على العاقل أن يذكي قلبه بالأدب، كما يذكي النار بالخطب؛ لأن من لم يذك قلبه رانَ حتى يَسْوَدَّ، ومن تعلم الأدب فلا يتخذه للممارسة عُدَّة، ولا للمباراة ملجأ، ولكن يقصد قصد الانتفاع بنفسه، وليستعين به على ما يقربه إلى بارئه.
ولقد أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أدب المرء كلحم ودمٍ

ما حواه رجل إلا صلحُ

لو وزنتم رجلا ذا أدب

أبنا أحمد بن بشر الكرجي حدثنا محمود بن الخطاب حدثنا رُسْتَة عبد الرحمن بن عمر قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما ندمت على شيء ندامتي أي لم أنظر في العربية.
سمعت إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي يقول: سمعت ابن أخي الأصمعي يقول: سمعت عمي يقول: تعلموا النحو، فإن بنى إسرائيل كفروا بكلمة واحدة، كانت مشددة فخففوها، قال الله "يا عيسى إني ولدتك" فقرأوا يا عيسى إني ولدتك مخفف فكفروا.

حدثنا الحسن بن إسحاق الإصبهاني حدثنا أبو أمية حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا أبو زيد النحوي قال: جاء رجل إلى الحسن، فقال: ما تقول في رجل ترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه، قال الرجل: فما لأباه ولأخاه؟ فقال الحسن: فما لأبيه ولأخيه؟ فقال الرجل: كلما تابعتك خالفت.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا زينة أحسن من زينة الحسب، كما أن من أجمل الجمال استعمال الأدب، ولا حسن لمن لا أدب له، ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له يبلغ به أدبه مراتب أهل الأحساب؛ لأن حسن الأدب خَلَفَ من الحسب، وليست الفصاحة إلا إصابة المعنى والقصد، ولا البلاغة إلا تصحيح الأقسام واختيار الكلام، ومن أحمد الفصاحة الاقتدار عند البداهة والغزارة عند الإطالة، وأحسن البلاغة وضوح الدلالة، وحسن الإشارة.

ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت الأصمعي يقول: ليست البلاغة بخفة اللسان، ولا كثرة الهذيان، ولكن بإصابة المعنى والقصد إلى الحاجة، وإن أبلغ

الكلام ما لم يكن بالقروي المجدّع، ولا البدوي المعرّب.
وأنشدني الكريزي:

ولم أر فضلاً تمّ إلا بشيمة
ولم أر عقل المرء أعدى من الغضب

حدثنا عمر بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن عبد الله الجشمي قال: قال المدائني: ذكر عند علي بن عبد الله بن عباس بلاغة لرجل، فقال: إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله.
قال أبو حاتم رضي الله عنه: الكلام مثل اللؤلؤ الأزهر، والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر، إلا أن بعضه أفضل من بعض، ومنه ما يكون مثل الخنزف والحجر والتراب والمدّر، وأحوج الناس إلى لزوم الأدب وتعلم الفصاحة أهل العلم؛ لكثرة قراءتهم الأحاديث، وخوضهم في أنواع العلوم.
ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل يقول: سمعت أبا داود السنجي أو حدثني سهل بن هاني عنه، قال: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ"؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحناً، ولم يلحن في حديثه، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه.
وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

ليس الفتى كلُّ الفتى
وبعضُ أخلاق الفتى
حتفُ امرئ لسانه
بين اللّهي مقتله

إلا الفتى في أدبه
أولى به من نسبه
في جدّه أو لعبه
رُكّبَ في مركّبه

سمعت أحمد بن الخطاب بن مهران بُسْتَرَّ يقول: سمعت عثمان بن خُرْزَادَ يقول: سمعت علي بن الجعد يقول: سمعت شعبة يقول: مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثل الدابة عليها المخلاة، ليس فيها شيء.

إباحة جمع المال للقائم بحقوقه

حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين ابن بنت الحسن بن عيسى بن ماسرَجِسَ حدثنا جدي حدثنا ابن المبارك أنبأنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا عمرو نِعِمَّا المال الصالح للرجل الصالح".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا الخبر يصرح عن النبي صلى الله عليه وسلم بإباحة جمع المال من حيث
يجب، ويحل للقائم فيه بحقوقه؛ لأن في تقريره الصلاح بالمال والرجل معاً بياناً واضحاً؛ لأنه إنما أباح في
جمع المال الذي لا يكون بمحرم على جامعه، ثم يكون الجامع له قائماً بحقوق الله فيه، ولقد ذكرت هذه
المسألة بتمامها بالعلل والحكايات في كتاب "الفضل بين الغنى والفقير" بما أرجو الغنية فيها لمن أراد
الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.
أنشدني منصور بن محمد الكزيري:

إذا كان ما جمعت ليس بنافع
فأنت وأقصى الناس فيه سواء
على أن هذا خارج من أثامه
وأنت الذي تجزى به وتساء

أبناً محمد بن سليمان بن فارس حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا أبو عبيد حدثنا شعبة عن قتادة
قال: سمعت مُطَرِّفَ بن عبد الله بن الشَّخِيرِ يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم عن أبيه أنه أوصى بنيه
عند موته، فقال: عليكم بالمال واصطناعه فإنه منبهة للكرم، ويستغني به عن اللئيم، وإياكم ومسألة
الناس؛ فإنها آخر كسب الرجل.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من أحسن ما ينتفع المرء "به" في عمره وبعد الممات تقوى الله والعمل
الصالح.

فالواجب على العاقل أن يعمل في شبابه فيما يقيم به أوَدُهُ، كالشيء الذي لا يفارقه أبداً، وفيما يصلح به
دينه كالشيء الذي لا يجده غداً، وليكن تعاهدُهُ ماله ما يصلحُ به معاشُهُ، ويصون به نفسه، وفي دينه ما
يقدم به لآخرته، ويرضى به خالفه، والفاقة خير من الغنى بالحرام، والغنى الذي لا مروءة له أهون من
الكلب، وإن هو طُوقَ وَخُلِجِل.

حدثني محمد بن عثمان العقبي حدثنا عمران بن موسى بن أيوب حدثني أبي حدثنا عيسى بن يونس عن
محمد بن سُوقة عن محمد بن المنكدر قال: نعم العون على تقوى الله الغنى.
وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أرى كل ذي مال يسود بماله
وآخر منسوباً إلى الرأي خاملاً
وإن كان لا أصل هناك ولا فصل
ولم أرَ هذا ضرَّه النُّوكُ والجهلُ
فلا ذا بفضل الرأي أدرك بُلغةً

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي ليحيى بن أكثم:

إذا قلَّ مال المرء قلَّ بهاؤه
وأصبح لا يدري، وإن كان حازماً
ولم يمض في وجه من الأرض واسع
وأصبح مردوداً عليه مقاله
وإن يبق لم يضرُّ عدوًّا بقاؤه
وإن يفن لم يفقد لخير فناؤه
وضاقت عليه أرضه وسماؤه
أفدَّامه خيرٌ له أم وراؤه
من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه
وكان به قد يقنتي خطباؤه
وإن يفن لم يفقد لخير فناؤه

حدثني محمد بن المهاجر حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري عن سليمان بن أبي شيخ حدثني الزبير بن قال: مر عمر بن الخطاب بمحمد بن مسلمة وهو يغرس ودياً. فقال: ما تصنع يا ابن مسلمة؟ قال: ما ترى، استغنى عن الناس، كما قال صاحبكم أحيحة بن الجلاح:

استغن، أو مُت، فلا يغررك ذو نَشْبِ
إني أظُلُّ على الزوراء أعرها
من ابن عم، ولا عم، ولا خال
إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال

أبأننا محمد بن المنذر حدثنا علي بن عبد الرحمن عن عبدان قال: دخلت على عبد الله المبارك، وهو يبكي، فقلت له: مالك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: بضاعة لي ذهبت، قال: قلت: أو تبكي على المال؟ قال: إنما هو قوام ديني.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من أسعد الناس من كان في غناه عفيفاً، وفي مسكنته قنعاً؛ لأن من نزل به الفقر لم يجد بُدّاً من ترك الحياء، والفقر يذهب العقل والمروءة، ويذهب العلم والأدب، وكاد الفقر أن يكون كفراً، ومن عُرف بالفقر صار مَعْدِنًا للتهمة، ومجمعاً للبلايا، اللهم إلا أن يرزق المرء قلباً نقياً قنعاً، يرى الثواب المدخر من الضجر الشديد، فحيث لا يبالي بالعالم بأسرهم والدنيا وما فيها، والفقر داعية إلى المهانة، كما أن الغنى داعية إلى المهابة، ولقد أحسن الذي يقول:

يغطِّي عيوبَ المرءِ كثرةُ ماله
ويُزري بعقل المرءِ قلةُ ماله
وصدَّقَ فيما قال، وهو كذوبُ
يُحمِّقه الأَقوامُ وهو لبيبُ

أبأننا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي حدثنا النمر بن قادم حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب، الزم سوقك؛ فإنك لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إليهم. وأنشدني العقبى أنشدني محمد بن خلف التيمي بالكوفة:

كأن مُقلاً حين يغدو لحاجة
إلى كل من يلقي من الناس مذنبُ

فلما رأوني مُعْدِمًا مات مرحباً

وكان بنو عمي يقولون: مرحبا

وأنشدني الكريزي:

نسيباً، وإن الفقر بالمرء قد يُزري

لعمرك، إن المال قد يجعل الفتى

ولا وضع النفس الكريمة كالفقر

ولا رفع النفس الدنيئة كالغنى

حدثنا محمد بن يحيى العمى ببغداد حدثنا الصلت بن مسعود حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب قال: قال لي أبو قلابة: الزم السوق؛ فإن الغنى من العافية.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ليس خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب؛ فإن كان الفقير حليماً قيل: بليد، وإن كان عاقلاً قيل: مكار، وإن كان بليغاً قيل: مهذار، وإن كان ذكياً قيل: حديد، وإن كان صموتاً قيل: عبي، وإن كان متأنياً قيل: جبان، وإن كان عارماً قيل: جري، وإن كان جواداً قيل: مسرف، وإن كان مقدراً قيل: ممسك.

وشر المال ما اكتسب من حيث لا يحلّ وأنفق فيما لا يحتمل، ووجوده وعدمه ليسا بتجلد ولا بكثرة حيلة، ولكنه أقسام ومواهب من الخلاق العليم ولقد أنشدني الأبرش:

ويُسعدُ الله أقواماً بأقوام

يشقى رجالاً، ويشقى آخرون بهم

لكن جُدود بأرزاق وأقسام

وليس رزق الفتى من حُسْن حيلته

يرمى فيرزقهُ من ليس بالرامي

كالصيد يُحرمهُ الرامي المجيد، وقد

حدثني محمد بن سعيد القزاز حدثنا أحمد بن داود بن موسى العطار حدثنا أحمد بن نصر العدني حدثنا المندني قال: قال أبو قيس بن معد يكرب، وكان له أحد عشر ذكراً: يا بني، اطلبوا هذا المال أجمل الطلب، واصرفوه في أحسن مذهب، صلوا به الارحام، واصطنعوا به الأقوام، واجعلوه جنة لأعراضكم تحسن في الناس قالتكم، فإن جمعه كمال الأدب، وبذله كمال المروءة، حتى إنه ليسود غير السيد، ويقوى غير الأيد، وحتى إنه ليكون في أنفاس الناس نبيها، وفي أعينهم مهيبا. ومن جمع مالا فلم يصن عرضاً، ولم يعط سائلاً، بحث الناس عن أصله؛ فإن كان مدخولاً هتكوه، وإن كان صحيحاً نسبوه إما إلى عرض دنية، وإما إلى لوص لثيم حتى يهجنوه.

حدثني مطهر بن يحيى بن ثابت بواسط محدثنا سنان القطان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال "سمع رجل صوتاً في غمام: أذهبي إلى أرض فلان فاسقيه، قال: فقال الرجل: لآتين فلانا هذا فلأنظرن ما يعمل في أرضه، فأتاه وقد مُطر فيها وهو قائم يفتح الأوعي، فسلم عليه وقال: يا عبد الله،

أخبرني ما تعمل في أرضك هذه؟ قال: أنظر إلى ما أخرج الله منها، فأرد فيها ثلثه، وأتصدق بثلثه، وأكل أنا وعبالي ثلثه. قال علقمة: فكان ابن مسعود يبعثني إلى أرض له بزازان أفعل فيها مثل ذلك".
 قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن شر المال ما لا يُخرج منه حقوقه، وإن شراً منه ما أخذ من غير حله، ومنع من حقه، وأنفق في غير حله، واستثمار المال قوام المعاش، ولا بد للمرء من إصلاح ماله، وما ارتفع أحد قط عن إصلاح ماله صالحاً كان أو طالحاً.
 ولا يجب للعاقل أن يعتمد على مجاورة نعم الله عنده فلا يقضى منها حقوقها؛ لأن من أساء مجاورة نعم الله أساءت مجاورته، وتحولت عنه إلى غيره.
 ولقد أنشدني أن زنجي البغدادي:

فإن كنت في خير، فلا تغترر به
 ولكن قل: اللهم سلم وتمم

فمن لم يصن عرضاً إذا ما استفاده
 ويشكر لأهل الخير يسلب ويذمم

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي أنشدنا مهدي بن سابق:

ورب مملك ما لا كثيرا
 ولكن حظ منه قليل

يعيش بفضله هذا وهذا
 وقد سالت به فيه سيول

له منه الذي يحيا عليه
 بعيشته، وسائر فضول

حدثنا أحمد بن الحسين الحرابي - بالموصل - حدثنا أحمد بن سنان القطان حدثنا كثير بن هشام عن عيسى بن إبراهيم عن معاوية بن عبد الله عن كعب قال: أول من ضرب الدينار والدرهم آدم، وقال: لا تصلح المعيشة إلا بهما.
 قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات في كتاب "السخاء والبذل" فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

الحث على إقامة المروءات

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي وعبد الله بن محمود بن سليمان السعدي قالوا: حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكي حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقة".
 قال أبو حاتم رضي الله عنه: صرح النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب واجتناب الخطأ.

فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال الحمودة، وترك الخلال المذمومة.

وقد نبغت نابغة اتكلوا على آبائهم، واتكلوا على أجدادهم، في الذكر والمروءات، وبعدوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم.

ولقد أنشدني منصور بن محمد في ذمّ من هذا نعتة:

إن المروءة ليس يُدركها امرؤ
أمرته نفس بالدناءة والخنأ
ورثَ المروءة عن أبٍ، فأضاعها
ونهته عن طلب العلى فأطاعها
فإذا أصاب من الأمور عظيمةً
يبني الكريم بها المروءة باعها
وأنشدني محمد بن إسحاق:

خساسة أخلاق الرجال تشينهم
يصولون بالآباء في كل مشهد
وقلّ غناء عنهم النسب المحضُ
وقد غيّبت آباءهم عنهم الأرضُ
طويلٌ تبدّيتهم بمجد أبيهم
وما لهم في المجد طول ولا عرضُ
وأنشدني الحسين بن أحمد البغدادي:

ليس الكريم بمن يُدنس عرضه
حتى يشيدَ بناءه ببناته
ويرى مروءته تكون ممن مضى
ويزينَ صالحَ ما أتوه بما أتى

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أخسرَ صفقة، ولا أظهرَ حسرة، ولا أحيبَ قصداً، ولا أقلّ رشداً، ولا أحمقَ شعاعاً، ولا أدنسَ دثاراً، من المفتخر بالآباء الكرام وأخلاقهم الجسام، مع تعرّيه عن سلوك أمثالهم، وقصد أشباههم، متوهماً أنهم ارتفعوا بمن قبلهم، وسادوا بمن تقدمهم، وهيهات! أتى يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه؟ وأتى ينبل في الدارين إلا بكده؟ ولقد أنشدني البسامي:

وكم قائل: إني ابن بيت، هو ابنه
فأودى عموداه، ورثت حباله
وقد هدم البيت الذي مات عامرُه
وأصلح أولاده، وأفسد آخرُه

وأنشدني الأبرش:

فإن قلت: لي آباءٌ صدق ومنصبٌ
صدقت، ولكن أنت هدمت ما بنوا
كريم وإخوانٌ مضت وجودُ
بكفك عمداً، والبناء جديداً

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

لم يغن عنك سُمُو من تسمو به

إن لم تكن بفعال نفسك سامياً

إن لم تجده آخذاً بنصيبه

ليس القديم على الحديث تراجع

وغدا القريب مباعداً لقريبه

ولربما اقترب البعيد بوُدّه

أنبأنا الحسين بن محمد بن مصعب السنجي حدثنا أبو داود السنجي حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال: لا دين إلا بمروءة.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: اختلف الناس في كيفية المروءة: فمن قائل قال: المروءة ثلاثة: إكرام الرجل إخوان أبيه، وإصلاحه ماله، وعوده على باب داره.

ومن قائل قال: المروءة: إتيان الحق، وتعاهد الضيف.

ومن قائل قال: المروءة: تقوى الله، وإصلاح الضيعة، والغذاء والعشاء في الألفية.

ومن قائل قال: المروءة: إنصاف الرجل مَنْ هو دونه، والسمو إلى من هو فوقه، والجزاء بما أتى إليه.

ومن قائل قال: مروءة الرجل: صدق لسانه، واحتماله عثرات جيرانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفّه الأذى عن أباعده وجيرانه.

ومن قائل قال: إن المروءة: التباعد من الخلق الدنيّ فقط.

ومن قائل قال: المروءة: إن يعتزل الرجل الريبة؛ فإنه إذا كان مريباً كان ذليلاً، وأن يصلح ماله؛ فإن من أفسد ماله لم يكن له مروءة، والإبقاء على نفسه في مطعمه ومشربه.

ومن قائل قال: المروءة: حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يعاب منه.

ومن قائل قال: المروءة: سخاوة النفس، وحسن الخلق.

ومن قائل قال: المروءة العفة والحرفة، أي يعف عما حرم الله، ويحترف فيما أحل الله.

ومن قائل قال: المروءة: كثرة المال والولد.

ومن قائل قال: المروءة: إذا أعطيت شكرت، وإذا ابتليت صبرت، وإذا قدرت غفرت، وإذا وعدت أنجزت.

ومن قائل قال: المروءة: حسن الحيلة في المطالبة، ورقة الظرف في المكاتبة.

ومن قائل قال: المروءة: اللطافة في الأمور، وجودة الفطنة.

ومن قائل قال: المروءة: مجانبة الريبة؛ فإنه لا ينبئ مريب، وإصلاح المال؛ فإنه لا ينبئ فقير، وقيامه بحوائج أهل بيته؛ فإنه لا ينبئ من احتاج أهل بيته إلى غيره.

ومن قائل قال: المروءة: النظافة، وطيب الرائحة.

ومن قائل قال: المروءة: الفصاحة والسماحة.

ومن قائل قال: المروءة: طلب السلامة، واستعطاف الناس.

ومن قائل قال: المروءة: مراعاة العهود، والوفاء بالعقود.

ومن قائل قال: المروءة: التذلل للأحباب بالتملق، ومداراة الأعداء بالترفق.

ومن قائل قال: المروءة: ملاحظة الحركة، ورقة الطبع.

ومن قائل قال: المروءة: هي المفاكهة، والمباهمة.

حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن عبيد الله أبو فراس قال: قال ربيعة:

المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة: فأما مروءة السفر فبذل الزاد، وقلة الخلاف على

الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساحط الله.

وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله، وقراءة القرآن.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: اختلفت ألفاظهم في كيفية المروءة، ومعاني ما قالوا قريبة بعضها من بعض.

والمروءة عندي خصلتان: اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال، واستعمال ما يحب الله ورسوله من

الخصال.

وهاتان الخصلتان يأتيان على ما ذكرنا قبل من اختلافهم، واستعمالها هو العقل نفسه، كما قال المصطفى

صلى الله عليه وسلم "إن مروءة المرء عقله".

ومن أحسن ما يستعين به المرء على إقامة مروءته المال الصالح.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

فمن المروءة أن يُرى لك مالُ

احتل لنفسك أيها المحتالُ

عنهم هناك تكلمُ الأموالُ

كم ناطق وسط الرجال، وإنما

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لو احب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه، ولا سبيل إلى إقامة مروءته

إلا باليسار من المال، فمن رزق ذلك وضمَّ بإنفاقه في إقامة مروءته فهو الذي خسر الدنيا والآخرة، ولا

آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريها، وتودعه قبرا وحيدا. ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمده،

وينفقه ولا يشكره، فأى ندامة تشبه هذه؟ وأي حسرة تزيد عليها؟ ولقد أنشدني محمد بن عبد الله

البغدادي:

هل أنت بالمال قبل الموت منتفعٌ؟

يا جامع المال في الدنيا لوارثه

قدم لنفسك قبل الموت في مهلٍ

فإن حظك بعد الموت منقطعٌ

أنبأنا المفضل بن محمد الجندي - بمكة - حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطبري حدثنا أزهر عن ابن عون عن ابن سيرين قال: ثلاثة ليست من المروءة: الأكل في الأسواق، والأدهان عند العطار، والنظر في مرآة الحمام.

حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني حدثنا هُشَيْمٌ عن مغيرة عن الشعبي قال: ليس من المروءة النظر في مرآة الحمام.

حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن العمي ببغداد حدثنا الصلت بن مسعود حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب قال: سمعت أبا قلابة يقول: ليس من المروءة أن يريح الرجل على صديقه. وأنشدني البسامي:

اعلم بأنك

لا أبا لك في الذبأصبحت تجمعه لغيرك خازنٌ

إن المنية لا تؤامر من أنت

في نفسه يوماً، ولا تستأذنُ

أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا ابن عائشة عن أبيه قال: كان يقال: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تذكى القلوب حدثني محمد بن أبي علي الخلامي حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري عن سليمان بن أبي شيخ حدثنا محمد بن الحكم عن عوانة قال: قال معاوية بن أبي سفيان: آفة المروءة إخوان السوء. قال أبو حاتم رضي الله عنه: والواجب على العاقل تفقد الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لا يثلم مروءته؛ فإن المحقرات من ضد المروءات تؤذي الكامل في الحال بالرجوع في القهقري إلى مراتب العوام وأوباش الناس.

ولقد حدثنا جعفر بن محمد الهمداني - بصور - قال: سمعت طلحة بن إسحاق ابن يعقوب قال: سمعت موسى بن إسحاق الأنصاري يقول: سمعت علي بن حكيم الأودي يقول: سمعت شريكا يقول: ذل الدنيا خمسة: دخول الحمام سَحْرًا بلا كرنيب، وعبور المعبر بلا قطعة، وحضور مجلس العلم بلا نسخة، وحاجة الشريف إلى الدين، وحاجة الرجل إلى امرأته.

حدثنا أبو شعبة الحسن بن محمد الإصطخري حدثنا عبد الرحمن بن محمد ابن منصور، حدثنا محمد بن عبد العزيز الرملي، حدثنا رشدين بن سعد، حدثنا طلحة بن زيد بن عكرمة، عن ابن عباس قال: "من قلة مروءة الرجل نظره في بيت الحائك، وحمله الفلوس في كفه".

الحث على لزوم السخاء

ومجانبة البخل

أنبأنا أحمد بن يحيى بن زهير بُسْتَرَّ، حدثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي حدثنا سعيد بن محمد الوراق، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "السخي قريب من الله قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، ولسخي جاهل، أحبُّ إلى الله من بخيل عابد".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن كان حفظ سعيد بن محمد إسناد هذا الخبر فهو غريب غريب. فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى من حُطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة: إن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله، والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغياً بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا، إذ السخاء محبة ومحمدة كما أن البخل مذمة ومبغضة، ولا خير في المال إلا مع الجود، كما لا خير في المنطق إلا مع المخبر.

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري.

الجود مكرمة، والبخل مبغضة

والفقر فيه شخوص، والغنى دعة

حدثني محمد بن أبي علي الخلابي حدثنا محمد بن الحسن الذهلي، حدثنا محمد بن يوسف السدوسي، حدثنا أحمد بن خالد القثمي، حدثنا سليمان مولى عبد الصمد بن علي: إن المنصور أمير المؤمنين قال لابنه المهدي "أعلم أن رضاء الناس غاية لا تُدرَك، فتحب إليهم بالإحسان جهدك، وتودد إليهم بالإفضال، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم".

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

أعادنتي اليوم، ويحكما مهلاً

دعاني نجد كفي بما ملكت يدي

إذا وضعوا فوق الضريح جنادلا

فلا أنا مختار إذا ما نزلته

وكف الأذى عني، ولا تكثر العذلا

سأصبح يوماً أترك الجود والبخلا

علي وخلفت والرحلا

ولا أنا لاق ما ثويت به أهلا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطي، حدثنا لوين، حدثنا ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال: كان أبي يقول: "مال قوم قط أقاموا على ماء عذب" حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا بكر بن عامر

العتريّ، حدثنا هشام ابن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال "من آتاه الله منكم مالا فليصل به القرابة، وليُحسِّن فيه الضيافة، وليُفكِّ فيه العاني والأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر فيه على النائبة؛ فإن بهذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة".
قال أبو حاتم رضي الله عنه: أجود الجود من جاد بماله، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد، كما أن من يخل رذل.

والجود حارس الأعراض، كما أن العفو زكاة العقل، ومن أتم الجود أن يتعرّى عن المنة؛ لأن من لم يمتن بمعروفه فقد وفره، والامتنان يهدم الصنائع، وإذا تعرّت الصنعة عن إزار له طرفان: أحدهما الامتنان، والآخر طلب الجزاء - كان من أعظم الجود، وهو الجود على الحقيقة. ولقد أنشدني ابن زنجي:

يا رَبِّ عاذلة في الجود قلت لها:
قلّي، على الله فيما أنفق الخلفاً
هل من بخيل رأيت المال أخذه؟
أم هل رأيت جواداً ميتاً عجفاً؟
لما رأنتي أوتي المال طالبةً
ولا أبالي تлада كان أم طرفاً
عدت سماحي تبذيراً، ولست أرى
ما يكسبُ الحمدَ تبذيراً ولا سرفاً

أنبأنا الحسين بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى قال: قسم ابن المبارك يوماً بين إخوانه وأصحاب الحديث ألف درهم، ثم أنشأ يقول:

لا خير في المال لكنّاه
إلا جواد الكف وهّابه
يفعل أحياناً بزوّاره
ما تفعل الخمر بشرابه

حدثنا محمد بن عثمان العقبّي، حدثنا الحسن بن محمد عن ابن السماك، قال: يا عجي لمن يشتري الممالك بالثمن، ولا يشتري الأحرار بالمعروف.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من أحسن خصال المرء الجود من غير امتنان، ولا طلب ثواب، والحلم من غير ضعف ولا مهانة.

وأصل الجود ترك الضنّ بالحقوق عن أهلها، كما أن أصل تربية الجسد أن لا يحمل عليه في الأكل والشرب والباه، فكما لا تنفع المروءة بغير تواضع، ولا الحفظ بغير كفاية، كذلك لا ينفع العيش بغير مال، ولا المال بغير جود، وكما أن القرابة تبع للمودة، كذلك المحمدة تبع للإتفاق.

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا المبارك ابن سعيد الثوري قال: كان

يقال: ثلاث هن أحسن شيء فيمن وجدت فيه: تؤدة في غير ذل، وجود لغير ثواب، ونصب لغير الدنيا.
حدثنا أبو يعلى - بالموصل - حدثنا محمد بن الصباح الدولابي، حدثنا إسماعيل ابن زكريا عن عاصم
الأحول قال: قلت للحسن: ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم "اليد العليا خير من اليد السفلى"؟ قال: يد
المعطي خير من يد المانع.

حدثنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان عن الأعمش عن ذكوان وعبد الله بن مرة عن كعب قال:
من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله: فقد استكمل الإيمان.
وأنشدني الكريزي ليحيى بن أكرم:

ويُظهرُ عيبَ المرء في الناس بخله ويستتره عنهم جميعا سخاؤه

تغطُّ بأثواب السخاء؛ فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وأنشدني أحمد بن محمد بن عبد الله اليماني لبعض القرشيين:

سأبدلُ مالي كلما جاء طالبٌ وأجعله وقفا على القرض والقرض

فإما كريما صُننتُ بالجود عرضُه وإما لئيمًا صُننتُ عن لؤمه عرضي

وأنشدني كامل بن مكرم أبو العلاء، أنشدني هلال بن العلاء بن عمر الباهلي:

ملأتُ يدي من الدنيا مرارا فما طمع العواذل في اقتصادي

وما وجبتُ علي زكاة مالٍ وهل تجب الزكاة على الجواد؟

قال أبو حاتم رضي الله عنه: البخل شجرة في النار أغصانها في الدنيا، مَنْ تعلق بغصن من أغصانها جره إلى
النار، كما أن الجود شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها جرّه إلى الجنة، والجنة
دار الأسخياء.

والبخيل يقال له في أول درجته: البخيل، فإذا عتا وطغى في الإمساك يقال له: الشحيح، فإذا ذم الجود

والأسخياء يقال له: لئيم، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذرهم في فعالهم يقال له: الملائم.

وما أتزر رجل بإزار أहतك لعرضه، ولا أتلم لدينه من البخل.

ولقد أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

لكلِّ همٍّ من الهموم سعة والبخل واللؤم لا فلاح معه

قد يجمع المالَ غيرُ آكله ويأكل المالَ غير من جمعه

أقبلُ من الدهر ما أتاك به من قرٍّ عينا بعيشه نفعه

سمعت الخطابي بالبصرة يقول: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سألت كسرى: أي شيء أضر على ابن آدم؟ قالوا: الفقر، قال الشح أضرُّ منه، إن الفقير إذا وجد اتسع، وأن الشحيح لا يتسع إذا وجد. أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب حدثنا ابن أبي القعقاع قال: قال أبو الهذيل: كنت عند يحيى بن خالد البرمكي، فدخل عليه رجل هندي، ومعه مترجم له، فقال المترجم: إن هذا رجل شاعر، قد حاول مدحتك، فقال يحيى: لينشد، فقال الهندي: أره أصره ككرا كي كره مندره فقال يحيى للمترجم: ما يقول؟ قال: يقول:

فإنما بك يضربُ المثل

إذا المكارم في آفاقنا ذكرت

قال: فأمر له بألف دينار.

وأنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي:

فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلٌ

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عريضه

فليس إلى حسن الثناء سبيلٌ

إذا قلت: لا، في كل شيء سئلته

وأنشدني عمرو بن محمد الأنصاري أنشدني الغلابي أنشدني مهدي بن سابق:

تطمع بالله في الخلود معاً؟

يا مانع المال، كم تَضِنُّ به

أما تراه لغيره جمعة؟

هل حمل المال ميتاً معه؟

أنبأنا عمران بن موسى السخيتاني حدثنا سليمان بن معبد المروزي حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن أبي علي الغافقي سمع عامر بن عبد الله اليحصبي قال: كان ابن منبه يقول: أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله، وإن رآه الناس بخيلاً بما سوى ذلك، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله، وإن رآه الناس كريماً جواداً بما سوى ذلك. وأنشدني علي بن محمد البسامي:

وهو عن ربه قليل الغناء

رب مال سينعمُ الناس فيه

ثم أضحي لمعشر غرباء

كان يشقي به، وينصب فيه

نعموا فيه غير سوء الثناء

ماله عندهم جزاء إذا ما

وغنيَّ يعد في الفقراء

رب مال يكون ذمّاً وغمّاً

حدثنا أحمد بن الحسن بن أبي الصغير المدائني حدثنا الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: كان أبو حاتم - يعني الطائي - سخياً، وكان يضع الأشياء مواضعها، وكان حاتم مبدراً، فاجتمع يوماً عند أبيه

أصحابه، وشكا إليهم حاتماً، قال: والله ما أدري ما اصنع؟ لا يأخذ شيئاً إلا بَدْرَه، فاجتمع رأيهم على أن لا يعطيه شيئاً سنة، قال: فأقام أبوه، ولم يمكنه من شيء سنة، مع ما هو فيه من الضر، فلما مضت السنة أمر له بمائة ناقة حمراء، قال: فلما وقفت عليه قال حاتم: من أحب شيئاً فهو له، حتى أخذوها كلها، فدعاه أبوه، فقال له: أي بني، ماذا تصنع؟ قال: والله يا أبي لقد بلغ الجوع مني شيئاً، لا يسألني أحد شيئاً إلا أعطيته إياه.

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

تجوّدُ بالمالِ على وارثٍ ولا ترى أهلاً له نفسكا
قدّمَ حسنَ الظنِّ بالله مَنْ جادَ، وسوءَ الظنِّ من أمسكا

أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذا الشعر ويعجبه:

وما تزوّدَ مما كان يجمعه إلا حنوطاً غداة البين مع خرقِ
وغيرَ نَفْحَةٍ أعواد تُشُدُّ له وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

أنبأنا أبو يعلى حدثنا يحيى بن أيوب المقابري حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن نافع قال "مرض ابن عمر بالمدينة، فاشتتهى عنباً بغير زمانه، قال: فطلبوا، فلم يجدوا إلا عند رجل، فاشترى سبع حبات بدرهم، فجاء سائل فأمر له به، ولم يذقه" قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما رأيت أحداً من الشرق إلى الغرب ارتدى برداء الجود وأثرَ بإيزار ترك الأذى إلا رأس أشكاله وأضداده، وخضع له الخاص والعام، فمن أراد الرفعة العالية في العقبي، والمرتبة الجليلة في الدنيا، فليزِم الجود بما ملك، وترك الأذى إلى الخاص والعام، ومن أراد أن يهتك عرضه، ويثلم دينه، ويملّه إخوانه، ويستثقله حيرانه، فليزِم البخل. ولقد ذم البخل أهل العقل في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا، فمنه ما أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

كأنما نُقرت كَفَاه من حجر فليس بين يديه والنّدى عملُ
يرى التّيمم في بحر وفي بلد مخافة أن يرى في كَفَه بللُ

وأنشدني عمرو بن محمد أنشدني الغلابي أنشدنا مهدي بن سابق:

لو أن دارك أنبتت لك، واحتشّت إيراً يضيّق بها فناء المنزلِ
وأذاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيّط قدّ قميصه لم تفعل

وأنشدني أحمد بن محمد بن أيوب:

وكفّك لم يخلقا للندى

ولم يك بخلهما بدّعه

فكفّ عن الخير مقبوضة

وتسع مئيتها لها شرّعه

وأخرى ثلاثة آلافها

سمعت محمد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سمعت محمد بن صالح الوركاني يقول: قيل للنضر بن شميل: أي بيت قالته العرب أسخى؟ قال: الذي يقول:

لجادَ بها، فليتق الله سائله

فلو لم تكن في كفّه غيرُ روحه

قال: وأي بيت قالته العرب أبخل؟ فقال:

ما سقطت من كفّه خردلة

لو جعل الخردل في كفّه

قال: وأي بيت قالته العرب أهجى؟ فقال:

والعجرفيات ينجزن المواعيدا

العجرفيون لا يوفون ما وعدوا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل، إذا لم يُعرف بالسماحة، أن لا يعرف بالبخل، كما لا يجب، إذا لم يعرف بالشجاعة، أن يعرف بالجن، ولا إذا لم يعرف بالشهامة أن يعرف بالمهانة، ولا إذا لم يعرف بالأمانة أن يعرف بالخيانة، إذ البخل بئس الشعار في الدنيا والآخرة، وشر ما يُدّخر من العمال في العقي.

حدثنا أحمد بن عمرو بن جابر بالرملة، حدثنا أبو عتبة الحمصي أحمد بن الفرّج حدثنا ضمرة، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أفّ للبخل، والله لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان ثوباً ما لبسته.

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا العباس بن بكار الهذلي قال: قال الحسن: من أيقن بالخلفِ جاد بالعطية.

الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان

حدثنا محمد بن صالح الطبري حدثنا عبد الله بن عمران الأصبهاني - بالري - حدثنا يحيى بن ضريس، حدثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أجيبوا الداعي، ولا تردوا الهدية، ولا تضربوا المسلمين" قال أبو حاتم رضي الله عنه: زجر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين.

فالواجب على المرء إذا أهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردها، ثم يثيب عليها إذا قدر، ويشكر عنها، وإني لأستحب للناس بعثَ الهدايا إلى الإخوان بينهم، إذ الهدية تورث المحبة، وتذهب الضغينة. ولقد حدثنا محمد بن المهاجر، حدثنا الدارمي، حدثنا عبد الله بن صالح، أنبأنا الليث قال: سمعت عبد الملك بن رفاعة الفهمي يقول: الهدية هو السَّحْرُ الظاهر. حدثني إبراهيم بن أبي أمية بطرسوس، حدثنا حامد بن يحيى البلخي، حدثنا سفيان قال: لما قعد أبو حنيفة قال للناس مُسَاوِرُ الْوَرَاقِ:

كنا من الدِّينِ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَعَةٍ حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهم تعالبت ضبَّحت بين النواويس

قال: فبلغ ذلك أبا حنيفة، فبعث إليه بمال، فقال مساور حين قبض المال:

إذا ما الناسُ يوماً قايِسونا بأبْدَةٍ مِنَ الْفَنِيَا طَرِيفَةً
أتيناهم بمقياس صحيح مصيب من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاهها وأثبتها بحبر في صحيفة

وأنشدني الكريزي:

إن الهدية حلوة كالسحر تختلبُ القلوبا
تدني البعيد من الهوى حتى تُصيرهُ قريبا
وتعيد مضطغن العدا وة بعد بغضته حبيبا
تنفي السخيمة من ذوي الشِّ حنًا وتمتحن الذنوبا

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني - بالكرج - وإبراهيم بن محمد الدستوائي بتستر قالوا: حدثنا محمد بن عبيد بن عتبة الكندي حدثنا بكار بن أسود العامري حدثنا إسماعيل بن أبان قال: بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه، فبعث إليه بكسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش، فقبل له: كيف تدمه ثم تمدحه؟ قال: إن خيشمة حدثني عن عبد الله قال "إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قال لنا هذان الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا أهابه، قال: والبشر مجبولون على محبة الإحسان، وكرهية الأذى، واتخاذ المحسن إليهم حبيباً، واتخاذ المسيء إليهم عدواً.

فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قدر عليه لاستجلاب محبتهم إياه، ويفارقه تركه مخافة

بعضهم.

ولقد أنشدني الأبرش:

هدايا الناس بعضهم لبعض
وتزرع في الضمير هوى وودا
مصابد للقلوب بغير لغب
وتمنحك المحبة والجمالا
تولد في قلوبهم الوصالا
وتكسوك المهابة والجلالا

حدثني محمد بن سعيد القزاز، حدثنا عبد الله بن لقمان البهراني النجرائي حدثنا موسى بن أيوب، حدثنا خدش بن المهاجر عن الحسن بن دينار عن ابن سيرين قال: كانوا يتهادون الدراهم في الجوالقات والأطباق.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يستعمل الأشياء على ما يوجب الوقت، ويرضى بنفاد القضاء، ولا يتمنى ضد ما رزق، وإن كان عند الشيء التافه يجب أن لا يتمتع من بذله لاستحقاقه واستقلاله؛ لأن أهون ما فيه لزوم البخل والمنع، ومن حقر شيئاً منعه، بل يكون عنده الكثرة والقلة في الحالة سيان؛ لأن ما يورث الكثير من الخصال أورث الصغير بقدره من الفعال.

حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب عن الأصمعي قال: دخلنا على كهمس العابد، فجاء بخمسة وعشرين بسرة حمراء، فقال: هذا الجهد من أخيكم، والله المستعان.

وأنشدني ابن زنجي:

إن المنى عجبٌ لله صاحبها
فإن ترى عبراً فيهنّ معتبرٌ
لا تحقرنّ من الإحسان محقرة
أحسن، فعاقبة الإحسان حسناه
لعلّ حتفٌ امرئٍ فيما تمناه
يجري بها قدر، فالله أجراه

حدثنا محمد بن أيوب بن مشكان - بطبرية قسبة الأردن - حدثنا أبو عتبة حدثنا سلمة بن عبد الملك العرضي حدثنا المعافي بن عمران قال: سمعت ميمون يقول: من رضي من خلة الإخوان بلا شيء فليواخ أهل القبور.

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي حدثنا محمد بن الوليد بن أبان العقيلي حدثنا نعيم بن حماد قال: أنشدني ابن المبارك:

ما ذاق طعم الغنى من لا فنوع له
ولن ترى قانعا ما عاش مفتقرا

والعرف من يأتيه يَحْمَد عواقبه

ما ضاع عُرْف، ولو أوليته حجرا

سمعت يوسف بن يونس الفرغاني يقول: بعث أبو السنور الشاعر إلى الأمير أبي الأشعث بطبق ورد يوم النيروز هدية، وبعث إليه بهذه الأبيات:

بعثنا ببرٍ تافه، دون قدركم

وما تبعث الألفاظ للقلِّ والكثُر

ولكنَّ ظرفاً أن تزيد مودة

فهل تكرمنا بالقبول وبالعذر؟

لو كان بري حسَبَ ما أنت أهله

أتاك إذا رُوحى على طبق البر

سمعت عمر بن محمد الهمداني يقول: سمعت وزيره بن محمد الغساني يقول: قدم بعض الكتاب العسكر، فأهدى إليه إخوانه، وكان فيهم مَنْ قعدت به الحال، فوجّه إليه بدقّة وأشنان، وكتب إليه: لو تمت الإرادة - جعلت فداءك! - ببلوغ النية فيه، ومَلَكتني الجدة بسَطَ القدرة لأتعبت السابقين إلى برك، ولبرزت أمام المجتهدين في فضلك، ولكن البضاعة قعدت بالهمة، وقصرت عن مساماة أهل النعمة، وكرهت أن تطوى صحيفة البر، وليس فيها ذكر، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، وبالمختتم به لطيبه ونفعه، مقتصراً عن ألم التقصير فيه، فأما ما سوى ذلك فالمعبر عني في قوله الله "9:91 ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج" والسلام.

حدثنا محمد بن يوسف الأرمي، حدثنا إبراهيم بن عبد العزيز الموصللي، حدثنا محمد بن علي بن الفضل المدني، حدثنا عبد الله بن شعيب الزبيري، حدثنا محمد ابن إسحاق المسيبي عن القاسم بن المعتمر عن حميد بن معيوف عن أبيه قال "كنت ممن شهد الحكم بن حنطب بمنج، وهو يريد أن يموت، وقد كان لقي من الموت شدة، فقلت - أو قال رجل - : اللهم هَوِّنْ عليه الموت، فلقد كان، ولقد كان. فأثني عليه، فأفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟ قال المتكلم: أنا. قال: إن ملك الموت يقول: إني بكل رجل سخي رفيق، قال: ثم كأن فتيلة أطفئت. فمات، فبلغ ابن هرمة الشاعر موته فأنشأ يقول:

سألاً عن المجد والمعروف أين هما؟

فقلت: إنهما ماتا مع الحكم

ماتا مع الرجل الموفى بدمته

يوم الحفاظ إذا لم يوف بالذم

ماذا بمنبج لو تُنبش مقابرها

من التهدم بالمعروف والكرم

حدثنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن موسى السمري عن حماد بن إسحاق ابن إبراهيم عن أبيه قال: قيل للمغيرة بن شعبة: ما بقي من لذتك؟ قال: الإفضال على الإخوان، قيل: فما أحسنُ الناس عيشاً؟ قال: من عاش بعيشه غيره، قيل: فمن أسوأ الناس عيشاً؟ قال: من لا يعيش بعيشه أحد.

استحباب التفريج عن الناس

بقضاء الحوائج

حدثنا أبو عمرو محمد بن محمود النسائي، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا محاضر بن المورع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من نَفَسَ عن أخيه كُرْبَةً من كُرْبِ الدنيا نَفَسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسِّرَ على معسر، يَسِّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على المسلمين كافة نصيحة المسلمين والقيام بالكشف عن همومهم وكرههم؛ لأن من نَفَسَ كربة من كرب الدنيا عن مسلم نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن تَحَرَّى قضاء حاجته ولم يُقْضَ قضاؤها على يديه فكأنه لم يقصر في قضائها، وأيسر ما يكون في قضاء الحوائج استحقاق الثناء، والإخوان يعرفون عند الحوائج، كما أن الأهل تختبر عند الفقر؛ لأن كل الناس في الرخاء أصدقاء، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة، كما أن شر البلاد بلدة ليس فيها خِصْبٌ ولا أمن.

وأنشدني الكريزي:

واصطناع العُرف أبقي مصطنعُ

خيرُ أيامِ الفتى يومٌ نَفَعُ

يَحْصُدُ الزارع إلا ما زَرَعُ

ما يُنالُ الخيرُ بالشر، ولا

ربما انحط الفتى، ثم ارتفعُ

ليس كلُّ الدهر يوماً واحداً

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس، حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي، حدثنا بشر ابن عمر، حدثنا الربيع قال: كان الحسن يقول "قضاء حاجة أخ مسلم أحب إليّ من اعتكاف شهرين".

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

فإنَّ من خلفك ما تعلمُ

سابق إلى الخير وبادرُ به

على الذي قدمه يَقدِّمُ

وقدم الخير، فكل امرئ

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي، حدثنا محمد بن موسى البصري، حدثنا الأصمعي، حدثنا أبو معمر شبيب بن شيبه الخطيب قال: لما حضرت ابن سعيد ابن العاص الوفاة قال لنيه "يا بني، أيكم يقبل وصيتي؟ فقال ابنه الأكبر: أنا قال: إن فيها قضاء ديني، قال: وما دينك يا أبت؟ قال: ثمانون ألف دينار،

قال: يا أبت فيم أخذتها؟ قال: يا بني في كريم سددت خلّته، ورجل جاءني في حاجة وقد رأيت السوء في وجهه من الحياء، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها" قال أبو حاتم رضي الله عنه: حقيق على من علم الثواب أن لا يمنع ما ملك من جاه أو مال إن وجد السبيل إليه قبل حلول المنية، فيبقى عن الخيرات كلها، ويتأسف على ما فاته من المعروف.

والعاقل يعلم أن من سحب النعمة في دار الزوال لم يخلُ من فقدها، وأن من تمام الصنائع وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال.

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن المهلي قال: دخل أبو العتاهية على الرشيد، فقال: سل يا أبا العتاهية، فقال:

فلا قرّبتُ من ذاك المنال

إذا كان المنال ببذل وجه

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

ولكل دهر دولةٌ ورجال

يبقى الثناء وتنفدُ الأموال

إلا الصبور عليهم المفضل

ما نال مَحَمَدَةَ الرجال وشكرهم

حدثني محمد بن عبدل بن المهدي الشعرائي، حدثنا محمد بن يزيد الطرسوسي حدثنا ابن عائشة قال: قال أبي "جاء رجل إلى يحيى بن طلحة بن عبيد الله، فقال له: هب لي شيئاً، قال: يا غلام أعطه ما معك، فأعطاه عشرين ألفاً، فأخذها ليحملها فثقلت عليه، فقعد بيكي، فقال: ما بيكيك؟ لعلك استقللتها فأزيدك، قال: لا، والله ما استقللتها، ولكن بكيت على ما تأكل الأرض من كرمك، فقال له يحيى: هذا الذي قلت لنا أكثر مما أعطيناك".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب الإلحاف عند السؤال في الحوائج؛ لأن شدة الاجتهاد ربما كانت سبباً للحرمان والمنع، والطالب للفلاح كالضرب بالقداح: سهم له، وسهم عليه، فإن أعطى وجب عليه الحمد، وإن منع لزمه الرضاء بالقضاء، ولا يجب أن يكون السؤال إلا في ديار القوم ومنازلهم، لا في المحافل والمساجد والملا؛ لأن محمد بن محمود النسائي حدثنا، قال: حدثنا علي بن خَشْرَم، حدثنا جرير بن عبد الحميد الضبي عن حنيف المؤذن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا تسألوا الناس في مجالسهم ومساجدهم فتفحشوههم، ولكن سلوهم في منازلهم، فمن أعطى أعطى، ومن منع منع".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الذي قاله عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه إذا كان المسئول كريماً، فإنه إن سئل الحاجة في نادي قومه ولم يكن عنده قضاءؤها تشور وحجل. وأما إذا كان المسئول لثيماً ودُفع المرء إلى مسألته في الحاجة تقع له فإنه إن سأله في مجلسه ومسجده كان ذلك أقضى لحاجته، لأن

اللئيم لا يقضي الحاجة ديانة ولا مُروءة، إنما يقضيها إذا قضاها طلباً للذكر والمحمدة في الناس.
 على أبي أستحب للعاقل أن لو دفعه الوقت إلى القَدِّ ومَصَّ الحَصَى ثم صبر عليه لكان أحرى به من أن
 يسأل لئيمًا حاجة؛ لأن إعطاء اللئيم شين، ومنعه حَتْفٌ.
 ولقد أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

فإن قليل ما يعطيك زينُ

إذا أعطى القليل فتىً شريف

فإن كثير ما يعطيك شينُ

وإن تكن العطية من دنيِّ

أنبأنا أحمد بن محمد بن الفضل السجستاني بدمشق، حدثنا علي بن خشرم قال: سمعت سعيد بن مسلم بن
 قتيبة بن مسلم الباهلي يقول: خرجت حاجاً فمللت الحمل، فترلت أساير القطرات، فقال: أتانا أعرابي،
 فقال لي: يا فتى لمن الجمال بما عليها؟ قلت: لرجل من باهلة، قال: يا الله أن يعطي الله باهلياً كل ما أرى،
 قال: فأعجبني از دراؤه بهم، ومعى صُرَّةٌ فيها مائة دينار، فرميت بها إليه، فقال: جزاك الله خيراً! وافقت
 مني حاجة، فقلت: يا أعرابي، أيسرك أن تكون الجمال بما عليها لك وأنت من باهلة؟ قال: لا، قلت:
 أيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنت باهلي؟ قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أي من باهلة، فقلت: يا
 أعرابي، الجمال بما عليها لي وأنا من باهلة، قال: فرمى بالصُرَّةِ إليّ، فقلت: سبحان الله! ذكرت إلهما
 وافقت منك حاجة، قال: ما يسرني أن ألقى الله ولباهليّ عندي يد، فحدثت بما المأمون، فجعل يتعجب
 ويقول: ويحك يا سعيد! ما كان أصبرك عليه.

حدثنا محمد بن الرقام بتستّرَ حدثنا أبو حاتم السجستاني حدثنا الأصمعي حدثنا هاشم بن القاسم قال:
 سألت سالم بن قتيبة حاجة، فقضاها، ثم سألته أخرى، فانتهرني وقال: حاجتني في حاجة، أو قال: على
 الريق؟ ثم دعا بالطعام، فلما تغدى قال: هات حاجتك، أما سمعت قول الصبيان:

فليس في الحق غلام مثلي

إذا تغديت وطابت نفسي

- إلا غلام قد تغدى قبلي - أنبأنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا مهدي بن سابق عن عطاء بن
 مصعب قال: قال أبو عمرو المنذري: أتيت مسلم بن قتيبة في حاجة، وكان له صديق من أهل الشام
 فكلمته أن يكلمه في حاجتي، فجعل يقول: اليوم، غداً، فطال عليّ، فترأيت له، وقد كان يعرفني، فدعاني
 فقال: أبا عمرو، إنك لهنا؟ قلت: نعم، أطلبك بحاجة منذ كذا وكذا وسيلتي فيها فلان، فضحك وقال:
 قد كنت أراك قد أحكمت الآداب، لا تستعن إلا من تطلب إليه حاجة بمن له عنده طُعمَةٌ؛ فإنه لا يؤثرك
 على طعمته، ولا تستعن بكذاب؛ فإنه يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، ولا تستعن بأحمق، فإن

الأحمق يجهد لك نفسه، ولا يكون عنده شيء، ولا يبلغ لك ما تريد، فانصرفت، فقلت: يكفيني هذا، قال: لا، ولكن تقضي لك حاجتك، فقضاها.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للعاقل أن يتوسل في قضاء حاجته بالعدو، ولا بالأحمق، ولا بالفاسق، ولا بالكذاب، ولا بمن له عند المسئول طعمة، ولا يجب أن يجعل حاجتين في حاجة، ولا أن يجمع بين سؤالي وتقاض، ولا يظهر شدة الحرص في اقتضاء حاجته، فإن الكريم يكفيه العلم بالحاجة دون المطالبة والاقتضاء.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

فاصبر، ولا تكُ للمِطال مُلوّلاً

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة

عند الأمور إذا نهضت ثقيلاً

لا تُظهِرنَ شرّةَ الحريص، ولا تكن

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي العرزمي:

فحضوره يكفيك والتسليم

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة

حمّلتَه فكأنه ملزوم

فإذا رآك مسلماً عرف الذي

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يتسخط ما أعطى، وإن كان تافهاً؛ لأنه من لم يكن له شيء فكل شيء يستفيده ربح، ولا يجب أن يسأل الحاجة كل إنسان: فرب مهروب منه أنفع من مستغاث إليه، ولا يجب أن يكون السائل متشفعاً لآخر؛ لأن من لم يقدر على أن يسبح فلا يجب أن يحمل على عنقه آخر، ومن سئل فليبدل؛ لأن مال المرء نصفان، له ما قدم، ولوارثه ما خلّف، وأقرب الأشياء في الدنيا زوال المال والولاية، والتعاهد للصنيعة بالتحفظ عليها أحسن من ابتدائها، ومن غرس غراساً فلا يَصْنَنُ بالنفقة على تربيته، فتذهب النفقة الأولى ضياعاً.

حدثني محمد بن أبي علي الخلامي حدثني محمد بن أبي يعقوب الربعي حدثنا عبد الكريم بن محمد الموصلي حدثنا أبي، قال: سمعت أبا تمام حبيب بن أوس الطائي يقول: وقفت على باب مالك بن طوق الرحي أشهراً فلم أصل إليه، ولم يعلم بمكاني، فلما أردت الانصراف قلت للحاجب: أتأذن لي إليه أم أنصرف؟ قال: أما الآن فلا سبيل إليه، قلت: فيأصل رقعة؟ قال: لا، ولا يمكن هذا، ولكن هو خارج اليوم إلى بستان له فاكتب الرقعة وارم بها في موضع أرائيه الحاجب، فكتبت:

د عنك، فلم تحجب القافية

لعمري، لئن حَبَبْتِي العبي

ر شنعاء تأتيتك بالداهية

سأرمي بها من وزراء الجدا

تصم السميع وتعمى البصير

ومن بعدها تسأل العافية

فكثبت بها ورميت بها من المكان الذي أرانيه الحاجب فوقعت بين يديه، فأخرجها فنظر فيها، فقال: عليّ بصاحب الرقعة، فخرج الخادم، فقال: من صاحب الرقعة؟ قلت: أنا، فأدخلت عليه، فقال لي: أنت صاحب الرقعة؟ قلت: نعم، فاستنشدني، فأنشدته. فلما بلغت - ومن بعدها تسأل العافية - قال: لا، بل نسأل العافية من قبلها، ثم قال: حاجتك؟ فأنشأت أقول:

ماذا أصببت من الجواد المفضل؟

ماذا أقول إذا انصرفت وقيل لي:

ضنّ الجواد بماله، لم يجمل

وإن قلت: أغناني كذبت، وإن أقل

لا بد أخبرهم، وإن لم أسأل

فاختر لنفسك ما أقول، فإنني

فقال: إذا والله لا أختار إلا أحسنها، كم أقمت بباي؟ قلت: أربعة أشهر، قال: يعطى بعدد أيامه ألوفاً، فقبضت مائة وعشرين درهم.

سمعت محمد بن نصر بن نوفل بقوقل يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: كان ببغداد رجل يقال له: ابن الهفت، فمر يوماً على سائل واقف على الجسر، وهو يقول: اللهم ارزق المسلمين حتى يعطوني، فقال له: تسأل ربك الحوالة؟

الحث على إعطاء السؤال

وطلب المعالي

حدثنا محمد بن صالح الطبري بالصيمرة حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء الهمداني حدثنا مصعب بن المقدم حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر قال "ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا، ولا ضرب بيده شيئاً قط".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إني لأستحب للمرء طلب المعالي من الأخلاق، مع ترك رد السؤال؛ لأن عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق، والندامة موكلة بترك معالجة الفرصة، وإن الحرّ - حقّ الحرّ - من أعتقته الأخلاق الجميلة، كما أن أسوأ العبيد من استعبده الأخلاق الدنية، ومن أفضل الزاد في المعاد اعتقاد المحامد الباقية، ومن لزم معالي الأخلاق أنتج له سلوكها فراخاً تطير بالسرور.

ولقد حدثني محمد بن سعيد القزاز حدثنا هارون بن صدقة القاضي حدثنا المسيب بن واضح يقول: سمعت يوسف بن أسباط يقول: ما كان المال مذ كانت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان.

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

بأدر هواءك إذا هممت بصالح

خوف العوائق أن تجيء فتغلب

وإذا هممت بسبي فتعده

وتجنب الأمر الذي يتجنب

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما ضاع مال ورث صاحبه مجداً، ولولا المتفضلون مات المتحملون، وليس يستحق المرء اسم الكرم بالكف عن الأذى إلا أن يقرنه بالإحسان إليهم، فمن كثر في الخير رغبته، وكان اصطناع المعروف همته، قصده الراجون، وتأمله المتأملون، ومن كان عيشه وحده ولم يعيش بعيشة غيره فهو - وإن طال عمره - قليل العمر، والبائس من طال عمره في غير الخير، ومن لم يتأس بغيره في الخير كان عاجزاً، كمان أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره كان كالغاش لمن تجب عليه نصيحته، ومن لم يكن له همة إلا بطنه وفرجه عُدَّ من البهائم، والهمة تُبلِّغ الرتبة العالية؛ لأن الناس بهمتهم. ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا ابن عائشة قال: قال عبيد الله بن زياد بن ظبيان: كان لي خال من كلب، فكان يقول لي: يا عبيد الله، هم؛ فإن الهمة نصف المروءة. وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي.

قد بلونا الناس في أخلاقهم

فرأيناهم لذي المال تبغ

وحبيب الناس من أطمعهم

إنما الناس جميعاً بالطمع

حدثنا عمر بن حفص البزاز - بجند يسابور - حدثنا إسحاق بن الضيف حدثنا الحسن بن واقع الرملي حدثنا ضمرة بن ربيعة، قال: سمعت كديراً أبا سليمان الضبي يقول "كان لقصر إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ثمانية أبواب من حيث جاء السائل أعطى". حدثنا محمد بن أحمد الرقام - بتستر - حدثنا إسحاق بن الضيف حدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: سمع رجلاً إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بها إليه. وأنشدني الكريزي:

لا تحقرن صنيع الخير تفعله

ولا صغير فعال الشر من صغره

فلو رأيت الذي استصغرت من حسن

عند الثواب أطلت العجب من كبره

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله اليماني يقول: سمعت صالح بن آدم يقول: أنشد إنسان عند عبد الله بن جعفر هذين البيتين:

إن الصنيعة لا تكون صنيعاً

حتى يُصاب بها طريق المصنع

فإذا صنعت صنّيعة فأعمد بها

الله، أو لذوي القرابة، أودع

فقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين يبخلان الناس؛ ينبغي لمن عمل بهذا أن يدعو لمن طلب حاجة بالبينة، بل تُبثُّ الصنائع ويُرمَى بها مواضع القَطْر حيث حَلَّت، وفي مثله يقول العتايي:

له في ذوي المعروف نُعمَى، كأنه

مواقعُ ماء القَطْر في البلد القَفْر

إذا ما أتاه السائلون لحاجة

علته مصابيحُ الطلاقة والبِشْرِ

حدثنا أحمد بن محمد سعيد القيسي حدثنا أحمد بن مسروق حدثني ابن سعيد عن شيخ له قال: رأيت ابن المبارك يَعَضُّ يد خادِم له، فقلت له: تعضُّ يدَ خادِمك؟ قال: كم أمره أن لا يعد الدرهم على السؤال، أقول له: أحتُّ لهم حَنُوءاً.

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: قال إبراهيم بن أبي البلاد: حدثني أخي قال: رأيت الحجاج بمنى في عمله على العراق، وقام إليه رجال من أهل الحجاز يسألونه، فقال: توهتم بنا أنا بغير بلادنا وما لكم مَتْرَك، مَنْ ههنا من أهل العراق؟ فقام إليه تجار أهل العراق، فقال: هل من سلف؟ فقالوا: نعم، فحملوا إليه ألف ألف درهم، فقسمها، فلما قدم العراق ردها، وما أكثر ظني أنها ومثلها معها.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأقرضَ فالأقرضَ، يبدأ بأهل بيته، ثم بإخوانه وجيرانه، ثم الأقرب فالأقرب، ويتحرى المعروف والإحسان في أهل الدين والعلم منهم، ويجتنب ضد ما قلنا؛ لأن مثلَ من لم يفعل ما أوْمَأنا إليه كما أنشدني الحسين بن أحمد البغدادي:

تَصُولُ على الأدنى، وتجتنب العدا

وما هكذا تُبْنَى المكارمُ يا يحيى

فكنتَ كفحل السوء ينزو بأمه

ويترك باقي الخيل سائمة ترعى

وأنشدني البسامي:

وكنت كمهريق الذي في سقائه

لرُقراق ماءٍ فوق رابية صَدَدٍ

كمرضعة أولادٍ أخرى، وضيّعت

بني بطنها، هذا الضلالُ من القصد

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يتدبّر بالصنائع قبل أن يسأل؛ لأن الابتداء بالصنّيعة أحسن من المكافأة عليها، والإمساك عن التعرض خير من البذل، والصنائع إنما تحسن بإتمامها، والتحافظ عليها بعدها؛ لأن بصلاح الخواتم تزكو الأوائل، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والناس في الصنائع على ضربين: شاكر، وكافر، ولقد أنشدني بعض إخواننا:

وما الناسُ في حسن الصنّيعة عندهم

وفي كفرهم إلا كبعض المزارع

ومزرعة أكُدتْ على كل زارع

فمزرعة طابت وأضعف ريعُها

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

يكن ضائعاً في غير حمد ولا أجر

ومن يَضَع المعروف في غير أهله

إذا وقعت عند امرئ غير ذي شكر

وحسب امرئ من كُفِر نُعمَى جُحودُها

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

وفي أهله إلا كبعض الودائع

لعمرك ما المعروفُ في غير أهله

ومستودع ما عنده غير ضائع

فمستودع ضاع الذي كان عنده

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الهمج من الناس إذا أحسن إليه يرى ذلك استحقاقاً منه له، ثم يرى الفضل لنفسه على المحسن إليه، فلا يحمد عند الخير، ولا يشكر عند البر، ويتعجب ممن يشكر، ويذم من يحمد، وإذا امتحن العاقل بمثل من هذا نعتة استعمل معه ما أنشدني الكريزي:

حَسِبَ الإِكرام حقا لزمكُ

إن ذا اللؤم إذا أكرمته

إن تهنه بهوان أكرمك

فأهنه بهوان، إنه

وأنشدني الأبرش:

يَعُدُّكَ قد قتلتَ له قتيلاً

إذا أولَّيتَ معروفاً لثيماً

وقل: إنني أتيتك مستقبلاً

فكن من ذلك معتذراً إليه

وإن عاقبتَ لم تظلم قتيلاً

فإن تغفر، فمجترمي عظيمٌ

وقد حَمَلتني حملاً ثقيلاً

ولستُ بعائدُ أبداً لهذا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أهنأ الصنائع، وأحسنها في الحقائق، وأوقعها بالقلوب، وأكثرها استدامة للنعم، واستدفاعاً للنقم، ما كنت خالية عن المنن في البداءة والنهاية، معترية عن الامتنان، وهو الغاية في الصنعة، والنهاية في الإحسان.

ولقد أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

في كل وقت وزمنُ

أحسنُ من كل حسنُ

خالية من المننُ

صنعة مريوبة

حدثنا محمد بن غدار بن محمد الحارثي بالبصرة حدثنا سهل بن زادويه حدثنا محمد بن أبي الدواهي عن أبيه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما أحسن الدنيا وإقبالها
من لم يُؤاس الناس من فضلها
فأحذر زوال الفضل يا حائراً
فإن ذا العرش سريع الجزا
إذا أطاعَ الله من نالها
عرَضَ للأدبار إقبالها
وأعطِ من الدنيا لمن سالها
يُخلف بالحبة أمثالها

حدثنا محمد بن المهاجر حدثنا محمد بن أحمد بن النضر المعني حدثني سعيد حدثني أبوك - يعني أباه أحمد بن النضر - قال: كان بالكوفة قوم من العرب، فأصابت رجلاً منهم حاجة، فكان عياله يغزلون ويبيعون، وكان يشترِكهم، فقالوا: لا تعود علينا بشيء، وما نكسب تشر كنا فيه، فأنف من قولهم، فخرج يؤم بغداد، ولم يدخل بغداد قبل ذلك، وليس له حميم ولا قريب بها، فدخلها ومراً على وجهه، فمر على باب يعقوب بن داود كاتب المهدي، فرأى قوماً جلوساً عليهم بزّة، فقال: ما أخلق هؤلاء دُعوا إلى وليمة، لو دخلت معهم لعلّي أصيبُ شَبعة فاندسَّ معهم، فخرج الإذن، فقال: ادخلوا، فدخلوا إلى دار قوراء كبيرة، وإذا بهوٌّ في صدر الدار، فجلسوا في البهو يَمَنّة ويسرة، وأحلوا الصدر فجاء يعقوب فسلم عليهم وقعد، ثم قال: يا غلام، هات، فجاء بصوان عليها مناديل مغطى بها، وإذا فيها أكياس، فقال: أعطهم، فوضَعوا في حجر كل رجل منهم كيساً، ووضعوا في حجري كيساً، حتى فرغ منهم، ثم قال: أعد عليهم، فوضع في حجر كل رجل منهم كيساً حتى وإلى بين خمسة أكياس، ثم قال: قوموا مباركاً لكم، وقد تعينه الخدم، وليس له عندهم اسم ولم يعرفوه: فلما بلغ الدهليز ربطوه فصاح وصاحوا، وسمع يعقوب الصوت، فقال: ما هذا؟ فقالوا رجل دخل مه هؤلاء القوم لا نعرفه، فقال: علي به، فقال له: يا عبد الله، ما أدخلك هذه الدار؟ فقص عليهم القصة والسبب الذي دخل له، فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: من يعرفك بالكوفة؟ قال: يعرفني فلان وفلان، فسمى له قوماً يعرفهم، فقال: خلوا عن الرجل، إنا كاتبون إلى هؤلاء القوم: فإن كان الأمر على ما ذكرت، فتعال كل سنة في هذا الوقت، ولك عندنا مثل هذا، وكتب إلى القوم، فسألهم فكتبوا بمعرفته، فكان يجيء أيام حياته فيأخذ خمسة آلاف وينصرف.

الحث على الضيافة

وإطعام الطعام

حدثنا حامد بن محمد بن شعيب البلخي ببغداد حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا أبو الأحوص عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرَمْ ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جارَه" قال أبو حاتم رضي الله عنه: إني لأستحب للعائل المداومة على إطعام الطعام والمواظبة على قرى الضيف؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان الندى، ومن أعظم مراتب ذوي الحجى، ومن أحسن خصال ذوي النهى، ومن عرف بإطعام الطعام شرف عند الشاهد والغائب، وقصده الراضي والعاتب، وقرى الضيف يرفع المرء وإن رقى نسبه إلى منتهى بغيته ونهاية محبته، ويُشرفه برفيع الذكر وكمال الذخر.

حدثنا محمد بن زنجويه القشيري حدثنا أبو مصعب حدثنا الدراوردي عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم الخليل أول من أضاف الضيف.

حدثنا الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب حدثنا الأصمعي أخبرني نافع بن أبي نعيم قال: قال رجل ممن أدرك الجاهلية "قدمت المدينة، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار دليم، وهو جد سعد ابن عباد بن دليم سيد الخزرج، ثم ضرب الزمان من ضربه، فقدمت المدينة، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار عباد، ثم ضرب الزمان من ضربه فقدمتها، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار سعد.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القريب والقاصي، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف. والعرب لم تكن تعدُّ الجود إلا قرى الضيف، وإطعام الطعام، ولا تعد السخي من لم يكن فيه ذلك، حتى أن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين.

ولقد حدثني محمد بن المنذر حدثنا علي بن الحسن الفلسطيني حدثنا أبو بكر السني حدثنا محمد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف على الطريق في أذنيه قرطان، وفي كل قرطة جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة، وهو يمجّد ربّه بأبيات من شعر، فسمعتة يقول:

مليك في السماء به افتخاري عزيز القدر ليس به خفاء

فدنوت إليه، فسلمت عليه، فقال: ما أنا براد عليك سلامك حتى تؤدي من حقي الذي يجب لي عليك، قلت: وما حقي؟ قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل، لا أتعدى ولا أتعشى حتى أسير الميل والميلين في طلب الضيف، فأجبتة إلى ذلك، قال: فرحب بي وسرت معه حتى قربنا من خيمة شعر، فلما قربنا من

الخيمة صاح: يا أختاه، فأجابته جارية من الخيمة يَالْبَيْكَاة قال: قومي إلى ضيفنا هذا، قال: فقالت الجارية: أصبر حتى أبدأ بشكر الذي سبب لنا هذا الضيف، قال: فقامت وصلّت ركعتين شكراً لله، قال: فأدخلني الخيمة، فأجلسني، فأخذ الغلام الشُّفْرَةَ، وأخذ عنقاً له ليذبحها، فلما جلست في الخيمة نظرت إلى جارية أحسن الناس وجهاً، فكنت أسارقها النظر، ففطنت لبعض لحظاتي، فقالت لي: مه، أما علمت أنه قد نقل إلينا عن صاحب يثرب - تعني النبي محمد صلى الله عليه وسلم -: إن "زنا العينين النظر" أما أي ما أردت بهذا أن أوبخك، ولكني أردت أن أؤدبك لكيلا تعود لمثل هذا، فلما كان وقت النوم بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة وباتت الجارية في الخيمة، قال: فكنت أسمع دويّ القرآن الليل كله أحسن صوت يكون وأرقه، فلما أن أصبحت قلت للغلام: صوت من كان ذلك؟ قال: فقال: تلك أختي تُحيي الليل كله إلى الصباح، قال: فقلت: يا غلام، أنت أحق بهذا العمل من أختك، أنت رجل وهي امرأة، قال فبتسم، ثم قال: ويحك يا فتى! أما علمت أنه موفق ومخذول. وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

قبل العيال، فإنّ ذلك أصوبُ

إذا ما أتاك الضيفُ فابداً بحقه

عليك بما توليه مثننٍ وذاهب

وعظمٌ حقوق الضيف واعلم بأنه

أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلي عن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال: صحبت ابن المبارك من خراسان إلى بغداد فما رأيته أكلَ وحده. حدثني محمد بن عثمان العقبي حدثنا أبو أمية حدثنا عصام بن عمرو أبو حميد الطائي حدثنا عمرو بن هانئ قال: كان رافع بن عميرة بن عمرو السنبيسي - فخذٌ من طيء - يُعَدِّي أهل ثلاثة مساجد، ويعيشيهم، يوماً بثراند، ويوماً برطبة، يعني الحيس، وما له قمص إلا قميص هو لجمعته وهو للبيت. قال أبو حاتم رضي الله عنه: يجب على العاقل ابتغاء الأضياف، وبذل الكسر؛ لأن نعمة الله إذا لم تُصنَّ بالقيام في حقوقها ترجع من حيث بدأت، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهف عليها، ولا الأفكار في الظفر بها، وإذا أدى حق الله فيها استجلب النماء والزيادة، واستذخر الأجر في القيامة، واستقصر إطعام الطعام. وعنصر قرى الضيف هو ترك استحقاق القليل، وتقديم ما حضر للأضياف؛ لأن من حَقَّر منع، مع إكرام الضيف بما قدر عليه، وترك الادخار عنه.

ولقد حدثني كامل بن مكرم حدثنا محمد بن يعقوب الفرجي حدثنا الوليد ابن شجاع حدثنا عقبه بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنهما سألا الأوزاعي: ما إكرام الضيف؟ قال: طَلَاقة الوجه، وطيب الكلام. وأنشدني الكريزي في قوم لم يكونوا يضيفون:

وقالوا: لا تتم للديديبان

فصق بالبنان على البنان

يُصلون الصلاة بلا أذان

أقاموا الديديبان على يفاع

إذا أبصرت شخصاً من بعيد

تراهم خشية الأضياف خرساً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أبجل البخلاء من بجل بإطعام الطعام، كما أن من أجود الجود بذله، ومن صنَّ بما لا بد للحنة منه، ولا تربو النفس إلا عليه: كان بغيره أبجل، وعليه أشح.

ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس، فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعزُّ من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً. وأنشدني كامل بن مكرم أنشدني محمد بن سهيل:

وإن فنائي للقري لرحيبُ

فيخصبُ عندي، والمحلُّ جديب

ولكنما وجه الكريم خصيب

وإني لطلق الوجه للمبتغي القري

أضاحك ضيفي عند إنزال رحله

وما الخصب للأضياف أن يكثر القري

وأنشدني الأبرش:

فليس ينقصها التبذير والسرفُ

فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفُ

لا تبخلنَّ بدنيا، وهي مقبلة

وإن تولت فأحري أن تجود بها

أنبأنا الأنصاري حدثنا الغلابي حدثنا العقبى عن أبي مخنف لوط بن يحيى حدثني هشام بن عروة عن أبيه: إن قيس بن سعد بن عبادة خرج من مصر، فمرَّ بأهل بيت من القيين فتزل بهم، فنحر لهم صاحب المنزل جزوراً وأتاهم به، فقال: دونكم، فلما كان من الغد نحر لهم آخر، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث، فنحر لهم مثله، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عشرين ثوباً من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل، وخرج قيس، فما سار إلا قليلاً حتى أتاه صاحب البيت على فرس كريم ورمح طويل، وقدامه الثياب والدرهم، فقال: يا هؤلاء، خذوا بضاعتكم عني، قال قيس: انصرف أيها الرجل، إنا لم نكن لناخذها، فقال الرجل: لتأخذونها، أو لا ينفذ منكم رجل، أو تذهب نفسي، فعجب قيس منه، وقال: لم؟ لله أبوك! ألم تكرمنا وتحسن إلينا؟ فكأفأناك، ما في هذا من بأس، فقال الرجل: إنا لا نأخذ لقري ابن السبيل وقري الضيف ثمناً، لا والله لا أفعل أبداً، قال لهم قيس: أما إذ أبي فخذوها منه، فأخذوها، ثم قال قيس: ما فضّلني رجل غير هذا.

حدثنا أحمد بن عمرو الزبقي بالبصرة حدثنا الحسن بن مدرك السدوسي حدثنا عبد العزيز بن عبد الله

القرشي حدثنا سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال: لأن أشيع كبدًا جائعة أحب إلي من حجة بعد حجة.

حدثنا محمد بن سعيد القزاز حدثني عيسى بن أبي موسى الأنصاري حدثني أبي حدثنا أحمد بن بشير عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان من دعاء قيس ابن سعد بن عبادة "اللهم ارزقني مالا وفعالاً؛ فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال"

الحث على المجازاة على الصنائع

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي حدثنا عبد الرحمن بن بكر بن الربيع ابن مسلم، قال: سمعت الربيع بن مسلم يقول: سمعت محمد بن زياد يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على من أُسدي له معروف أن يشكره بأفضل منه أو مثله؛ لأن الإفضال على المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قلَّ، فمن لم يجد فليُثنِ عليه، فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف، وما استغنى أحد عن شكر أحد. ولقد أنشدني محمد بن زنجي البغدادي:

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد
لعزّه مُلْكٌ، أو علوّ مكان
لما أمر الله العباد بشكره
فقال: اشكروني أيها الثقلان
وأنشدني الكريزي:

إذا المرء لم يشكر قليلاً لربه
فليس له عند الكثير شكور
ومن يشكر المخلوق يشكر لربه
ومن يكفر المخلوق فهو كفور
وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

حافظ على الشكر كي تستجزل القسما
من ضيّع الشكر لم يستكمل النعما
الشكر لله كنز لا نفاذ له
من يلزم الشكر لم يكسب به ندما

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابي حدثنا العقبى قال: مر سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة فاستسقى فسقوه، ثم مر بعد ذلك بالدار ومناد يناد عليها فيمن يزيد، فقال لمولاه: سل، لم تباع هذه؟ فرجع إليه فقال: على صاحبها دين قال: فارجع إلى الدار، فرجع، فوجد صاحبها جالسا وغريمه معه، فقال لم تباع دارك؟ قال: لهذا عليّ أربعة آلاف دينار، فتزل وتحدث معهما، وبعث غلامه فأتاه ببكرة فدفع إلى الغريم

أربعة آلاف، ودفع الباقي إلى صاحب الدار، وركب ومضى.
وأشدي المنتصر بن بلال:

ومن يُسدِّ معروفًا إليك، فكن له
ولا تبخلن بالشكر، والقرضَ فاجزِهِ
شكوراً يكن معروفُهُ غير ضائع
تكن خير مصنوع إليه وصانع

وأشدي بعض أهل العلم.

فكن شاكرًا للمنعين لفضلهم
ومن كان ذا شكر فأهلُ زيادة
وأفضلُ عليه إذ قدرت وأنعم
وأهل لبذل العرف من كان يُنعم
وأشدي الكريزي:

أحق الناس منك بحسن عون
وأشكرهم أحقهم جميعاً
لمن سلفت لكم نعم عليه
بحسن صنيعه منكم إليه

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحر لا يكفر النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أو شك أن لا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله عز وجل وعلا، ولمن أسداها إليه.

ولقد حدثني أحمد بن محمد القيسي حدثني محمد بن المنذر حدثنا إسحاق بن إبراهيم القرشي قال: سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثني يقول ماتت لعبيد بن معمر بنت، فقعد في المأتم في مسجده في سكة سبانوش، فجاء عبيد الله بن أبي بكره معزيا، وإذا الأشراف قد أخذوا مواضعهم، فنظر إليه رجل قد كان سبق إلى مجلسه مع الأشراف قد عرفه، فقام قائما، وجعل يقول له: ههنا، حتى أخذ بيده فأقعده في مجلسه، ثم ذهب فقعد في أخريات الناس، فأمر عبيد الله غلاماً كان معه أن يتعاهده إلى قيامه، فلما قام دعا الرجل، فقال: أتعرفني؟ قال: نعم، قال: من أنا؟ قال: أنت عبيد الله بن أبي بكره صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فما حملك على تركك مجلسك لي؟ قال: إجلالا لولد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أوجب الله على أمثالي خصوصا من التبجيل، فقال له عبيد الله: هل لك على أن تصحبنا إلى ضيعة نريد أن نصير إليها؟ قال نعم، قال فصحبته الرجل إلى تلك الضيعة في نهر مكحول، ضيعة فيها ثلاثمائة جريب نخل وعلى وجه الضيعة قصر بُني بأجرٍ وجص وخشب ساج، فلما دخل الضيعة أخذ عبيد الله بيد الرجل وجعل يدور به في تلك النخيل، فقال للرجل: كيف ترى هذه الضيعة؟ قال: تا الله ما رأيت نخيلا أحسن منها، ولا أكثر ثمرة ولا أسرى ضيعة منها، قال: قد جعلناها لك بما فيها من الخدم

والآلة نبعث إليك بصكها، قال: فاستطار الرجل فرحا وبكاء، وقال أنعشتني وأنعشت عيالي، فقال عبيد الله: وكم لك من العيال؟ قال: ثلاثة عشر نفسا، قال: فإني قد جعلت اسم عيالك في اسم عيالي: أنفق عليهم ما عشت، فقال له عبيد الله: من تكون له مثل هذه الضيعة يحتاج أن يكون منزله في سرّة البصرة، إذا صرنا إلى منزلنا فاغد علينا نأمر لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة، ورأس مال وخدم تصلح لدارك تعيش بها إن شاء الله، قال: فغدا الرجل عليه، فأمر له بشراء دار بخمسة آلاف دينار، وأعطاه عشرة آلاف دينار، ودفع إليه صك الضيعة، وأمر له بدابة وبغل وسائس وكسوة وصرفه. وأنشدني الأبرش:

الشكر يفتح أبوابا مُغلقة الله فيها على من رامه نعمٌ
فبادر الشكر، واستغلق وثائقه واستدفع الله ما تجري به النقمُ

حدثنا أحمد بن الحسن المدائني بمصر قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير، قال: فأعطيته إياها وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب:

ومن يشكر العرف الصغير فإنه سينمى، ويجتر المزيد أصاغره
ومن يشكر المعروف يحمّد إلهه ويضعف أضعافاً على الحمد شاكره

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

وإذا اصطنعت إلى أخي ك صنّيعه، فأنس الصنّيعه
والشكر من كرم الفتى والكفر من لؤم الطيّعه
والصبر أكرم صاحبٍ فاصحبه، إن نزلت فجيّعه

حدثنا أحمد بن قريش بن بشر بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم بن محمد الذهلي حدثنا أحمد بن خليل حدثنا يحيى بن أيوب عن أبي عيسى قال: كان إبراهيم ابن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفاً حرص على أن يكافئه، أو يتفضل عليه، قال أبو عيسى: فلقيني وأنا على حمار، وأنا أريد بيت المقدس، جاثيا من الرملة، قال: وقد اشترى بأربعة دوانيق ثُفاحاً وسَفَرَجَلاً وخَوْحاً وفاكهة، فقال: يا أبا عيسى: أحب أن تحمل هذا، قال: وإذا عجوز يهودية في كوخ لها، فقال: أحب أن توصل هذا إليها، فإني مررت وأنا مُمسٍ، فبيّتني عندها، فأحب أن أكافئها على ذلك. وأنشدني الكريزي.

يُدُّ المعروف غنمٌ حيث تُسدَى تحمّلها شكورٌ، أم كفورٌ

كفى شكر الشكور لها جزاءً

وعند الله ما كفر الكفور

وأنشدني بعض أهل العلم:

رهنتُ يدي للعجز عن شكرِ برِّه

وما فوق شكري للشكور مزيد

ولو كان شيء يستطيعُ استطعته

ولكنَّ ما لا يستطيع شديدُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على المرء أن يشكر النعمة، ويحمد المعروف على حسب وسعِهِ وطاقته، إن قدر فبالضعف، وإلا فبالمثل، وإلا فالمعرفة بوقوع النعمة عنده، مع بذل الجزاء له بالشكر، وقوله جزاك الله خيراً، فمن قال له ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء.

ومن الناس من يكفر النعم، وكفران النعم يكون من أحد رجلين: إما رجل لا معرفة له بأسباب النعم والحجازة عليها، لما لم يركب فيه من التفقد لمراعاة العشرة، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه، وترك المناقشة على فعله، والرجل الآخر: إن يكون ذا عقل لم يشكر النعمة، استخفافاً بالمنعم، واستحقاراً للنعمة، وتهاونا في نفسه لها أو لأحدهما، فإذا كان كذلك يجب على العاقل ترك العود إلى فعل مثله، والخروج باللائمة على نفسه إذا كان له خبرة به.

وأنشدني علي بن محمد:

علامة شكر المرء إعلان حمده

فمن كتّم المعروف منهم فما شكّر

إذا ما صديقي نال خيراً، فخانني

فما الذنب عندي للذي خان أو فجر

ولكن إذا أكرمته بعد كفره

فإني ملوم حيث أكرم من كفر

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب:

إذا أنا أعطيتُ القليل شكرتم

وإن أنا أعطيتُ الكثير فلا شكر

وما لمت نفسي في قضاء حقوقكم

وقد كان لي فيما اعتذرت به عذر

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إني لأستحب للمرء أن يلزم الشكر للصنائع والسعي فيها من غير قضائها إذا كان المنعم من ذوي القدر فيه، والاهتمام بالصنائع لأن الاهتمام ربما فاق المعروف، وزاد على فعل الإحسان. إذ المعروف يعمل المرء لنفسه، والإحسان يصطنعه إلى الناس، وهو غير مهتم به، ولا مشفق عليه، وربما أفعله الإنسان وهو مكاره. والاهتمام لا يكون إلا من فرط عناية وفضل ود، فالعاقل يشكر الاهتمام أكثر من شكره للمعروف.

أنشدني عبد العزيز بن سليمان:

إنَّ اهتمامك بالمعروفِ معروفٌ
فالشيءُ بالقدرِ المجلوبِ مصروفٌ

لأشكرنك معروفاً هممت به
ولا ألومك إن لم يمضه قدرٌ

وأشدني ابن زنجي البغدادي.

ومُضِيعُ الشكرِ مُستدعى الغيرِ
ربما ابتزَّ الفتى النعمى البطرِ

بَطِرَ النعمة مَنْ ضيَّعها
فاجعل الشكرَ عليها حارساً

حدثني عمرو بن محمد حدثنا محمد بن زكريا حدثنا محمد بن عبد الله الجشمي حدثنا علي بن محمد قال: مرَّ عمر بن هبيرة - لما انصرف في طريقه - فسمع امرأة من قيس تقول: لا والذي ينجي عمر بن هبيرة، فقال: يا غلام، أعطها ما معك، وأعلمها أي قد نجوت.

الحث على سياسة الرياسة

ورعاية الرعية

حدثنا عبد الله بن قحطبة حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري حدثنا مؤمل ابن إسماعيل حدثنا سفيان حدثنا عبد الله بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على رعيته، ومسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها، وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: صرحت السنة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن كل راع مسئول عن رعيته، فالواجب على كل من راعياً لزوم التعاهد لرعيته، فرعاة الناس العلماء، وراعي الملوكة العقل، وراعي الصالحين تقواهم وراعي المتعلم معلمه، وراعي الولد والده، كما أن حارس المرأة زوجها، وحارس العبد مولاه، وكل راعٍ من الناس مسئول عن رعيته.

وأكثر ما يجب تعاهد الرعية للملوك؛ إذ هم رعاة لها، وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أمورهم، وعقد الأشياء وحلها من ناحيتهم، فإذا لم يراعوا أوقاتهم ولم يتناطوا لرعيتهم هلكوا وأهلكوا، وربما كان هلاك عالم في فساد ملك واحد، ولا يدوم مُلكُ ملك إلا بأعوان تطيعه، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودوداً نصوحاً، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأي، ولا يتم قوام هؤلاء إلا بالمال، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل، فكأن ثبات الملك لا يكون

إلا بلزوم العدل، وزواله لا يكون إلا بمفارقة.

فالواجب على الملك أن يتفقد أمور عماله، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء؛ لأنه إذا جني عليه أعمال عماله لم يكن قائماً بالعدل. ولقد أنشدني علي بن محمد السامي:

وبينك: تأمن كل ما تتخوف

إذا سئمت قوما فاجعل العدل بينهم

فبالجود فاجمع بينهم يتألفوا

وإن خفت من أهواء قوم تشنتنا

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب القاضي حدثنا الأصمعي قال: قال ملك طخرستان لنصر بن سيار: ينبغي للأمير أن يكون له ستة أشياء: وزير يثق به ويفضي إليه بسره، وحصان يلجأ إليه إذا فرغ أنجاه يعني فرساً، وسيف إذا نازل به الأقران لم يخف أن يخونه، وذخيرة خفيفة الحمل إذا نابته نائبة أخذها، وامرأة إذا دخل إليها أذهبت همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له شيئاً يشتهي.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للسلطان أن يفرط البشاشة والهشاشة للناس، ولا أن يُقلَّ منها. فإن الإكثار منهما يؤدي إلى الخفة والسخف، والإقلال منها يؤدي إلى العجب والكبر، ولا ينبغي له أن يغضب؛ لأن قدرته من وراء حاجته، ولا أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، ولا له أن ييخل؛ لأنه لا عذر له في منع الأموال والجاه معاً، ولا له أن يحقد؛ لأنه يجب أن يترفع عن المجازاة، فأفضل السلطان ما لم يخالطه البطر، وأعجزهم آخذهم بالهويناء. وأقلهم نظراً في العواقب، وخير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النصور.

ويجب عليه استبقاء الرياسة، وما فيه من نعمة الله عليه، بلزوم تقوى الله وتفقد أمور الرعية، وإنصاف بعضهم بعضاً؛ لأنه ما من قوي في الدنيا إلا وفوقه أقوى منه، فمتى ما عرف السلطان فضل قوته على الضعفاء فعزَّه ذلك من قوة الأقوياء كانت قوته حيناً عليه وهلاكاً له، والضعيف المحترس أقرب إلى السلامة من القوي المغتر؛ لأن صرعة الاسترسال لا تكاد تُستقال، ولا يجب أن يعجل في سلطانه بعقاب من يخاف أن يندم عليه، ولا يثقن بمن عاقبه بغير جرم.

وما أشبه السلطان إلا بالنار، إن قصرت بطل نفعها، وإن جاوزت عظم ضررها، فخير السلطان من أشبه الغيث في أحيانه في نفع من يليه، لا من أشبه النار في أكلها ما يليها.

والسلطان إذا كان عادلاً خيراً من المطر إذا كان وابلاً، وسلطان غشوم خيراً من فتنة تدوم، والناس إلى عدل سلاطهم أحوج منهم إلى خصب زمانهم.

ولقد حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مرجي بن المؤمل بن المثني المري عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس "الولي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه".

وأشدي ابن الزنجي البغدادي للأفوه الأودي:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ ولا سَرَاةَ إِذَا جُهِلَهُمْ سَادُوا
والْبَيْتُ لا يُبَيِّنَتِي إِلا بِأَعْمَدَةٍ ولا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فإن تَجَمَّعَ أَوْتَادُ وَأَعْمَدَةٌ وساكنٌ أدركوا الأمر الذي كادوا
تُهْدِي الأُمُورَ بأهلِ الرَّأي ما صلحت فإن تولَّتْ فبالأشْرار تنقادُ

قال أبو حاتم رضى الله عنه: الواجب على السلطان قبل كل شيء أن يبدأ بتقوى الله وإصلاح سريره بينه وبين خالقه، ثم يتفكر فيما قلده الله من أمر إخوانه، ورفعهم عليهم؛ ليعلم أنه مسئول عنهم في دق الأمور وجلها، ومحاسب على قليلها وكثيرها، ثم يتخذ وزيراً صالحاً عاقلاً عفيفاً نصوحاً، وعمالاً صالحين برة راشدين وأعداء مستورين، وخداماً معلومين، ثم يقلد عماله ما لا غنى له عنهم، ولا يشترط عليهم تقوى الله وطاعته، وأخذ المال من حله، ويفرقه في أهله، ثم يتفقد أمر بيت المال بأن لا يُدخِلَهُ حبةً فما فوقها من قهر أو جور، أو سلب أو نهب أو رشوة؛ فإنه مسئول عن كل ذرة منه، ومحاسب على كل حبة فيه، ثم لا يخرجها إلا في المواضع التي أمر الله جل وعلا في سورة الأنفال.

ثم يتفقد أمور الحرمين وطريق الحاج ومحاورى بيت الله، وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يتفقد ثغور المسلمين، ولا يولي على الثغور من عماله إلا من يعلم أن القتل في سبيل يكون أثر عنده من البقاء في الدنيا ليغري الناس ولا يعطل الثغر.

ثم يتفقد ثغور المسلمين ومراقبهم والأبرجة التي بين المسلمين وبين عدوهم، بأن يعمرها ويقيم فيها أعيناً من المسلمين تتجسس أخبار العدو، ويُجرى عليهم من بيت مالهم.

ثم يتفقد أولاً المهاجرين والأنصار بعطايهم، ويعرف فضيلتهم، وسابقة آبائهم، وأنه نال ما ناله بهم. ثم يتفقد أمور الحكام بأن لا يولي أحداً على قضاء المسلمين إلا من يعلم منه العفاف والعلم، وترك الميل إلى الهوى، والحكم بغير ما يوجبه العلم.

ثم يتفقد أهل العلم والقراء والمؤذنين والصالحين وضعفاء المسلمين، ولكن لمن هو أصغر سنّاً منه أباً، ولن هو أكبر منه ابناً، ولأثرابه أحياناً، فيكون في تفقد أمورهم ولصالح أسباغهم أكثر من تفقدهم بأنفسهم.

ثم يختار من الرعية أقواماً أمناء، يبعث بهم في كل سنة إلى المدن؛ ليشرفوا على العمال والحكام، ويتفقدوا أسبأهم وسيرهم، ويخبروه بها، فيعزل من استحق منهم العزل، ويقر من اتبع الحق. ثم يجعل لنفسه موضعاً لا يمنع منه لطح القصص، ويرز للرعية في كل يوم، أو في كل ثلاثة أيام، أو في كل أسبوع، ليرفعوا إليه حوائجهم، وليجتنب الحدة، وليلوم الحلم الدائم فيما يرد عليه من أسبأهم وقد حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا محمد بن زنبور، حدثنا أبو بكر ابن عياش: إن أهل الجاهلية لم يكونوا يسودون عليهم أحداً لشجاعة ولا لسخاء إنما كانوا يسودون من إذا شتم حُلم، وإذا سئل حاجة قضأها، أو قام معهم فيها. وأنشدني الأبرش:

وقد يُبغِضُ الحياتِ أو لآدُ آدم
وأبغضُ ما فيها رءوسها
وما ابتليت يوماً بشر قبيلة
أضرَّ عليها من سفيه يسؤسها

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يستحق أحد اسم الرياسة حتى يكون فيه ثلاثة أشياء: العقل، والعلم، والمنطق.

ثم يتعري عن ستة أشياء: عن الحدة، والعجلة، والحسد، والهوى، والكذب، وترك المشاورة. ثم ليلزم في سياسته على دائم الأوقات ثلاثة أشياء: الرفق في الأمور، والصبر على الأشياء، وطول الصمت.

فمن تعرى عن هذه الأشياء - وهو ذو سلطان - عمى عليه قلبه، وتشتت عليه أموره، ومن لم يكن فيه خصلة من هذه الخصال نقص من ضوء بصر قلبه مثلها، ودخل الخلل في أموره نحوها. وإنما مثل الرئيس والرعية، كمثل جماعة ليس فيهم إلا قائد واحد؟ فإن لم يكن ذلك القائد أحد الناس بصراً، وأطفهم نظراً، كان خليقاً أن يوقعهم وإياه في وهدة تندق أعناقهم وعنقه معهم. والواجب على السلطان أن لا يغفل عن الأشياء الأربعة التي صلاحه في دينه ودينه فيها، وهي ما حدثنا به عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي حدثنا محمد بن عبيد الله الجشمي حدثنا المدائني قال: "خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كالיום، ولا سمعت به كأربع كلمات تكلم بهن رجل أنفاً من عند هشام بن عبد الملك، فقيل له: وما هن؟ قال: قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أحفظ عني أربع كلمات، فيهن صلاح ملكك، واستقامة رعيتك. قال: هاتهن، قال: لا تعدنَّ عدّة لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقى، وإن كان سهلاً، إذا كان المنحدرُ وعرًا، وأعلم أن للأعمال جزاءً، فاتق العواقب، وإن للأمور بغتات، فكن على حذر.

وأنشدني المنتصر بن بلال:

إلى أن تأتي الساعة

بلاء الناس مذ كانوا

وحب السمع والطاعة

بحب الأمر والنهي

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب للعاقل طلب الإمارة؛ لأن من أوتيتها عن مسألة وُكِّلَ إليها، ومن أعطيها من غير مسألة أعين عليها، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز؛ لأن الريح الشديدة لا تحطم الكلاء، وهي تحطم دوح الشجر ومشيد البنيان.

وليلزم المشورة؛ فإن في المشورة صلاح الرعية ومادة الرأي، وليصنع إلى الناس كافة في الوقت الذي يقدر على الصنائع والمعروف قبل أن يجيئه الوقت الذي يفقد فيه القدرة عليها، وليعتبر بمن كان قبله من الملوك والأمراء والسادة والوزراء لأن من ظفر بأمر جسيم فأضاعه فاته، ومن أمكنته الفرصة فأخر العمل فيها لا تكاد تعود إليه.

والسلطنة إنما هي قول الحق والعمل بالعدل، لا التفاخر في الدنيا واستعمال البذل.

ولقد حدثنا محمد بن سعيد القرزاق، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: قال أبو عمرة بن العلاء: "كانوا لا يسودونَ إلا من تكاملت فيه ست خصال وتماهمن في الإسلام السابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتماهمن في الإسلام: الحياء". وأنشدني الكريزي:

إلى العلياء بالعمل الوثيق

إذا نلت الإمارة فاسمُ فيها

وليس المحض كاللبن المذيق

بمحض خليقة لا عيبَ فيها

ولا مرّاً فتتَّشَبَّ في الحُلُوق

ولا تكُ عندها حلواً فتُحَسَى

مُغَيَّرَ الصديق عن الصديق

وكل إمارة إلا قليلاً

قال أبو حاتم رضي الله عنه: من صحب السلطان فلا يجب أن يكتمه نصيحته؛ لأن من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بته؛ فقد خان نفسه، ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام، كما أن راكب العجل لا يأمن العثار، ولا يجب أن يأمن غضب السلطان إن صدقه، ولا عقوبته إن كذبه، ولا يجترئ عليه، وإن أدناه؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السم اتكالا على ما عنده من الترياق والأدوية. وإني لأستحب لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله والعمل الصالح، كأنه يتعلم منه، ويؤدبه كأنه يتأدب به، ويتقى سخطاته، والسخط إذا كان من علة كان الرضا عنه مجوداً، وإذا كان من

غير علة ينقطع حينئذ الرجاء ولا يجب أن يعلم كل ما تأتي الملوك من أمورها؛ لأن في معرفتهم إياها بعض الفتنة وهيئات! من ذا صحب السلطان فلم يفتتن، ومن اتبع الهوى فلم يعطب؟ إن الشجرة الحسنة ربما كان سبب هلاكها طيب ثمرتها، وربما كان ذنب الطاووس الذي فيه جماله سبب حتفه؛ لأنه يثقله حتى يمنعه من الهرب، ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه؛ لأن الأتجار إنما تكون عذبة ما لم تنصب إلى البحور، فإذا وقعت في البحور ملحت، على أن قعود العلماء عن أبواب الملوك زيادة في نور علمهم، وكثرة غشيانهم إياهم غشاوة على قلوبهم، ومن صحب الملوك لم يأمن تغييرهم ومن زایلهم لم يأمن تفقدهم، وإن قطع الأمور دونهم لم يأمن فيها مخالفتهم، وإن عزم على شيء لم يجد بداً من مؤامرتهم، وأسمح شيء في الملوك الحدة.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا المبارك بن سعيد الثوري قال: كان يقال: خمس خلال هن أقبح شيء بمن كن فيه: الحدة في السلطان، والكبر في ذي الحسب، والبخل في الغنى، والحرص في العالم، والفتوة في الشيخ.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: رؤساء القوم أعظمهم هموماً، وأدومهم غموماً، وأشغلهم قلوباً، وأشهرهم عيوباً، وأكثرهم عدواً، وأشدهم أحزاناً، وأنكاهم أشجاناً، وأكثرهم في القيامة حساباً، وأشدهم - إن لم يعف الله عنهم - عذاباً.

ومن أحسن ما يستعين به السلطان على أسبابه، اتخاذ وزير عفيف ناصح على ما تقدم ذكرنا له، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن سولت له نفسه سيئة صده، وإن أراد طاعة نشطه، فهو المحجب إلى الناس، والمستجلب له دعاءهم. ولقد أنشدني علي بن محمد البسامي:

فإن الذنب فيه للوزير

أمور الناس، تذكير الأمير

إذا نسي الأمير قضاء حق

لأن على الوزير، إذا تولى

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على كل من يغشى السلطان وامتنح بصحبته أن لا يعد شتمه شتماً، ولا إغلاظه إغلاظاً، ولا التقصير في حقه ذنباً؛ لأن ريح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة، فإن أنزله الوالي منزلة رفيعة من نفسه فلا يثقن بها، وليجانب معه الكلام الملق والإكثار من الدعاء في كل وقت، وكثرة الانبساط، فرب كلمة أثار الوحشة، بل يجتهد في توقيره وتعظيمه عند الناس، فإن غضب فليحتل في تسكين غضبه باللين والمداراة، ولا يكون سبباً لتهييجه.

ولقد حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة عن أبيه قال: بعث أبو جعفر إلى جعفر بن محمد قال: إني أستشيرك في أمر، إني قد تأنيت أهل المدينة مرة بعد أخرى فلا أراهم يرجعون، ولا يعتبون. وقد رأيت أن أبعث فأحرق نخلها، وأغور عيونها، فما ترى؟ فسكت جعفر. فقال: ما لك لا تكلم؟ قال: إن أذنت لي تكلمت. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أُعطي فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف قَدَرَ فغفر. وقد جعلك الله من النسل الذي يعفون ويصفحون. قال: فطفئ غضبه وسكن.

حدثني محمد بن أبي علي الخلابي، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد عن محمد بن حميد بن فروة عن أبيه قال: لما استقرت للمأمون الخلافة، دعا إبراهيم بن مهدي المعروف بابن شكلة فوقف بين يديه، فقال: أنت المتوثب علينا تدعي الخلافة؟ فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أنت ولي الثأر، مُحَكَّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت بحق وأن عفوت عفوت بفضل، ولقد حضرت أبي وهو جدك أتى برجل كان جرمه أعظم من جرمي، فأمر الخليفة بقتله وعنده المبارك بن فضالة: إن رأى أمير المؤمنين أن يستأني في أمر هذا الرجل حتى أحدثه بحديث سمعته من الحسن يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إيه يا مبارك، قال: حدثني الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ مُنَادٍ بَطْنَانَ العرش ألا لِيَقْمُ العافُونَ من الخلفاء، فلا يقوم إلا من عفا" فقال الخليفة له: يا مبارك، قد قبلت الحديث، وعفوت عنه، أخرج أيها الرجل، فلا سبيل لأحد عليك، فقال المأمون: يا عم، ههنا، يا عم ههنا.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله جل وعلا في كل لحظة وطرفة؛ لئلا يطغيه ما هو من تسلطه، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه، وأنه هو المنتقم ممن ظلم، والمجازي لمن أحسن، فليلزم في إمرته السلوك الذي يؤديه إلى اكتساب الخير في الدارين، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله؛ فإنه لا محالة مستول عن شكر ما هو فيه، كما هو لا محالة مستول عن حسابه، إذ المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: ألم أحملك على الخير، ورزقتك النساء، وجعلتك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: فأين شكر ذلك؟".

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

إذا صلحت في الصدر أشفى وأبينُ

يدبرُ أسباب الرحال مؤمراً

وتحسم ما تخشاه، والأمر ممكن

من العقل أن تحتاط فيما وليته

الدنيا وتقلبها بأهلها

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عبلة، حدثنا أبي عن عمه إبراهيم بن أبي عبلة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا يا ابن جشع، يكفيك منها ما سد جوعتك، ووارى عورتك، فإن يكن ثوبا تلبسه فذاك، وإن كانت دابة تركبها فبخ فلح الخبز، وماء الحب، وما فوق الإزار حساب عليك".

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن لا يغتر بالدنيا وزهرتها، وحسنها وبهجتها، فيشتغل بها عن الآخرة الباقية، والنعم الدائمة، بل يتزها حيث أنزلها الله؛ لأن عاقبتها لا محالة تصير إلى فناء، يخرب عمرانها، ويموت سكانها، وتذهب بهجتها، وتبيد خضرتها، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمراً، ولا فقير مسكين محتقر، إلا ويجري عليهم كأس المنايا، ثم يصيرون إلى التراب، فييلون حتى يرجعون إلى ما كانوا عليه في البداية إلى الفناء، ثم يرث الأرض ومن عليها علام الغيوب، فالعاقل لا يركن إلى دار هذا تعنتها، ولا يطمئن إلى دنيا هذه صفتها وقد ادخر له ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيضن بترك هذا القليل، ويرضى بفوت ذلك الكثير.

حدثنا محمد بن المسيب بن إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي قال: سمعت بشر بن الحارث يقول:

وعندك الإسلام والعافية

لا تأس في الدنيا على فائت

ففيهما من فائت كافية

إن فات أمر كنت تسعى له

وأنشدني الكريزي، أنشدني شعيب بن أحمد لسليمان بن يزيد العدوي:

وأن المنايا للرجال تشعب

ألم ترى أن المرء يودي شبابه

وأخر أخرى مثلها يترقب

فمن ذائق كأساً من الموت مرة

وكل بكأس الموت يوماً سيشرب

لها منهم زاد حثيث وسائق

ولا سالب إلا وشيكا سيُسلب

وما وارث إلا سيورث ماله

ولا نعمة إلا تبيد وتذهب

ولا آلف إلا سيتبع إلفه

يعاورها العصران إلا سيعطب

وما من معان والمصائب جمّة

تقلبهم أيامها وتقلبوا

أرى الناس أصنافاً أقاموا بغربة

وقد عاينوا فيها زوالاً وجربوا

بدارٍ غرور حلوة يعمرونها

يذمون دنيا لا يريحون دَرَّها
تَسْرهم طورا، وطَوَّرا تُذيقهم

فلم أر كالدنيا تدم وتحلب
مَضِيضَ مكاوِ حَرُّها يتلهب

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبيد الله قال: عاد رجل مريضا فسمع قائلا يقول من ناحية البيت:

ناد ربَّ الدار ذا المال الذي

جمع الدنيا بحرص: ما فَعَلُ؟

فأجابه مجيب:

كان في دار سواها داره

عللته بالمنى، ثم انتقل

لم يُمتع بالذي كان حوى

من حُطام المال، إذ حلَّ الأجل

إنما الدنيا كظلِّ زائل

طلَّعتْ شمسٌ عليه فاضمحل

قال أبو حاتم رضي الله عنه: رأيت على حجر بطبرستان مكتوب:

العيش لوانان: فحلو ومرّ

والدهر نصفان: فريف وضر

والنطق جزآن: فبعر، وذُرّ

والناس اثنان: فنذل، وحر

يومك يومان: فخير، وشر

نهار يزول، وليل يُكِرُّ

وكذاك الزمان على من مضى

وكل السنين على ذا تمرّ

وأنشدني الأبرش:

إنما الدنيا نهارٌ

ضوءها ضوءٌ معارٌ

بينما غصنكُ غضٌ

ناعمٌ فيه اخضرار

إذ رمّاه زمانه

فإذا فيه اصفرار

وكذلك الليل يأتي

ثم يمحوه النهار

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

يا لائمَ إذا ما نبا

لا تلم الدهر على غدِّه

الدهرُ مأمور له أمر

ينصرف الدهر إلى أمره

كم كافرٍ بالله أمواله

تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمن ليس له درهم

يزداد إيماناً على فقره

لا خير فيمن لم يكن عاقلاً

يبسط رجليه على قدره

وأنشدني الكريزي:

ما الدهر إلا ليلةٌ ويومٌ

والعيش إلا يقظةٌ ونومٌ

يعيش قوم، ويموت قوم

والدهر قاضٍ، ما عليه لوم

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سلم، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا إسحاق الموصلي قال: قال أبو حازم: بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثر منها في أوان كسادها؛ فإنه لو جاء أوان نفاقها لم تصل منها لا إلى قليل ولا إلى كثير.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الدنيا بحر طَفَّاح، والناس في أمواجها يعمومون، وفي أمثالها تضرها الأيام للأنام - وما أكثر أشباهها منها - لأن كل ما يصير إلى فناء منها يشبهها، فمن أوتي من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أوتي الدنيا بجزاها: الأمن، والقوت، والصحة، لا يغتر بشيء منها إلا كل خداع، ولا يركن إليها إلا كل مناع.

فالعاقل يعلم أن ما لم يبق لغيره عليه غير باق، وإن ما سلب عن غيره لا يترك علي، فالقصد إلى ما يعود بالنفع في الآخرة للعاقل في الدنيا، أخرى من السلوك في قصد الضنِّ بها، والجمع لها من غير تقديم ما يقدم عليه في الآخرة من الأعمال الصالحة، وترك الاعتزاز بها، والاعتبار بتقلبها بأهلها، ولا شيء أعظم خطراً من الحياة، ولا غبن أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد، ومن اشتهي أن يكون حراً فليجتنب الشهوات، وإن كانت لذيذة، وليعلم كل لذية ليس بنافع، ولكن كل نافع هو اللذيذ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباح فإنها لا تمل، وأعظم الأرباح الجنة، والاستغناء بالله عن الناس.

ولقد أنشدني علي بن محمد البسامي:

فأعظم بصبر للزمان، فإنه

على حالة المكروه ليس بدائم

تدورُ لنا أفلاكه بعجائب

إذا ما انقضت كانت كأحلام نائم

سرورٌ وهمٌّ وانتعاشٌ، وسقطَةٌ

إلى أجلٍ دانٍ لذلك هادم

وبالله

دون الناس فاستغن واستعنا إذا أنزلت إحدى الأمور العظام

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

والناس في هذه الدنيا على رتب

هذا يُحطُّ، وذا يعلو فيرتفعُ

فاخلص الشكر فيما قد حُببتَ به

وآثر الصبر، كلُّ سوف ينقطع

وأنشدني المنتصر بن بلال:

فيوم علينا ويوم لنا
ويوماً نساءً، ويوماً نسرُ
كذلك التقارُض بين الأنام
فخير بخير، وشرُّ بشرُ

أبناً محمد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبد الله عن عبد الله عن مسعر عن معن بن عون قال: كم من مستقبل يوماً لا يستكملهُ، ومنظرٌ غداً لا يُدرِكهُ، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: السبب المؤدي للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها، ترك الركون إليها مع تقديم ما قدرَ منها للعيش الدائم، والنعيم المقيم هو تركُ طول الأمل، ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطرفة؛ لأن طول الآمال قطعت أعناق الرجال، كالسراب أخلف من رجاءه، وخاب من رآه. فالعاقل يلزم تركها، مع الاعتبار الدائم. من مضى من الأمم السالفة، والقرون الماضية، كيف عَفَتْ آثارهم، واضمحلّت أباؤهم، فما بقى منهم إلا الذكر، ولا من ديارهم إلا الرسم، فسبحان من هو قادر على بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب.

ولقد أنشدنا عمرو بن محمد، قال: أنشدنا الغلابي قال: أنشدني مهدي بن سابق:

كنا على ظهرها، والعيش ذو مهلٍ
والدهر يجمعنا، والدارُ والوطنُ
ففرق الدهر ذو التصريف ألفتنا
فاليوم يجمعنا في بطنها الكفن
كذلك الدهر لا يبقي على أحد
تأتي بأقداره الأيامُ والزمنُ

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

حتى متى يبقي حليفَ الأسي
مستشعراً للدهر أحزانا
فلا يُردُّ الحزنُ شيئاً، ولا
يُعْتَبُ هذا الدهرُ إنسانا
قد يُقبل الدهر بسرائه
طوراً، وقد يدبر أحيانا
فاصبر على ما جرَّ من حادث
ما زال غداراً وخوانا
وأحسن الظنَّ بمن لم يزل
عليك مفضالاً ومنانا

وأنشدني عمرو بن محمد قال: أنشدني الغلابي لابن أبي عيينة المهلي:

ما راح يوم على حي ولا ابتكرا
إلا رأى عبرة فيها إن اعتبر
ولا أتت ساعة في الدهر فانصرفت
حتى تؤثر في قوم لها غيرا

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا الحسن بن سعيد الجرجاني قال: سمعت أبا مريم الصلت بن كلثم يقول: كانت امرأة من بني إسرائيل متعبدةً، وكانت تفطر كل سبت، فبينما هي ذات يوم قد وضعت إفطارها بين يديها جعلت تقول: محب يحب حبيبته يتشاغل بالأكل عن خدمة محبه، فيوشك أن يقدم عليه رسول حبيبه وهو متشاغل بأكله عند خدمته، فلا تفر عينه بلقائه فمكنت كذلك مدة لا تفطر. قال: ثم وضعت إفطارها بين يديها، وجعلت تقول مثل ما كانت تقول، وإذا شاب من ناحية البيت جميل الوجه طيب الريح، فقال: سلام عليك ورحمة الله يا حبيبة الله، أو يا ولية الله، قالت: وعليك السلام، من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قالت: يا ملك الموت، أتأذن لي أن أسجد سجدة أناجي فيها ربي، فإذا رأيته قد فعلت ذلك قبضت روحي؟ قال: لك ذلك، فنحَّت إفطارها، ثم وثبت فسجدت، فقبض روحها في اجتهادها رضي الله عنها.

الحث على لزوم ذكر الموت

وتقديم الطاعات

حدثنا عبد الله بن محمد بن سليمان السعدي، حدثنا يحيى بن أكثم ومحمود بن غيلان قالوا: حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكثرُوا ذكرَ هاذم اللذات: الموت" قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يضم إلى رعاية ما ذكرنا من شُعب العقل في كتابنا هذا لزوم ذكر الموت على الأوقات كلها، وترك الاغترار بالدنيا في الأسباب كلها، إذ الموت رَحَى دَوَّارة بين الخلق، وكأس يدارُ بها عليهم، لا بد لكل ذي روح أن يشربها ويذوق طعمها، وهو هاذم اللذات، ومنغص الشهوات، ومكدر الأوقات، ومزيل العاهات. ولقد أنشدني عبد العزيز بن سليمان:

تحازر نفسي منك ما سيصيبها

ونفسي سيأتي بعدها نصيبها

أيا هاذم اللذات، ما منك مهربٌ

رأيتُ المنايا قُسمت بين أنفس

وأنشدني الكريزي:

قاعدٌ من سروره في غرور

تَ إذا كان عاقلا من سرور

إنَّ من عاش آمناً في سرورٍ

ما لمن يذكرُ المقابرَ والمو

حدثنا عمرو بن محمد الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قرئ على قصر هذه الأبيات:

هذي منازل أقوام عهدتهمُ
في ظل عيش عجيب، ما له خطرُ
صاحتُ بهم حادثات الدهر، فانقلبوا
إلى القبور، فلا عينٌ ولا أثرُ

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عب الله بن محمد، حدثني إبراهيم ابن عبد الملك، حدثني علي بن سلمة الحلبي قال: سمعت أبي يقول: كان معاوية يقول "أنا والله من زرع قد استحصَد" ونعى له عبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عقبة، وكان أحدهما أكبر منه، والآخر دونه، فقال:

إذا سار مَنْ خَلْفَ امرئٍ وأمامه
وأفرد من إخوانه فَهَوَّ سائرُ

حدثنا أحمد بن محمد بن مصعب الشافعي، حدثنا عبد الله بن محمد قال: سمعت عبيد الله بن مسلم بن زياد الهمداني قال: سمعت عمر بن ذر يقول: ورث فتى من الحي داراً عن آبائه وأجداده فهدمها، ثم ابتناها وشيدها، فأتي في منامه ف قيل له:

إن كنت تطمَعُ في الحياة فقد ترى
أرباب دارِكِ ساكنوا الأموات
أنِّي تحسُّ من الأكارم ذكرهم؟
خلت الديار وبادت الأصواتُ

قال: فأصبح الفتى مغتاطاً قد أمسك عن كثير مما كان يصنع، وأقبل على نفسه.

حدثنا عمر بن حفص البزاز، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا جعفر بن عون قال سمعت مسعرا يقول:

ومشيدٍ داراً لسكن داره
سكن القبور وداره لم يسكن

وأشدي ابن زنجي البغدادي:

لو أنني أعطيت سؤلي لما
سألت إلا العفو والعافية
فكم فتى قد بات في نعمة
فسلَّ منها الليلة الثانية؟

حدثنا حمزة بن داود بن سليمان، بالأبلة، حدثنا ذهل بن أبي شراة القيسي، قال: حدثني سَكِينَة - وكانت علامة - قالت: قال لي أبو العتاهية: دخلت على هارون أمير المؤمنين، فلما بَصُرَ بي قال: أبو العتاهية؟ قلت: أبو العتاهية، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت: الذي يقول الشعر. قال: عطني بأبيات شعر، وأوجز، فأنشدته:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفسٍ
ولو تمنعت بالحجَّاب والحرس
وأعلم بأن سهام الموت قاصدة
لكل مُدَّرِعٍ منا ومترس

ترجو النجاة، ولم تسلك مسالكها؟

إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فخر مغشياً عليه، أو كما قال.

حدثني عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا أبو جعفر البغدادي قال: قرأت على باب قصر بالسند:

نزل الموت منزلاً

سلب القوم وارتحل

فقلت ما هذا؟ فقالوا: مات أهل القصر كلهم، فأصبحوا وهذا الكتاب على الباب لا يدري من كتبه، وأنشدني البسامي:

قد يصبح المريض بعد إياس

كان منه ويهلك العواد

يُصاد القطا فينجو سليماً

بعد هُلك، ويهلك الصياد

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا ينسى ذكر شيء هو مترقب له، ومنتظر وقوعه من قدم إلى قدم، ومن لحظة إلى شزرة، فكم من مكرّم في أهله، معظم في قومه، مبجل في جبرته، لا يخاف الضيق في المعيشة، ولا الضنك في المصيبة، إذ ورد عليه مدلل الملوك، وقاهر الجبابرة، وقاصم الطغاة، فألقاه صريعاً بين الأحبة وجيرانه، مفارقاً لأهل بيته وإخوانه، لا يملكون له نفعاً، ولا يستطيعون عنه دفعاً. فكم من أمة قد أبادها الموت، وبلدة قد عطّلها، وذات بعل قد أرملها، وذو أب أيتمه، وذو أخوة أفرده. فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدي إلى ما قلنا، ولا يركن إلى عيش مغبته ما ذكرنا ولا ينسى حالة لا محالة هو موقّعها، وما لاشك يأتيه، إذ الموت طالب لا يعجزه المقيم ولا ينفلت منه الهارب. ولقد حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثني سلمة ابن شبيب حدثنا سهل بن عاصم قال: سمعت الوضاح بن حسان يقول: سمعت ابن السماك يحدث قال: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمى بشبكة في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويكي، ويقول: عزيز، فلم تُترك لعزك، غني، فلم تترك لغناك فقير، فلم تترك لفقرك، جواد، فلم تترك لجودك، شديد، فلم تترك لشدتك، عالم، فلم تترك لعلمك؟ يردد هذا الكلام ويكي. وأنشدني الكريزي:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها

ودورنا لخراب الدهر نبنينا

والنفس تكلف بالدنيا، وقد علمت

أن السلامة فيها ترك ما فيها

فلا الإقامة تنجي النفس من تلف

ولا الفرار من الأحداث ينجيها

وكل نفس لها زورٌ يصبّحها

من المنية يوماً أو يمسيها

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، قال سمعت ابن واقد المديني قال: حدثنا عبد المنعم الرياحي قال: فُقد مالكُ بن دينار يوماً، فقالوا: أين كنت يا أبا يحيى؟ قال؛ خرجت إلى الأبله، قالوا: ما أحسن ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئاً أعجبت به إلا أتي رأيت امرأة تصلي، فقالوا له: يا أبا يحيى، فما أعجبُ شيء رأيت؟ قال: رأيت بالبحرين قصرًا مشيداً، وإذا على بابه مكتوب:

طلبتُ العيشَ أسعدَ ناعميه
وعشتُ من المعاشِ والنعيمِ
فلم ألبثُ وربَّ الناسَ طَوْرًا
سلبتُ من الأقاربِ والحميمِ

وأنشدني الأبرش:

وللنفوسِ وإن كانت على وجل
والمرءِ يَبْسُطُها، والدهرُ يقبضُها
من المنيةِ آمالَ تقويها
والنفسُ تنتشرها، والموتُ يطويها

أبأننا حمزة بن داود بن سليمان بالأبله، حدثنا الهادي، حدثنا جليس الكلي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: لقيني عمران بن حطان فقال لي: يا أعمى، إني عالم بخلافك، ولكنك رجل تحفظ؟ فاحفظ عني هذه الأبيات:

حتى متى تسقى النفوس بكأسها
أفقد رضيت بأن تعلقَ بالمنى
ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع؟
أحلام نوم، أو كظل زائل
وإلى المنية كل يوم تدفع؟
فتزودن ليوم فقرك دائباً
إن اللبيب بمثلها لا يخدع
واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

حدثنا محمد بن نصر بن نوفل المروزي، قال: سمعت أبا داود السنجي يقول: خرج أبو معاذ النحوي يوماً مع أصحابه فقال: إنه قد نُعيت إلى نفسي البارحة، أتاني آت فقال:

يا أيها الإنسان، إنك ميتٌ
فكأنَّ ما قد كان لم يكِ إذ مضى
عما قليل قم لنفسك واقعدِ
وكأنَّ ما هو كائن فكأنَّ قدِ

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حرمله بن يحيى قال: سمعت الشافعي كثيراً ما ينشد:

تمني رجال أن أموت، وإن أمتُ
فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

فقل للذي يبقى خلافَ الذي مضى
تهيأ لأخرى مثلها فكأن قدِ

حدثنا أحمد بن محمد الشافعي، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثني إسماعيل ابن عبد الله العجلي قال: أنشدنا رجل ونحن في المقابر:

ء هذا عسكر الموتى

ألا يا عسكرَ الأحياء

وهم منتظروا الكبرى

أجابوا الدعوة الصغرى

وما زاد سوى التقوى

يحثون على الزاد

فهذا آخر الدنيا

يقولون لكم: جدوا

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن الله جل وعلا خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم عليها ظهرها، فأكلوا من ثمارها، وشربوا من أنهارها، ثم لا محالة تنزل المنية بهم، وتغنيهم عن السعي والحركات، مع تعطل الجثث والآلات، ثم تعيدهم إلى الأرض التي منها خلقهم، حتى تأكل لحومهم، كما أكلوا أثمارها، وتشرب دماءهم كما شربوا من أنهارها، وتقطع أوصالهم كما مشوا على ظهرها، فالقبر أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن مهد في دنياه لقبره، وقدم منها لآخرته، فكم عفرت الأرض من عزيز وأفقدت الغير من أنيس حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثني محمد بن عباس، حدثنا إبراهيم بن يزيد قال: رأيت أعرابياً وقف على مقبرة وهو يقول:

فهم ينقصون، وألقبورُ تزيد

لكل أناسٍ مقبرٍ بفنائهم

وقبراً لميتٍ بالفناء جديداً

وما إن ترى داراً لحيٍ قد أفقرت

فدانٍ، وأما المنقى فبعيد

فهم جيرةُ الأحياء، أما محلهم

وأنشدني أحمد بن عبد الله الكرجي لعمر بن شبة في نفسه:

وثمان كاملات

يا ابن سبعين وعشرٍ

لا بخدٍ مني وهات

غرضاً للموت مشغو

قى به بعد الممات

ويك لا تعلم ما تل

وكبار مهلكات

من صغار موبقات

ن آبائه والأمهات

يا ابن من قد مات م

من ذي طغاةٍ وعُتاةٍ؟

هل ترى من خالد

ن خسيسات الحياة

إن من يبتاع بالدي

وف بطول الحسرات

لغبي الرأي محف

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا شعيب بن واقد المري عن عبد المنعم الرياحي قال: سمعت صالح المري يقول: دخلت المقابر يوماً في شدة الحر فنظرت إلى القبور خامدة، كأنهم قوم صموت، فقلت. يا سبحان الله! من يجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها، ثم يحييكم وينشئكم من طول البلى؟ قال: فناداني مناد من بين الحفر: يا صالح "25:30" ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون" قال: فسقطت والله مغشياً عليّ.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار، والقليل من الجسيم من الأخبار، في كتابنا هذا بما نرجو أن القاصد إلى سلوك سبيل ذوي الحجى، والسالك مقصد سبيل أولي النهى، يكون لها في غُنية إن تدبرها واستعملها، وإن كنا تنكبنا طرق المسانيد، وتخريج الحكايات، وأناشيد الأشعار، إلا ما لم نجد بدا من إخراجها، كالإيماء إلى الشيء، والإشارة إلى القصد، جعلنا الله دعتة تباشير التوفيق إلى القيام بحقائق التحقيق؟ إنه منتهى الغاية عند رجاء المؤمنين، وألمان على أوليائه بمنازل المقربين. وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين الطيبين، والحمد لله رب العالمين.

وجد في النسخة الأصلية ما صورته: فرغ من نسخته بعون الله ورحمته العبد الفقير إلى عفو ربه أحمد بن محمد ابن سالم بن جناب المنبجي، بالرها المحروسة، يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم سنة ثمان وعشرين وستمائة. ختم الله له بخير ولوالديه ولجميع المسلمين!

الفهرس

2 مسند الكتاب إلى المؤلف , المقدمة
4 الحث على لزوم العقل
4 وصفة العاقل اللبيب
10 ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله
16 الحث على لزوم العلم
16 والمداومة على طلبه
21 الحث على لزوم الصمت
21 وحفظ اللسان
28 الحث على لزوم الصدق
28 ومجانبة الكذب
32 الحث على لزوم الحياء
32 وترك القححة
34 الحث على لزوم التواضع
34 ومجانبة الكبر
37 استحباب التعجب إلى الناس
37 من غير مقارفة المأثم
41 استعمال لزوم المداراة
41 وترك المداهنة مع الناس
43 استحباب إفشاء السلام
43 وإظهار البشر والتبسم
45 ما أبيض من المزاح للمرء
45 وما كره له منه
48 استحباب الاعتزال من الناس عاما
50 استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص

55	كراهية المعاداة للناس
59	الحث على صحبة الأخيار
59	والزجر عن عشرة الأشرار
61	كراهية التلون في الوداد بين المتأخيين
65	ائتلاف الناس واختلافهم
70	الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم
72	صفة الأحمق والجاهل
77	الزجر عن التجسس وسوء الظن
80	الحث على مجانبة الحرص للعاقل
83	الزجر عن التحاسد والبغضاء
86	الحث على مجانبة الغضب
86	وكراهية العجلة
89	الزجر عن الطمع إلى الناس
91	الحث على مجانبة المسألة
91	وكراهيتها
94	الحث على لزوم القناعة
97	الحث على لزوم التوكل
97	على من ضمن الأرزاق
100	الحث على لزوم الرضا بالشدائد
100	والصبر عليها
106	الحث على العفو عن الجاني
111	صفة الكريم واللتيم
114	الزجر عن قبول قول الوشاة
118	استحباب قبول الاعتذار من المعتذر
122	الحث على لزوم كتمان السر
127	الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة
130	وصية الخطاب بن المعلي المخزومي ابنه

134.....	الزجر عن تمأجر المسلمین كآفة
137.....	الحث على لزوم الحلم عند الأذى
142.....	الحث على لزوم الرفق
142.....	فی أمور وكرهیه العجلة فیها
145.....	الحث على تعلم الأدب
145.....	ولزوم الفصاحة
148.....	إباحة جمع المال للقائم بحقوقه
152.....	الحث على إقامة المروءات
156.....	الحث على لزوم السخاء
157.....	ومجانبة البخل
162.....	الزجر عن ترك قبول الهدایا من الإخوان
166.....	استحباب التفریج عن الناس
166.....	بقضاء الحوائج
170.....	الحث على إعطاء السؤال
170.....	وطلب المعالی
174.....	الحث على الضیافة
174.....	وإطعام الطعام
178.....	الحث على المجازاة على الصنائع
182.....	الحث على سیاسة الریاسة
182.....	ورعاية الرعیة
188.....	الدنیا وتقلبها بأهلها
193.....	الحث على لزوم ذكر الموت
193.....	وتقديم الطاعات
199.....	الفهرس

[To PDF: http://www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)